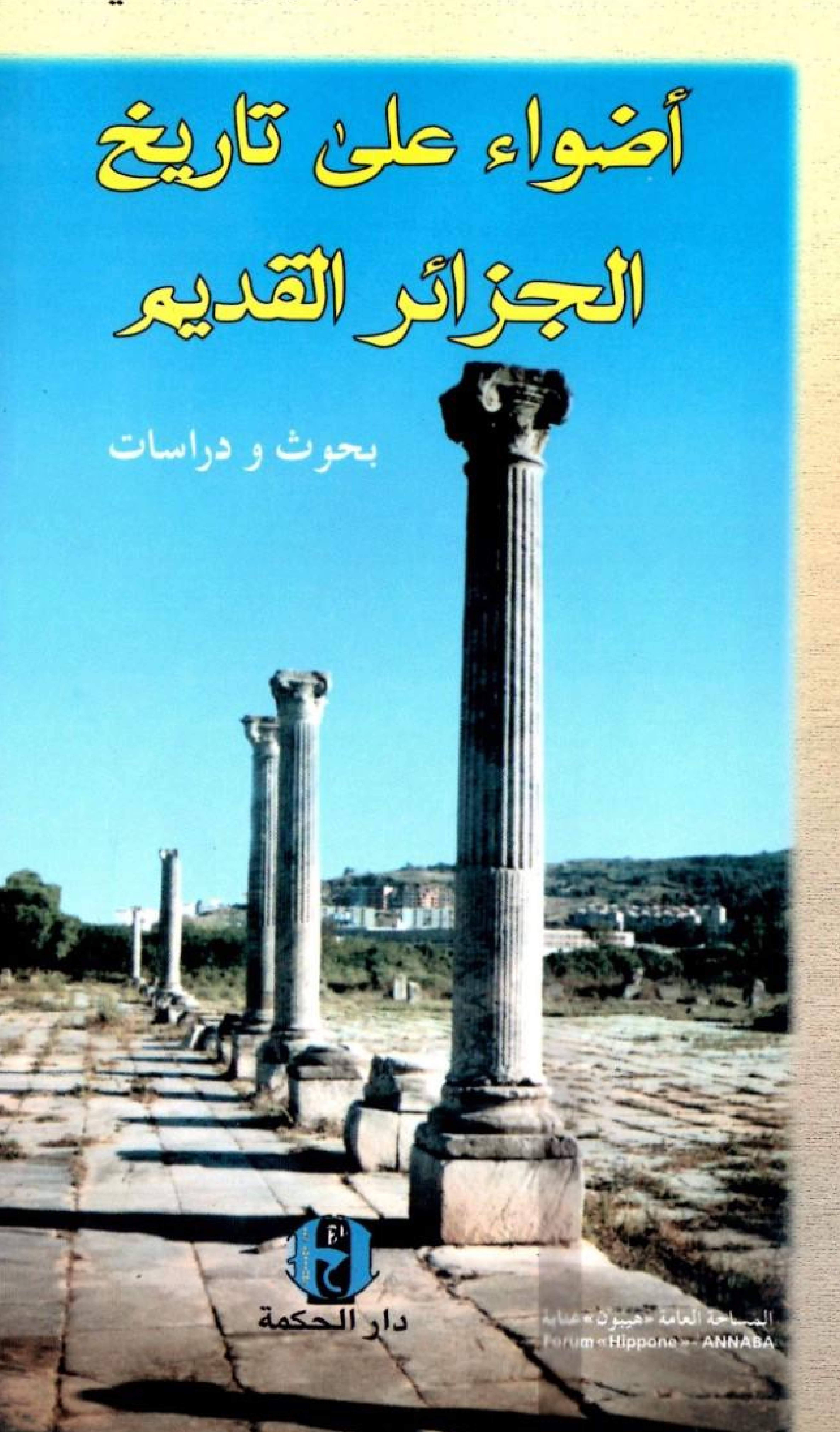
محمد البشير شنيتي



محمد البشير شنيتي

دكتور دولة في تاريخ وآثار المغرب القديم
أستاذ بجامعة الجزائر

أضواء على تاريخ الجزائر القديم

(بحوث ودراسات)



دار الحكمة

Djazaïr

الجزائر

هذا الكتاب نشر بدعم من المحافظة العامة

لسنة الجزائر في فرنسا

رقم الإيداع: 2002 - 2463

ردمك: 2 - 46 - 906 - 9961

تقديم

تم إنجاز البعض من موضوعات هذا الكتاب في السنوات الماضية، ونشر عدد منها في دوريات متخصصة أو في مجلات تعنى بالقضايا التاريخية البارزة.

غير أنه نظرا لحيوية المواضيع المطروحة في هذه البحوث، فقد رأيت أنه من المفيد جمعها وإثراؤها وإصدارها في كتاب عساه يساهم في توضيح بعض الجوانب الغامضة من تاريخ الجزائر العتيق، سيما وأن تلك الحقبة كانت ولا تزال أكثر مراحل التاريخ الوطني غموضا فضلا عما يدور حولها من سوء التفسير وأشكال التوظيف السياسي الآني.

ولا أرمي بهذا التقديم إلى إضفاء الأهمية على هذا الكتاب أو التنويه بمضمونه بقدر ما أبتغي لفت انتباه القارئ الكريم إلى أن الفترة السابقة للفتح العربي الإسلامي من تاريخ الجزائر لم تنل قسطا وافيا من اهتمام المؤرخين المغاربة سواء الأقدمون منهم أم المحدثون، وأن ما وضع فيها من مؤلفات حديثة لا يسمو عن شذرات مترجمة بتصرف عن كتابات أجنبية (فرنسية خاصة)، باستثناء الدراسات الجامعية التي تحاول أن تتصف بالجدة والإستقلالية في الرأي. ثم إن ما كتب من طرف المؤرخين الفرنسيين على كثرته وتنوعه موغل في التعمق إلى حدّ الغموض أو مسهب إلى درجة الملل بالنسبة للقارئ العادي، فضلا عن كونه لا يخلو من شحن إيديولوجية.

إقتضت الضرورة المنهجية ترتيب موضوعات الكتاب تبعا لتقارب مضامينها في شكل فصول تضم بحوثا ذات صلة ببعضها. فأتى الفصل الأول مشتملا على دراسات حول تاريخ الجزائر القديم من منظور المؤرخين الفرنسيين، وذلك بهدف إبراز البعد الإيديولوجي فيما كتب هؤلاء عن البلاد التي كانوا أسيادا لها، وما تتوفر عليه آراؤهم وتفسيراتهم للأحداث التاريخية من مزالق فكرية قد تضلل القارئ. ثم نظرة تقييمية للدراسات الأثرية التي تعد حجر الزاوية في ميدان التوثيق المادي بوصفه مصدرا أساسيا للتاريخ القديم.

أما الفصل الثاني فقد ضمنته مقتطفات عن حياة أشهر ملوك نوميديا ونبذا عن بعض المدن العتيقة في الشرق الجزائري.

وتضمن الفصل الثالث لقطة عن التحولات التي عاشها حوض المتوسط، ثم خصائص الإحتلال الروماني وأشكال المقاومة التي قابلته، وما تخللها من أوجه التحدي والإصرار والتضحية. بالإضافة إلى أساليب التغلغل الإستعماري التي مارسها الرومان للسيطرة على الجنوب النوميدي، وكذا وسائل الإستحكامات من طرق وتحصينات.

واحتوى الفصل الرابع على لقطات من الحياة الإقتصادية والاجتماعية والثقافية، فاستهل بدراسة جديدة حول الصلة البشرية بين المشرق والمغرب قديما، ثم مظاهر التثاقف والإنفتاح الحضاري الذي اتسم به المغاربة القدماء إزاء عالم المتوسط المتنوع الثقافات. وكذا أثر الإحتلال الروماني على التوازن بين الإستقرار والبداوة الناجم عن سياسة التمدين والتوسع الزراعي على حساب البداوة، كما أدرجنا قراءة جديدة في ملف الحركة الدوناتية وعلاقتها بتمرد الريفيين على السلطة وطبقة الأثرياء في المجتمع. دون أن نهمل الحياة اليومية في الأرياف

فالتقطنا منها صورا من مشاهد فنية جادت بها قرائح فناني الرسم الفسيفسائي بشمال إفريقيا.

لا أزعم أن هذه اللقطات السريعة من خضم التاريخ الزاخر كافية لإشباع نهم القارئ الكريم وجعله يكون فكرة كاملة أو تصورا واضحا عن تاريخ الجزائر القديم، فهذه مهمة ضخمة وعسيرة التحقيق، وإنما أطمح أن يجد في هذه اللمحات ما يجيب على بعض تساؤلاته أو يشجعه على مواصلة القراءة التاريخية ويرشده إلى السبيل الأقوم لفهم ما كتبه المختصون في هذا المجال.

والله ولي التوفيق

المؤلف: أ.د. محمد البشير شنيتي

/

الفصل الأول

المدرسة الفرنسية وتاريخ الجزائر القديم
(المنطلقات العلمية والكوامن الإيديولوجية)

1 – التوظيف الإستعماري للتار يخ (مهام المؤرخين الفرنسيين).

2 – ملامح البحث الأثري في عهد الإحتلال وعيوب المنهج.

3 – من أجل حوار حضاري متوسطي.

1 - التوظيف الإستعماري للتاريخ
(مهام المؤرخين الفرنسيين)

إن الفكرة الأساسية السائدة في المصادر الفرنسية المتعلقة بتاريخ الجزائر القديم تتجلى في اقتناع أصحابها بوضع الجزائر السياسي المعاش، أي وجود فرنسا بالجزائر، والبحث عن المبررات التاريخية لتواصله.

ولكي تنسجم الدراسات التاريخية المتعلقة بالجزائر مع هذا التوظيف السياسي للتاريخ تمحورت جهود المؤرخين الفرنسيين بصورة قد لا يلحظها القارئ العادي، حول جملة من الأفكار المسبقة التي شكلت مسارات رئيسية في دراساتهم لتاريخ الجزائر وتآليفهم حوله.

لقد عبر غزيل (S.Gsell) أفضل تعبير عما يبتغيه الفرنسيون من كتابة تاريخ الجزائر عندما قال بمناسبة مرور مائة عام على احتلال الجزائر: «إن الحملة على مدينة الجزائر المتبوعة بفتح التراب الجزائري قدمت للمؤرخين مهام جديدة، بل فرضته عليهم». وأفصح غزيل أكثر فقال: «إن معرفة الماضي ضرورية جدا لمتطلبات الحاضر». وقد عبر بذلك عن الإرادة في قراءة تاريخ الجزائر بعيون فرنسية وتفسيره بما يناسب الحاضر الفرنسي ويخدمه. إن ماضي الرومان بالجزائر، في نظر غزيل، يقدم العبرة للفرنسيين ويرشدهم إلى تجنب الأخطاء التي وقعت فيها المؤسسات الرومانية في شمال إفريقيا. فمثلا، عبر غزيل عن أسفه بمرارة عن الخطأ الكبير (حسب رأيه) الذي وقعت فيه الكنيسة الإفريقية لأنها لم تستغل الظروف المواتية لتوسيع الخريطة المسيحية في البلاد، ولم تعمل على ترسيخ الدين في قلوب الأهالي كما فعل الإسلام فيما بعد. وكرر أسفه في كون الكنيسة الإفريقية «لم تعمق نفوذها في الريف ولم تتغلغل في الأوساط الشعبية من

أجل إكمال الوحدة الدينية واللغوية (اللاتينية بطبيعة الحال) وتمتينها بصورة لا يمكن فصمها».

هذا الفعل الجبار «الذي تم بكل أسف (على حد قول غزيل) خلال القرن الحادي عشر على يد بدو رحل (يقصد الهلاليين) انقضوا على إفريقيا انقضاض الذئاب ينشرون لغتهم العربية في الريف الإفريقي وهو ما صعب على الفرنسيين فتح البلاد».

ويقول: «إن التاريخ يحدد لنا واجباتنا في الجزائر». فما هي الواجبات التي يعنيها غزيل؟

لقد جنبنا مشقة البحث عن الجواب إذ قال: «لا يمكن للفرنسيين أن يكونوا أسياد في كل مكان إلا إذا أخضعوا أرياف الجزائر لاستيطان أوروبي كثيف»، وهي تجربة نجح فيها الرومان في هذه البلاد لو أنهم أكملوها بالتقرب من الأهالي، هذا التقرب الذي اقترحه غزيل على الفرنسيين اقتداء بتجربة العرب المسلمين الذين اعتمدوا على المجتمع الريفي في غرس دينهم ولغتهم (على حد قوله).

وبهذه الجمل عبر غزيل بدقة عن أهداف استراتيجية غاية في الأهمية والخطورة بالنسبة لإديولوجية الإستعمار ودعا المؤرخين الفرنسيين لأن يجعلوها منطلقا أساسيا للأبحاث التاريخية المتعلقة بماضي الجزائر الفرنسية، فالوجود الفرنسي يجب أن يستمر، ولكي يكتسب صفة الديمومة عليه أن يستفيد من تجارب المتعاقبين على حكم البلاد، هذا التعاقب الذي يحمل نفيا قاطعا، في نظر المؤرخين الفرنسيين، للكيان الوطني الجزائري عبر التاريخ، فتاريخ الجزائر السياسي تاريخ أنظمة أجنبية متتالية في نظرهم.

أما غوتيي (E.F.Gautier) فقد اقترح على المؤسسة الإستعمارية الفرنسية أن تستفيد من التجربة الرومانية المتمثلة في ترسيخ النظام البلدي في الريف، وتوفير الأمن الضروري له.

هذا الأمن الذي كان يسهر عليه (الجندرمة)، فالبدو لا يستطيعون أن يكوّنوا خطرا على الإستغلال الزراعي إذا توفر (لجندرمة)، (وجندرمة) نوميديا الرومانية، في نظر غوتيي، هم جنود الفرقة الثالثة الأوغسطية التي كانت تعسكر بلامبيز (تازولت).

أولئك (الجندرمة) الذين تلاشت قوتهم، وزالوا بمجيء الوندال ولم يُعوضوا بعد الوندال، أي أن البزنطيين ورثة الرومان الشرعيين في نظر غوتيي وغيره، لم يتمكنوا من إعادة البلاد إلى وضعها الطبيعي (أي الخضوع لبيزنطة) لعجزهم في السيطرة عليها بالقوة.

ولا يصعب علينا إدراك مغزى نصائح غوتيي المستمدة من التجربة الرومانية، فهو يدعو الفرنسيين للأخذ بالقوة وبأسلوب القهر والجبروت، وهي وسائل كانت أساسية في تواجد الرومان ولا تزال صالحة لربط هذه الضفة الجنوبية من المتوسط بأوروبا الغربية حفظا لبقائها في الإطار الطبيعي، هذا الإطار الذي لاحظ عنه أوجين ألبرتيني (E. Albertini) بأنه لم يتواصل بسبب الفتح الإسلامي الذي قطع شمال إفريقيا عن ماضيها وأعاده الفتح الفرنسي الذي أدخل الجزائر ضمن البلاد المتحضرة (على حد قوله).

وقد اعتبر ويليم مارسي (W. Marçais) الفتح الإسلامي لبلاد المغرب عملا غير طبيعي أيضا، وقال بأن الفتح الإسلامي والتوسع التركي خلال القرن السادس عشر حالتان فتح فيهما الشرق هذا الجزء من الغرب أي (شمال إفريقيا) ومفهوم الغرب هنا: (*L'occident*).

وقد حمّل هذا المفهوم الوندال مسؤولية مصير إفريقيا، إذ يعتبر كريستيان كورتوا (Ch. Courtois) أن الغزو الوندالي لشمال إفريقيا قد أحدث خللا في تسلسل التاريخ الإفريقي وغيّر مسيرته بل ساهم في وقف إستمراريته. فتاريخ المغرب بهذا الاعتبار ليس سوى تاريخ للتعاقب الأجنبي، وتواصله تواصلا طبيعيا، قد استؤنف على يد الفرنسيين!

وفيما يتعلق بالمبررات الجغرافية إستخلص غوتيي كجغرافي لامع وغزيل كمؤرخ قدير بأن الوضع الطبيعي للبلاد لا يساعد على قيام كيان سياسي مستقل، أو موحد، أو على نمو حضارة متميزة، فالإمتداد العرضي بمحاذاة البحر المتوسط، والتنافر الإقليمي الناتج عن شكل التضاريس بين جهات المغرب، وانعدام الإقليم المركزي الذي يكون محورا جغرافيا للبلاد، كما هو الشأن في فرنسا مثلا، كلها عوامل تتناقض والوحدة الجغرافية التي يمكن أن تنشأ على أديمها أمة وحضارة.

فكأن هذه النواة المركزية التي بالغ غوتيي وغزيل في إبراز أهميتها لا توجد إلا خارج شمال إفريقيا، وجدت في إقليم لاتيوم (Latium) بإيطاليا قديما وتوجد بالحوض الباريسي حديثا!

إن بلاد الجزائر وشمال إفريقيا في نظر المؤرخين الفرنسيين تتجه نحو الخارج وتنفتح عنه وتعانق الأجنبي، وهذا ما يفسر في رأيهم ذلك التعاقب الأجنبي ويبرر لماذا كان لهذه البلاد دائما أسياد أجانب (على حد قولهم).

وحلا لغوتيي وللسائرين في نهجه أن يلاحظوا في طبيعة المناخ والتضاريس ما يؤكد لهم صفة الديمومة الجغرافية السلبية لبلاد المغرب، ولذلك استنتجوا من خصائص مناخ الشمال الإفريقي حتمية قيام نمطين من المعيشة على الأقل: نمط زراعي في السهول وفي الجبال الشمالية المتقطعة، ونمط رعوي متنقل بين السهوب الفسيحة والمناطق الزراعية الشمالية، وهو ما أدى في نظرهم إلى تضارب المصالح الاقتصادية للمجموعتين، فنتج عن ذلك تطاحن أبدي بين البدو والزراع، الأمر الذي تعذر معه استتباب الأمن بين الطرفين على مرّ العصور. وهذا ما يفسر ضرورة استعمال القوة لفرض الأمن، وهو ما دفع بالرومان لانشاء أجهزتهم الدفاعية المحكمة وانتهاجهم خططا هجومية لتشتيت تجمعات البدو في السهوب وحواف الصحراء الشمالية قبل اجتياحها للأراضي الزراعية الرومانية في الشمال. أي أن الخصائص الاجتماعية الاقتصادية الناجمة عن المعطيات

الجغرافية قد عبرت عن الحاجة، في نظر هذا الإتجاه إلى الحماية الأجنبية والتعايش في ظل القوة. وقد تجاهل أصحاب هذه الإستنتاجات ما كان للتواجد الروماني من تأثير على تركيز تلك الثنائية في البلاد، إن لم نقل أنهم (أي الرومان) قد ساهموا إلى حد كبير في خلقها وتفاقم أمرها، وذلك باستيلائهم على الأراضي الزراعية وإزاحتهم لسكانها نحو الجنوب، ومنعهم الرعاة من التردد دوريا على المناطق الشمالية فيما بعد موسم الحصاد.

وقد اعتمد بريصون (J. Brisson) في كتابه (الإستقلالية والنصرانية في إفريقيا) على هذه المقولة المغلوطة متخذا إياها برهانا قاطعا نفى به وجود تحالف قبلي أو حتى الإحساس بالمصلحة المشتركة فيما بين الأهالي أثناء ثورات القرن الرابع الميلادي (ثورة الدوناتية وتحالفها مع الفلاحين...) وقال بأن التنافر الأثني (العرقي) والتناقض الجغرافي تعذرَ معهما الإحساس المشترك بضرورة القيام بعمل موحد، مضيفا بأن المثل الأعلى للبدوي كان يتجلى في حرية التنقل، وبأن ما كان ينشده الفلاح النوميدي الأجير الذي كان يترقب العمل في مزارع المعمرين هو حرية حصوله على لقمة العيش ليس أكثر، فكأن عوامل تلك الثورة البارزة في تاريخ الجزائر القديم، ليست سوى المطالبة بحرية الحركة الفوضوية وعدم الخضوع للنظام أو بلقمة خبز مهينة. والغريب أن هذه الأفكار قد عرضها بريصون في أطروحة جامعية عام 1958 ونال بها تقديرا مشرفا من طرف لجنة التحكيم.

وقد استنتج هؤلاء المؤرخون من المعطيات الجغرافية تفسيرات لا تقل تحاملا على تاريخ الأهالي مما سبق ذكره. من ذلك قولهم بأن هذه الثنائية التي تعذر القضاء عليها، قد حتمت على الحضارة في إفريقيا الشمالية أن تكون حضارة المدينة والسهل الخصب المحيط بها، وهما الإطار الطبيعي الملائم لتمركز العنصر الأجنبي عبر العصور، ونتج عن هذا تركز الأهالي في المناطق الجبلية وفي السهوب والصحراء منتظرين فرص ضعف المحتلين للإنقضاض على الحدود واختراق المنشآت الدفاعية وتهديم الحضارة من الأساس (حسب هذا المنظور).

وقد عبر غزيل عن هذا المفهوم بقوله: إن تاريخ البلاد مزدوج، تاريخ الأهالي وتاريخ الأجانب الذين جاءوا واستقروا بينهم، وحاول كل منهم (أي الأجانب) صبغ الأهالي بصباغته الخاصة، لكن هؤلاء ظلوا متمسكين بمقوماتهم الضاربة في ظلام الزمن لما قبل التاريخ، متحجرة في القرى المنعزلة وفي الخيام مع القطعان عاجزة أن تكون مقومات لأمة، وقد ركز الأجانب كما قال غزيل، حضارتهم في المدن التي كان يبدو أنها ستتشع على عالم البربر. لكن هؤلاء قاوموا تلك الحضارة، وظل التناقض قائما بين المدينة والريف الغارق في وحشية كاملة (على حد قوله).

وقد لخص كورتوا نتائج هذه الظاهرة الجغرافية المزعومة في قوله بأن ذلك التناقض لم يقم حائلا دون تغلغل الحضارة الرومانية في نفوس السكان فحسب بل كان سببا في تهشمها عندما ضعفت القوة التي كانت تحميها.

وهكذا أفضى مفهوم المعطيات الجغرافية لدى المؤرخين الفرنسيين إلى تقرير فكرة العجز الطبيعي للأرض وللإنسان الذي يحيا عليها، وتبرير ظاهرة الإستعمار على أنها حتمية تاريخية إيجابية لا بد منها لمساعدة البلاد على تجاوز هذا العجز الأبدي!

وفيما يتعلق بالدراسات الإثنية والثقافية، فقد ركز المهتمون فيها من الباحثين الفرنسيين على إبراز فكرة التناقض الاجتماعي الناتج عن التنافر البنوي، وابراز الخصائص البدائية لدى مجموعات السكان التي اقتضت الفكرة المذكورة آنفا تجزئتهم إلى وحدات عرقية متمايزة الأقاليم الجغرافية وجعلها تحمل في طبيعتها من خصائص التضاد أكثر مما تحمل من عوامل التآلف والإنسجام.

وتمحورت الدراسات حول إبراز الخصائص الثقافية البدائية العائدة إلى ما قبل الإسلام، وخاصة تلك التي تتضمن ما يناقض المبادئ الإسلامية أي يتعارض مع شعائر العبادة، أو يناقض انتماء الجزائر إلى الحضارة العربية الإسلامية. هذا الإنتماء الذي كان يشكل أحد العوائق الكبرى في وجه السياسة الفرنسية في الجزائر. إن البحث عما يناقض الإسلام في عناصر الثقافة الشعبية لدى بعض

البيئات الاجتماعية المنعزلة شكل محاولة قوية لاختراق هذا العائق واحداث ثغرات فيه يمكن النظر من خلالها إلى الماضي البعيد، ثم توسيع تلك الثغرات تدريجيا بهدف تمزيق الدرع الإسلامي الذي يحمي جسم الأمة الجزائرية من الطعنات القاتلة.

وكان للعهد الروماني النصيب الأوفر من اهتمامات المؤرخين الفرنسيين، وتركزت الدراسات في هذا الميدان حول موضوع أساسي لم تحد عنه إلا ظاهريا، وهو المتعلق بالتجربة الرومانية في هذه البلاد بينما أهمل الوجه الثاني من تاريخ هذه الفترة، وهو المتعلق بأوضاع الأهالي تحت السيطرة الرومانية، وهكذا تضافرت جهود الباحثين على إبراز الجوانب العسكرية والإدارية والاقتصادية أي الإحتلال الروماني ومبرراته وأساليبه وتنظيم ديمومته، ثم الأجهزة الإدارية الرومانية من حيث طبيعتها وفعاليتها، وحركة الإستيطان وطرق استغلال الأرض وما إليها من أوجه الأنشطة الاقتصادية، ثم المسيحية في إفريقيا الشمالية وجهود رجالها ومدى نجاح حركة التنصر في أوساط السكان الأصليين.

وحظيت المدينة الرومانية باهتمامات أوسع من طرف الباحثين الفرنسيين الذين لم يروا تاريخ الجزائر في العهد الروماني سوى من خلال المدن منطلقين من مسلمة لا تسلم من نقد، وهي أن المدينة تمثل عينة صحيحة لمدى ما بلغه الازدهار الاقتصادي والتطور الاجتماعي آنذاك، فازدهار المدينة يعني حسب هذه المسلمة ازدهار البلاد كلها، وتعرضها للغزو والتخريب معناه ضعف القوة العسكرية التي كانت تحميها، وبالتالي تغلب البربرية على المدنية والشقاء على السعادة الشر على الخير، ورفاهية المدن تعني نجاح الرومان في خلق المجتمع السعيد.

والواقع أنه ينبغي أن نرى في ازدهار المدن الافريقية اقتصاديا آنذاك نتيجة عكسية تعرض لها الريف، إذا أخذنا في الاعتبار طبيعة الحكم والبنية الاجتماعية والنظام الاقتصادي والعلاقات الانتاجية التي كانت تسود مجتمع ذلك الوقت.

إن الذين تمتعوا برخاء المدينة آنذاك ليسوا سوى أجانب أو ممن كانوا يعيشون في نفس الشروط والاعتبارات الأجنبية، أي أن مظاهر النعيم المدني كانت حكرا

على طبقة أرستقراطية ممتازة مارست حياة الترف والبذخ ومختلف أوجه التبذير لصافي الانتاج الاقتصادي الذي هو ريفي بلا جدال، وأن الطبقة المنتجة التي كانت مطالبة بتغطية الاحتياجات المتزايدة لتلك المدن هي من الريفيين الذين لم يتمتعوا بحاصل انتاجهم نظرا لشراهية المدينة التي لم تكن تتوقف عند حد، ومن ثم فإن البلاد قد عرفت ظاهرة من عدم التوازن في الاستفادة من الناتج الاقتصادي واجحافا في الحظوظ بين مجتمع المدينة المستهلك ومجتمع الريف المنتج. وهكذا لم يكن تزايد الازدهار المدني سوى صورة لتزايد شقاء الريف، عندما كان يبلغ ذلك التناقض حده الأقصى كان يحدث الانفجار عنيفا في صورة ثورة شعبية ريفية ضد سيطرة المدينة والسلطة الحاكمة المتسببة في هذه الظاهرة. ولنا في ثورة الريفيين خلال القرن الرابع ما يؤكد هذا التفسير.

وقد أسقط التركيز على المدن من حساب المؤرخين عالم الريف الذي ظل طي النسيان، ومن ثم فإن المتعمق في قراءة هذا النوع من العمل التاريخي (مؤلفات وبحوث) يخرج منه وفي ذهنه صورة نصفية، جزؤها مشرق ناصع وهو عالم المدن، وجزؤها الآخر مظلم قاتم وهو عالم الريف، مع أن التاريخ الوطني الحقيقي، في تصوري خلال فترات الاحتلال ليس تاريخ المدن بل أن حقله الطبيعي هو الريف بمفهومه الواسع، في الجبال والسهوب والصحراء في جميع المناطق التي ظلت فالتة من إطار السيطرة الأجنبية المباشرة، إن الأسانيد التاريخية لا تعوزنا في هذا المجال، لقد كان لتركز الاستعمار في المدن أن غمرت تأثيراته جوانب عديدة من الشخصية الوطنية. ولم يبق من الجوانب الأصيلة في تلك الشخصية إلا في الأرياف النائية فالكتابة الليبية القديمة مثلا قد عثر على الكثير من نماذجها في المناطق الجبلية التي ظلت مستعملة بها إلى زمن متأخر، كما أن اللغة البونيقية التي انتشرت عند الأهالي قد اعتصم الناطقون بها بالأرياف، وظلوا محافظين عليها ولم يبغوا عنها بديلا إلى القرن الخامس الميلادي بشهادة كل من الأسقفين *أوبطا الميلي وأوغسطين العنابي* (نسبة إلى المدينة التي اشتهر فيها)، ثم أن مختلف الفنون والمعتقدات السابقة للعهد الروماني قد ظل العمل بها متواصلا في المناطق

الريفية، في حين عجز المدنيون الأهالي عن التمسك بها أمام التيارات الثقافية والدينية الرومانية الضاغطة.

وبهذا يمكن القول بأن الريف كان رمزا للمقاومة المادية والمعنوية وممثلا للإستمرارية المحلية بمختلف أوجهها، بينما كان المدنيون أو سكان السهول الزراعية الواقعة تحت نفوذ المدينة، عرضة للتأثر بالحضارة الرومانية، هذا التأثر الذي جر الباحثين إلى مجانبة الموضوعية عندما اعتبروا الإنسان المدني عينة كاملة الشروط عن الإنسان المغربي (البربري)، وفسروا ظاهرة تأقلمه مع الحضارة الوافدة على أنها خاصية أساسية من خصائص (البربري) (على حد تعبيرهم). واستنتجوا كونه يندمج بسرعة في حضارة الأسياد كما يتخلى عنها بنفس السرعة عندما يتنفس الحرية ويزيل عن نفسه قيود النظام، أي أن هذا النموذج البشري (في نظرهم) لا يستطيع أن يحافظ على الإرث الحضاري الذي يخلفه له الأسياد. حتى أن بوسكي (Ch. Bousquet) تساءل عن مصير الحضارة الفرنسية في الجزائر عندما يرحل الفرنسيون (وقد رحلوا) عنها. وهنا تبرز من جديد الفكرة الأساسية التي تبنتها المدرسة الفرنسية ودافعت عنها بحماس، ألا وهي حاجة الأهالي إلى العيش في ظل الأجانب.

وفي سياق تجاهل المؤرخين الإستعماريين للتكون التاريخي الجزائري انطرحت قضايا هادفة تتعلق بأصول السكان والبحث عن جذورهم الأولى خارج الشمال الإفريقي، وانقاد المتخصصون في فترة ما قبل التاريخ أمثال كامس (G. Camps) وراء الفرضية القائلة بكون سكان المغرب انحدروا إليه عن طريق إسبانيا وصقلية، وراح يدافع عنها ولا يزال بإصرار معتمدا على التشابه الموجود في بعض المظاهر الجنائزية بين سكان الشمال الإفريقي وجزر المتوسط الغربي، وخاصة منها ما يتعلق بأسلوب الدفن وأشكال القبور مثل مقابر التلال والمصاطب. وقد افترض كامس أصولها في أوروبا وأنها انتقلت إلى شمال إفريقيا، في حين أن انتشار هذا الأسلوب الجنائزي في أعماق الصحراء الجزائرية يؤكد أن أصوله محلية وليس العكس، خصوصا وأن بعض الكتاب الإغريق القدامى مثل بوزانياس ذكر لبيين قدامى في سردينيا وحسب الوصف الذي خلفه لنا عن حياتهم البدائية

المماثلة لحياة الليبيين القدامى الذين لم يتأثروا بعد بالفنيقيين، فإنه يحتمل أنهم كانوا في جزيرة سردينيا قبل وصول الفنيقيين إليها لكن كامس رفض الأخذ بهذه الرواية لأنها تتناقض مع نظريته التي تنسجم والتيار القائل بفراغ المنطقة المغربية من محتواها البشري الأصيل واعتبارها منطقة تواجد واستيطان متوال لا يتضمن معنى الأصالة أو الشرعية التاريخية. واقتضت هذه الفكرة تفسير مختلف مظاهر الحياة وإعطائها طابعا مستوردا من الصناعات الحجرية القديمة إلى الفنون التشكيلية المتنوعة حيث قال كامس في أكثر من مرة بأن هذه المنجزات ليست سوى امتدادا ربما كان مشوها أحيانا لما تم في أوروبا، كما قال فيفري (J.P. Fivrier) في الفن الجزائري القديم بأنه ليس سوى خليط لعناصر فنية وأن تنوعه أفقده الأصالة، ويشاطره بيار سلاما (P. Salama) الرأي ذاته.

واستنتج المتخصصون في علم السلالات البشرية وثقافات الشعوب نظرية في غاية الخطورة وهي قولهم بأن هذا الجنس، يعنون به الأهالي (البربر) المتمتع بحيوية لا تنضب ليست له شخصية (إيجابية) لأنه يكتفي دوما بتقمص شخصية الأجنبي، وبما أن الأجانب هم الذين أدخلوا البلاد في التاريخ حسب رأيهم، فإن الأهالي الذين عايشوا هؤلاء الأجانب صنفان، الصنف الأول تقمص شخصية الأجنبي دون أن يتبناها عن وعي لأن ذلك لا ينسجم وطبيعته، وهذا الصنف قليل العدد ضعيف الوزن في تاريخ البلاد، والصنف الثاني هو معظم الأهالي الذين ظلوا يتفرجون على الأجانب قابعين في الأرياف والصحراء ولم يتأثروا بالأجانب أي أنهم ظلوا خارج إطار التاريخ دون أن يلجوا رحابه، وهذه الوضعية التي تصورها كامس هي التي أوحت له ولأستاذه بالو (L. Balout) من قبل باقتراح علم خاص يدرس خصائصها، أسمياه (فجر التاريخ)، ولخص كامس هذا العلم كالتالي: إنه علم البربر الذين ظلوا خارج التأثير الأجنبي عبر العصور، وبما أن هؤلاء ما يزالون في كثير من الجهات متمسكين بثقافات بدائية تعود أصولها إلى ما قبل التاريخ، فإن فجر التاريخ بالنسبة لهؤلاء ما يزال معاشا، ثم أنه حالة معاصرة لأي حضارة أجنبية في البلاد (على حد قوله)، إن كامس يحكم صراحة على الأهالي بأنهم حوموا على أبواب التاريخ ولم يدخلوه بسبب خاصية المناقضة

التي ينطوون عليها ويسبب أن الحضارات التي عرفتها المنطقة كانت ظاهرة عابرة وسطحية بالنسبة إليهم (على حد قوله).

ونجد لتجاهل التكون التاريخي للجزائر أوضح مثل عند هؤلاء المؤرخين في تقليلهم من أهمية فترات الاستقلال التي تمكن فيها الجزائريون من انتزاع سيادتهم، فمن الدولة النوميدية قديما إلى ممالك القرن الخامس والسادس إلى دولة الأمير عبد القادر مرورا بدولة الرستميين ثم الحماديين والزيريين، كلها في منظور هذا الاتجاه محاولات فاشلة، تأسست في ظل الأجانب أو ظهرت نتيجة لتصاعد حرارة الرفض الأرعن للنظام الأجنبي الضاغط، ونمت نموا غير سليم لا يرتكز على الأسس الصحيحة للدولة، فهي فقاعات جوفاء ما لبثت أن تفرقت وتلاشت دون أن تترك تقاليد سياسية وشرعية دولية يحق للخلف أن يرثها عن السلف.

لقد عبر غزيل عن هذا المفهوم في قوله «أن السلطة عند الأهالي فردية تغتصب بالقوة وتعتمد على عصبية قبلية، وتنحصر في أسر معينة تعتبر الأرض ملكا لها والشعب مجموعة قبائل خاضعة يمثلها شيوخها لدى الإغليد». كما قرر غوتيي ما يشبه هذا إذ قال: «أن حكام الجزائر -ولم يقل ملوك أو رؤساء- لم يكونوا سوى زعماء قبائل من مسينيسا إلى الأمير عبد القادر».

ولقد نسي غوتيي وغزيل أن نظام مملكة مسينيسا يختلف كثيرا عن الأنظمة التي وضعاها موضع استقراء ورأيا من خلالها نظام مملكة نوميديا والملكية العلوية في المغرب الأقصى ونظام البايات في تونس التي اعتبرها غزيل نموذجا حيا لأنظمة الدول والممالك التي أقامها الأهالي في هذه البلاد، ولسنا ندري كيف سمح غزيل لنفسه، وهو المشهور بالدقة العلمية، برؤية الماضي البعيد من خلال الحاضر المعاش دون أن تتوفر لديه الدلائل التاريخية التي تسنده.

ونجد لظاهرة التقليل من المنجزات التي حققها الجزائريون بمفردهم قديما أمثلة واضحة فيما كتبه هؤلاء المؤرخون. من ذلك ما جاء عند جوليان (Ch. A. Jullien) حول انتشار العمران في عهد المملكة النوميدية، حيث قال: «فلم تكن المدن

طيلة دهور سوى محطات فنيقية غرست في أرض افريقيا، ولم تعد مراكز للأهالي مثل سيرتا إلا حينما أجبر ملوك نوميديا البدو على الاستقرار، لكن العواصم البربرية رغم أنها تحمل عنوانا ريجيا (الملكية) ليست إلا قرى متواضعة».

إن القارئ الذي يكتفي بهذه الاشارة المقتضبة يتصور الجزائر في العهد النوميدي، الذي يعد مفخرتها في التاريخ القديم، كأنها أدغال ومراعي يجوبها سكان بدائيون هائمون وراء المواشي وأن كل ما فعله ملوك نوميديا هو أنهم أرغموا هذه الأنفار الضائعة على الإقامة في قرى بسيطة. والواقع أنه في القرن الثالث قبل ميلاد المسيح عليه السلام، وقبل ظهور مسينيسا الذي تنسب إليه سياسة اقرار السكان، كانت هناك مدن داخلية زاهرة، مثل مدينة تبسة التي تجاوز عدد سكانها 15 ألف نسمة بناء على رواية ديودور الصقلي، ثم أن سيرتا نفسها كانت قبل مسينيسا حاضرة كبرى تضم جاليات أجنبية إلى جانب سكانها النوميديين وهو ما تؤكده وثائقها الأثرية.

ويقول جوليان في موضع آخر، مقارنا بين فعالية التأثير الفينيقي والروماني في الجزائر: «والتأثير البونيقي الذي استمر قرونا لاح خاصة في تبسة وقالمة وقسنطينة وفي جهة عنابة، وأما تأثير قرطاجة الرومانية فقد عم المغرب كله». إنها مقارنة غنية عن التعليق، إن هذا النوع من أغماط الحقائق التاريخية يدخل في سياق ما كان يتوخاه أصحاب هذا المنهج، وهو اقناع القارئ بعظمة الانجاز الروماني وشموخ الكنيسة المسيحية في الجزائر القديمة بصورة يتضاءل أمامها كل شيء من منجزات التاريخ السابق أو اللاحق للفترة الرومانية، ما عدا الانجاز الفرنسي طبعا الذي هو استئناف لمهمة روما في نظرهم.

هذه بعض الملاحظات التي أمكنني تسجيلها عن المصادر الفرنسية المتعلقة بتاريخنا القديم فيها دعوة إلى ضرورة تسلحنا بالوعي واليقظة الفكرية عند قراءتها، حتى تكون استفادتنا منها ايجابية واستخدامنا لمحتواها مجديا في كتابة تاريخنا الوطني.

2 - ملامح البحث الأثري في عهد الإحتلال وعيوب المنهج (المنطلقات العلمية والكوامن الإيديولوجية)

بدأ اهتمام الفرنسيين بالتراث الأثري الجزائري غداة احتلالهم للجزائر. وكان الرعيل الأول من المهتمين بهذا الميدان متأثرا بحركة الكشوفات التي انطلقت من أوروبا مواكبة لحركة الإستعمار والهيمنة الأوروبية على أقاليم حضارية يقع أغلبها جنوب وشرق حوض المتوسط. وكانت تلك الحركة تهدف إلى التعرف على ماضي الشعوب وثقافاتها وخصوصياتها لكونها مختلفة عن الأمم الأوروبية وواقعة تحت سيطرتها أو نفوذها من جهة، ولكون أوطانها تحتفظ بمعالم بارزة عن ماضيها الحافل بالأمجاد الحضارية من جهة أخرى. وكانت شواهد ذلك ماثلة إلى العيان في شكل معالم شامخة وصروح وأوابد وكنوز أثرية وتحف نادرة.

وقد شهدت أوروبا تسابقا محموما للكشف عن مكامن البلاد الشرقية ابتداء من أوائل القرن التاسع عشر. وكانت الجامعات الأوروبية تخرج أجيالا من العلماء المسلحين بالمنهج العلمي الحديث القائم على سيادة العقل والتجربة. ولما كانت الجزائر من أوائل البلدان التي وقعت بيد الإستعمار الفرنسي فقد تعرضت لامتداد تلك الحركة الإستكشافية النشيطة، حيث كان العلماء الفرنسيون ممثلين لها بشكل احتكاري رغم ضآلة زادهم العلمي مقارنة بالألمان والإنجليز مثلا. وقد أخذت إدارة الإحتلال على عاتقها مهمة الكشف عن الآثار عن طريق الجرد المنتظم، وذلك باستعمال ضباط الجيش المختصين في المسح الطبوغرافي، فكانوا يقومون بتدوين ما تقع عليه أعينهم من بقايا أثرية أثناء قيامهم بأعمال المسح التي شملت التراب

الجزائري المحتل، وقد شكلت تلك التسجيلات رصيدا وثائقيا مرجعيا بالنسبة لرجال الآثار والتاريخ الذين أتوا فيما بعد.

وقد اعتمد أولئك المساحون على طرق منهجية حديثة لم يسبق استعمالها من قبل. ومنها الوصف الموضعي الدقيق والرفع الأثري والرسم التشخيصي والمعماري ثم التصوير الشمسي للمعالم والشواهد، وما إلى ذلك من التقنيات التي تعد من ضوابط المنهجية الحديثة في هذا السبيل.

ومن أشهر الأعمال التي نفذها الفرنسيون في هذا المجال ما أسموه بحملات الكشف العلمي للجزائر (Explorations Scientifiques de l'Algérie) التي أخذوا في تنفيذها أواسط القرن التاسع عشر عندما كانوا لا يزالون بصدد إتمام احتلالهم للتراب الجزائري. وكانت ثمرة عملهم المنظم أن جمعوا رصيدا هاما من المعلومات ذات القيمة التوثيقية التي غدت مصدرا لا محيد عنه للباحثين في معظم فروع الآثار والتراث الثقافي الجزائري. وقد غصت متاحفهم بالتحف والكنوز الأثرية الثمينة بدءا من مجموعات النقود الذهبية والفضية إلى الآنيات الخزفية العالية الجودة إلى القطع الزخرفية والتماثيل رائعة الجمال. كان ذلك حصادا ثمينا لتلك الحملات وما أثارته لدى المهتمين من فضول واندفاع للاقتناء.

اتسمت حركة الكشف عن التراث الأثري الجزائري بالسمة الإستعمارية، فكانت ترمي لخدمة الإحتلال وتكريس أبعاد السياسة الفرنسية الكامنة وراءه. وقد تجلى ذلك في المنهج الذي اتبعه القائمون بتلك الأعمال في أبحاثهم واكتشافاتهم ومؤلفاتهم، وهو منهج ينم عن منطلقات فكرية وقناعات إيديولوجية سائدة، كان هدفها ترسيخ الإحتلال الفرنسي بشمال إفريقيا باعتباره، في نظرهم، حلقة تاريخية حتمية. ومن ثم اصطبغت حصيلة المعرفة التاريخية المتأتية من خلال ذلك الجهد المبذول بصبغة مميزة من حيث انتقاء الموضوعات والعناية بجوانب التوافق فيها مع السياق العام لسياسة الإحتلال وأهدافها الحضارية البعيدة، مثل العناية بأساليب التحكم في الأهالي أثناء عهود الإحتلال الكبرى كالعهد الروماني، وإبراز

الشواهد البارزة لسيادة المجتمع السيد ومظاهر الرفاهية والإزدهار آنذاك. وهي أمور كان لها صداها في أوساط الكولون ورجال السياسة الفرنسيين في الجزائر. وهكذا انصبت عناية المهتمين بالآثار الجزائرية على معالم المدن الرومانية وهياكل المجتمع الحضري فيها. وكذا منشآت التحكم العسكري وما إلى ذلك من الهياكل ذات الوظائف الإستعمارية. واتجهت العناية إلى إزالة الأنقاض والردوم وحتى المباني الجاثمة فوق أرضيات المدن والمعالم الرومانية، وإعادة تركيب وتخطيط هياكل تلك المعالم، وكذا جمع الوثائق المتعلقة بمجتمعاتها من نقوش كتابية وتحف وأدوات أثرية متنوعة مما يساعد على إعادة تصور أنماط الحياة فيها، وكان المنظور المنهجي منصبا على الأساليب المختلفة التي تمكن من إعادة تركيب ماضي تلك الحواضر والمنشآت تركيبا ذهنيا يتطابق وتطلعات تلك السياسة، وعلى سبيل المثال لا الحصر يمكننا استعراض أحد المناهج المعتمدة في هذا السبيل قصد تحليل مضامينه الإيديولوجية وإبراز عيوبه العلمية. إنه المنهج الإحصائي الذي لا يزال متبعا في دراسة مجتمعات المدن الرومانية قصد تحديد هويتها الحضارية وتقدير مدى انتشار ظاهرة ما يسمى بالرومنة في أوساط السكان الأهالي الذين عاشوا في تلك المدن أو بجوارها.

إشكالية المنهج الإحصائي في الدراسات الأثرية

يعتمد هذا المنهج في تقدير نسب المنتفعين بالمواطنة الرومانية من خلال دراسة الأسماء (Onomastique) المستخرجة من نقوش المقابر (شواهد القبور) خاصة، وكذا السجلات المتبقية في قوائم البلديات (اسم + كنية + لقب) الرومانية وتصنيفها ضمن أسماء الأسر الإمبراطورية والسيناتورية وغيرها من التي عرفت بمرجعيتها في التلقّب والموالاة للرومان. أي الإنتماء إلى الفئة الرومانية المتمتعة بحقوق المواطنة الكاملة (Jus Romanus). ويقتضي هذا المنظور المنهجي استبعاد الأسماء التي لا تنطبق عليها القوائم المرجعية المذكورة وبالتالي اعتبار أصحابها

أجانب (أي غير مرومنين)، أو أن وضعيتهم الاجتماعية غير واضحة أو أنهم كانوا في مرحلة انتقالية نحو الرومنة، إلى غير ذلك من الإحتمالات التي يفضي إليها هذا المنهج التعدادي الصارم الذي هو أقرب إلى الإستبيانات السوسيولوجية الحديثة منه إلى مناهج البحث الأثري.

ومن عيوب هذا المنهج ما يلي:

1 – اعتماده على عينات محدودة هي شواهد القبور المستخرجة من جبانات المدن بالإضافة إلى النقائش التذكارية وهي قليلة بطبيعة الحال. وهذه الوثائق تتعلق في غالب الأحيان بطبقة اجتماعية متميزة في المدينة لا تمثل سوى نسبة عددية ضئيلة بالقياس مع أعداد السكان من الطبقة الدنيا الذين عاشوا خارج هذا الإطار.

2 – إنه يحتمل الخطأ في تصنيف فئات السكان نظرا لاندثار أجزاء من النقائش أو غموضها أو الخطأ في قراءة الأسماء.

3 – إنه يهمل عالم الريف ذي الكثافة السكانية العالية، وقد كان قليل التأثر بإطار الرومنة وليس من تقاليده تدوين (كتابة) شواهد موتاه على الطريقة الرومانية وهذا ما نلاحظه في الجبانات الميغاليتية بمختلف أشكالها التي كثيرا ما كانت تعاصر جبانات أهل المدن (الحضر) ولا تتأثر بتقاليدها.

4 – إنه منهج صالح لتتبع السكان الأجانب لإحساسهم بالإختلاف وحرصهم على التمسك بتقاليدهم الجنائزية المعتمدة على عقيدة عبادة الأسلاف كما هو الشأن عند الأقوام الإيطالية واليونانية التي كانت تحرص على الإحتفاظ بالموقد المقدس واستحضار أرواح الأسلاف من خلال مقابرهم والتمسك بالأرض التي دفنوا فيها كي تتواصل الذرية ويتعاظم الملك، إنها قيم غريبة عن المجتمعات الليبية وبالتالي فمراسيمها لم تترسخ لدى هذه المجتمعات. وهو ما لم يأخذه هذا المنهج في الإعتبار.

أمثلة على عيوب المنهج الإحصائي

جاء في دراسة حول مجتمع ستيفيس (سطيف) في القرنين الثاني والثالث:

بلغ عدد الكنيات في سطيف ما يلي:

532 كنية، منها 10 كنيات تدل على أصل محلي (ليبي) ومنها 15 كنية ليبية واضحة. ومنها 6 محرفة، ومنها 144 كنية مترجمة إلى اللاتينية.

وبذلك فإجمالي الكنيات الأجنبية (غير الرومانية) يشكل نسبة 33.89٪ من مجموع الأسماء المدروسة. ويلاحظ صاحب الدراسة أن هذه النسبة هامة في سطيف مقارنة بنسبة 20٪ المستخرجة من كيرطا Cirta (قسنطينة) ... إلخ.

أوجه العيب

في خلال 200 سنة عاش في سطيف 532 شخص (عدد الأسماء المحصاة من خلال شواهد القبور) فكم كان عدد سكان سطيف في وقت ما؟ وهل يطابق هذا الإحصاء واقعا آخرا؟ أي هل يمكن تقدير سكان سطيف الأحياء في سنة ما من السنوات التي شملتها فترة الدراسة؟ حتى يمكن أن نعرف نسبة الوفيات إلى نسبة الولادات أو التزايد الديمغرافي وطبيعة ذلك التزايد بالتوالد أو بالهجرة؟...

ومن جهة أخرى فإذا وزعنا (قسمنا) هذا العدد (532) على ثلاثة أجيال وهي المدة الزمنية المدروسة (القرنان 2 و3) سيكون معدل الأفراد في كل جيل حوالي 177 ذكرا وأنثى، أي معدل حوالي 82 زوجا (أسرة) عاشوا في سطيف. وهل الواقع الأثري (الأحياء السكنية، المنشآت المعتمدة في تقدير السكان) يتناسب وهذه النتائج التعسفية؟

مثل آخر

إعتمد كثير من مشاهير مؤرخي شمال إفريقيا الفرنسيين على سعة منشآت التسلية (مسارح، مدرجات...) في تقدير سكان المدن الرومانية. استنبطوا من ذلك

علاقة نسبية عددية بين سعة هذه الهياكل وعدد سكان المدن الموجودة فيها، كما قدروا نسبة اتساع تلك الهياكل أو انتشارها في المدن الرومانية.

ووجه العيب هنا قريب الشبه بما ذكرنا آنفا في عينة سطيف. ذلك أن منشآت التسلية لم يعثر على كثير منها في خرائب مدن كانت شهيرة آنذاك. كما أن هذه المدن عرفت تذبذبا في الكثافة السكانية تبعا للظروف الأمنية التي قلما عرفت استقرارا وطمأنينة، بالإضافة إلى أن المعنيين بمنشآت التسلية في مجتمع المدن كانت الطبقة النخبوية (طبقة المتناوبين على السلطة وأثرياء المدن). وهذه الطبقة اختلف عددها ومستواها من الثراء بين حاضرة (مدينة) وأخرى وتبعا للفترات التاريخية.

وهل مسرح مدينة سطيف أو الجزائر في العهد الفرنسي يعبر عن نسبة الحضر أو المفرنسين في هذه المدينة أو تلك، ومن كان معنيا بهذا النوع من المؤسسات الثقافية في المدن الجزائرية أثناء الإحتلال الفرنسي؟ فهل يصح بعد هذا أن نبقى متمسكين بهذا المنظور المنهجي القائم على انتقاء العينات والشواهد الأثرية واختيار زوايا النظر؟

لتفادي الوقوع في محاذير منهجية وتجنبا للمزالق الفكرية التي اتسمت بها كثير من الأعمال المعتمدة على هذا المنظور الذي يقتضيه المنهج الإحصائي فإنه من الضروري اعتماد منهجية أخرى تقتضيها الصرامة العلمية التي يتطلبها البحث الأثري وتستجيب للتقنيات الحديثة. إنها منهجية تعتمد على استقراء الشواهد والوثائق الأثرية المتنوعة واستنطاق القرائن المختلفة قبل الإستدلال الذي يقود إلى تصور ذهني يعيد تركيب البنية المادية والاجتماعية للمدن والأرياف التابعة لها، وهذا المنظور المنهجي يقتضي توسيع مجال الرؤية كي تشمل إقليما متنوعا جغرافيا ولكنه متكامل تاريخيا دون تحديد غايات معينة من وراء مشروع البحث كتثمين أفعال وسلوكات أشخاص أو مؤسسات أو امتداح عهد والإنتقاص من قيمة الآخر، إذ أن نتائج البحث الميداني ومفضيات الأعمال المخبرية والتحليلية للمعطيات كفيلة بذلك.

3 - من أجل حوار حضاري متوسطي(*)

إن حوض البحر المتوسط أشهر أقاليم الدنيا صلاحية لحوار حضاري كان ولا يزال قائما بين الأقوام والأمم القاطنة على ضفافه وجزره، ورغم تبادل هذه الأمم والأقوام السيطرة السياسية والاقتصادية على أجزاء هامة من هذا العالم الحيوي مستعملة وسائل عسكرية أو غير عسكرية، فإن هناك تبادلا حضاريا مقصودا أو غير مقصود كان أهم حصيلة تاريخية جنتها بلدان هذا الحوض على الرغم من مظاهر التناقض والمضاددة الفكرية والعقائدية الكامنة في البنى الحضارية والثقافية لشعوبه.

وهكذا كان اقليم المتوسط ميدانا لجهد حضاري باكر مصدره الساحل السوري، تمثل في اسهام الفينيقيين الذين حملت سفنهم مع البضاعة التجارية ثمرة ما حققه المشرق من نجاحات على درب التقدم الحضاري. فكانت محطاتهم التجارية مصدر اشعاع أنار الطريق أمام شعوب متوسطية كثيرة وأزاح عنها ظلمة عصور ما قبل التاريخ. وقد ترك الأثر الفينيقي بصماته واضحة في الموروث الثقافي والحضاري لبلدان هذا الحوض من قبرص إلى اسبانيا مرورا بمالطة وصقلية وسردينيا ناهيك عن المغرب وجنوب فرنسا.

(*) – كلمة بمناسبة انعقاد الملتقى الدولي الثاني حول تيبازا (بينال تيبازا).

وتمثل الحضارة الاغريقية-الرومانية أوج ما أعطته شعوب المتوسط للعالم القديم، وهي على الرغم من تميزها الظاهري بكونها حضارة من نوع آخر إلا أن أسسها ذات منابع شرقية ممزوجة بعناصر حضارية متوسطية باكرة. وقد ساهم في البناء الشامخ لهذه الحضارة أقوام المتوسط من مختلف الأعراق والثقافات، وإن كانت السيادة والمجد في ذلك قد تمرغت فيهما الأمة المسيطرة. ذلك أنه إذا نزعنا الفلسفة والفنون اليونانية من التراث الفكري والفني لروما مثلا، فلم يبق إلا شبحا باهتا. ثم أنه إذا استثنينا مفكرين لاهوتيين أمثال أوغسطين وغيره ممن ليسوا رومانا بالأصالة فإننا سننال من أمجاد الكنيسة الكاثوليكية المدينة لأمثال هؤلاء العظماء.

وقدر للجناح الجنوبي من حوض المتوسط أن ينهض برسالة حضارية تحت لواء الإسلام الحنيف، قوامها مبادئ العدل والاخاء ووحدانية العقيدة. وحمل العرب هذه الرسالة الموجهة للبشرية كافة، فكانت الفتوحات غرسا حضاريا أينع ثمرا طيبا في عالم المتوسط خاصة، وغدت الشام وبلاد المغرب والأندلس مراكز اشعاع عم نوره معظم بلدان هذا الحوض.

وكان للمغرب الأوسط في هذا الجهد الحضاري دوره البارز. فقد ساهم في حمل لواء الإسلام إلى الأندلس، وذاد عن حياضه هناك. كما احتضنت الجزائر أول دولة اسلامية قائمة على عدل حقيقي نشده المسلمون، هي الدولة الرستمية التي قامت بدور رائد في الربط بين افريقيا جنوب الصحراء الكبرى والبحر المتوسط تجاريا مخلفة نماذج رائعة للعدالة الاجتماعية القائمة على مبادئ الاسلام دون أن يصرفها تقشفها وزهد أئمتها عن العناية بمتطلبات الحياة المدنية، فكان اسهام الرستميين متميزا في هذا المجال، وهو ما تشهد عنه أطلال عاصمتهم الثانية سدراتة المغمورة تحت رمال الصحراء.

وقد حققت الدول الإسلامية المتعاقبة على المغرب الأوسط (الجزائر) نهضة اقتصادية قوامها العناية بالزراعة وتنظيم الري والتحكم في مصادر المياه (نموذج

عيون سدراتة) وتشجيع التجارة وتأمين طرق القوافل، فترتب عن ذلك نمو المدن واتساع الأسواق وانتعاش الحرف والصناعات وتكاثر العمران ورقي المستوى الحضاري.

ويحتفظ التراب الجزائري بأطلال عواصم هذه الدول كقلعة بني حماد وحاضرة أشير البربرية وسدراتة عاصمة الرستميين الثانية وتلمسان قلعة الزيانيين وغيرها كثير. ولكن هذه المعالم الاسلامية الهامة لم تلق العناية من طرف الادارة الاستعمارية في الجزائر على عكس المعالم الرومانية. مما جعلها تكون عرضة للإندثار والإنمحاء ويطويها النسيان. ويكفينا مثال واحد للبرهنة على هذا الإهمال الإرادي نأخذه من الأطلس الأثري للجزائر ذي الشهرة الفائقة. فورقة تلمسان (31) لم يرد في رقم (56) الخاص بمدينة تلمسان نفسها شيء حول هذه العاصمة الزيانية اللامعة. بل أن بوماريا (Pomaria) الرومانية السابقة لتلمسان والتي لم يبق من آثارها سوى القليل النادر، قد احتلت (67) سطرا استقصى فيها غزيل (Gsell) أخبار هذه المستعمرة متتبعا كل ما يشتم فيه رائحة هذه المؤسسة وما يذكر بمجتمعها المسيحي آنذاك... في الحجارة المطمورة تحت مآذن المساجد وفي أسس المباني الإسلامية أو نتف النصوص الأدبية القديمة وكتب الرحالة الأوروبيين، أو في كسر الفخار المتناثرة وشذرات الأحرف اللاتينية المبعثرة. ولم يخصص لمدينة المنصورة الجاثمة على أبواب تلمسان الغربية سوى ثلاثة سطور ذكر فيها أداة حجرية تعود إلى ما قبل التاريخ. إن هذا التغافل ينطبق على جميع المعالم الإسلامية. وإن شئت التأكد فارجع إلى ورقة (25) الخاصة بالمسيلة لتقف على حظ مدينة الزاب وقلعة بني حماد، أو عد إلى ورقة (14) الخاصة بتيارت (تيهرت) لتتيقن من أن عاصمة الرستميين الأولى لا وجود لذكرها إطلاقا...

وما قلناه عن هذا الجانب التوثيقي يصدق عن أعمال التنقيب الأثري والنشر العلمي التي نشطت كثيرا على أيدي رجال الآثار وعلماء التاريخ الفرنسيين في

الجزائر المحتلة، لقد أزيح التراب عن معظم المعالم العائدة إلى العهد الروماني من مدن ومعسكرات، لكن آشير وسدراتة وتيهرت وطبنة وبغاي ظلت كلها دفينة الأنقاض. إن هذا الانتقاء الذي تميزت به أعمال المختصين في الكشف عن الماضي ممن تحكمت في سلوكاتهم عواطف اديولوجية وانتماءات حضارية شكل عقبة منهجية في وجه الباحثين المتمتعين بالنزاهة العلمية من الراغبين في الوقوف على الحقائق التاريخية المجردة، ومثلها في ذلك مثل ما يسمى بـ«العقبة التوراتية» التي مست بالدراسات الفينيقية بما تضمنته من مسبقات فكرية وعقائدية منحازة، فطبعت مجرى الدراسات بطابع ديني مجاف للموضوعية، وكذلك العقبة المنهجية التي كونتها النصوص الكلاسيكية بشأن الدراسات البونيقية حيث طغى على هذه النصوص إحساس بتفوق العنصر الإغريقي وسمو الثقافة اليونانية والحط من شأن الآخرين.

وقد انتقلت هذه الصبغة الإيديولوجية إلى الدراسات الأوروبية الحديثة الخاصة بالتراث العربي الإسلامي، الموصوفة بالإستشراق. إن هذه العقبات شكل من أشكال الجنوح الفكري المشبع بعواطف آنية، وهي تساهم في تعتيم النظرة إلى ماضي البشرية وتوجه أحكامنا على تصرفات الأسلاف ومنجزاتهم، كما تعمل على تغذية أشكال التعصب وتنمية ظاهرة الصراع الحضاري بدل الحوار وتبادل القيم والأفكار بين الأمم والشعوب المتوسطية، التي تجد في الأسلوب الأخير مأمنا يدفعها إلى التجاوب المثمر ونبذ العراك العقيم.

بعض مراجع موضوعات الفصل الأول

1. Bousquet (Ch.), Les Bérbères, 1957.
2. Brisson (J.); Hutomonisme et christianisme, 1958.
3. Camps (G.), Aux origines de la bérbérie, 1960.
4. Courtois (Ch.),"De Rome à l'Islam" R. Afr. 1942.
5. Courtois (Ch.), Les Vandales et l'Afrique, 1955.
6. Diodore de sicile, Bibliographie historique, 24.
7. Gsell (S.), Histoire et historiens de l'Algérie, 1930.
8. Gsell (S.), Histoire ancienne de l'Afrique du nord, 8 t., 1924-1928.
9. Gsell (S.), Atlas archéologique de l'Algérie, 1911, 2 vol., F. 14, 25, 31.
10. Gautier (E.F.), Le passé de l'Afrique du nord, 1964.
11. Julien (Ch. A.), Histoire de l'Afrique du nord, T. 1, 1968.

الفصـــل الثـــانـــي

من عـــهـــود السيـــادة:

مـلـــوك وحـــواضـــر

1- الملك سيفاكس.

2 – الملك مسينيسا .

3 – مدينة كرطا Cirta (قسنطينة).

4 – حاضرة كالاما (قالمة).

1 - الملك سيفاكس (توفي عام 203 ق.م)

يعتبر الملك سيفاكس أقدم ملوك نوميديا الغربية (مازيصولة) المعروفين في المصادر القديمة، إذ لم تذكر هذه المصادر سلفا له، غير أنه ينبغي أن نتذكر بأن المصادر المذكورة لم تورد من أخبار هذا الملك ودولته سوى ما يتعلق منها بأحداث الحرب القرطاجية-الرومانية الثانية (218ق.م - 202ق.م) مهملة حياة سيفاكس قبل تلك الحوادث وأثناءها وكذلك أخبار مملكته قبل ذلك. ونظرا لهذا السكوت فإننا نجهل أسماء مؤسسي هذه الدولة والظروف التي نشأت فيها وتاريخ ظهورها ومراحل تطورها إلى أن بلغت ذلك النضج الذي كانت عليه عندما نشبت الحرب الثانية بين القرطاجيين والرومان.

لكننا نعلم من خلال المصادر أن سيفاكس كان متقدما في السن أثناء تلك الحرب ويساعده ابنه فيرمينا على تسيير شؤون المملكة، وتظهر صورته في بعض نقوده في شكل فارس تجاوز الخمسين سنة ذي لحية طويلة رفيعة ووجه مكدود أذابته السنون وهموم الملك والسياسة.

ويبدو أن شهرة سيفاكس كانت ذائعة وأن قوة مملكته كانت معتبرة بجيشها القوي عشية اندلاع الحرب القرطاجية الرومانية الثانية الأمر الذي جعل كل طرف يخطب وُدّ هذا الملك النوميدي القوي ويعمل على استمالته وكسبه ضد الخصم. ويظهر أن سيفاكس لم يكن على وفاق تام مع القرطاجيين آنذاك وأن الخصومة كانت قائمة بين الطرفين حول المدن الساحلية والموانئ الواقعة على سواحل مملكته، إذ كان سيفاكس يعمل على ضم تلك المراكز وجعلها منافذ لمملكته على

العالم المتوسطي، بينما كانت الإستراتيجية القرطاجية تقتضي الإحتفاظ بها لضمان الإمدادات للجيوش المرابطة بإسبانيا من جهة وتواصل الحركة التجارية بين العاصمة قرطاجة والغرب من جهة أخرى. واستغل سيفاكس انشغال قرطاجة بالحرب وغياب جيوشها عن المنطقة (إذ كانت تحارب بإيطاليا تحت قيادة حنبعل) فضاعف من ضغطه على المدن والمراكز الساحلية المحاذية لتراب مملكته، فأوفدت إليه قرطاجة لطمأنته ومحاولة كسبه إلى جانبها. غير أن تلك المساعي السياسية لم يكتب لها التوفيق. أما روما فكانت تراقب تطور الوضع بين القرطاجيين وسيفاكس عن كثب وتنتظر فرصة الإستفادة من القطيعة بينهما. ولم تكن روما بعيدة عن الساحة إذ كان رسلها يترددون على بلاط سيفاكس لمراودته وإثارته ضد القرطاجيين، فكانوا يقدمون له عروضهم المغرية مقابل تحالف مملكته مع جمهورية روما. وقد نجحت الدبلوماسية الرومانية فيما أخفقت فيه قرطاجة مؤقتا وتمكن المفاوضون الرومان من الحصول على تحالف من سيفاكس ضد قرطاجة عام 213 ق.م. واقتضى التحالف أن يجهز الملك جيشا نوميديا ويجتاز به البحر إلى اسبانيا لمقاتلة القرطاجيين إلى جانب الرومان، وتذكر المصادر بأن سيفاكس التقى بالأمير النوميدي الشاب مسينيسا لأول مرة هناك وكان إذ ذاك على رأس وحدة فرسان نوميديين أوفدها أبوه غيّة لتقاتل إلى جانب حلفائه القرطاجيين، وأنهما تقاتلا في إسبانيا لأول مرة وقد شاءت الأقدار فيما بعد أن يتبادلا الصفوف، فينتقل مسينيسا إلى جانب الرومان ويعود سيفاكس إلى القرطاجيين ويلتقي الوجهان في معارك فاصلة بأرض نوميديا.

وتجدر الإشارة إلى أن انضمام سيفاكس إلى الرومان سبقه تحالف بين غيّة ملك نوميديا الشرقية والقرطاجيين. وكان هذا الملك قبل ذلك على خصومة معهم بسبب الحدود.

ويذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن انضمام سيفاكس إلى جانب الرومان له علاقة بالمصالحة المتبوعة بالتحالف بين القرطاجيين وجارهم غيّة.

ومهما كان أمر هذه الملابسات فإن روما كانت تتوخى أغراضا عسكرية من وراء تقربها من الملك سيفاكس ومنها فتح جبهة وراء الجيش القرطاجي المرابط بإسبانيا وعزله عن مصادر الأمداد الموجودة بشواطئ المغرب والتي كان الكثير منها تحت سيطرة سيفاكس، ثم تقوية صفوف جيشها بإسبانيا في محاولة للضغط على البلاد الخاضعة للقرطاجيين عسى أن يؤثر ذلك الضغط على معنويات حنبعل الذي كان يطوق روما فيفك عنها الحصار.

غير أن سيفاكس لم يطل بقاءه بإسبانيا لصالح الرومان فعاد وغيّر موقفه بعد مفاوضات طويلة جرت بينه وبين القرطاجيين ولا علم لنا بمحتواها أو مراحلها وانتهت بعودته إلى حلفائه الطبيعيين، وتذكر الروايات التاريخية أنه أصبح صهرا للقرطاجيين منذئذ حيث تزوج إحدى أميراتهم المعروفة بسفونزبة ابنة عزربعل جسكون، وهي فتاة كان الأمير مسينيسا موعودا بها حسب هذه الروايات، وإستفادت قرطاجة بهذه المصاهرة التي توجت بعودة نوميديا الغربية إلى صفوف القرطاجيين فتعززت جبهتهم الافريقية وأصبح المغرب كله صفا واحدا إلى جانبهم. لكن هذه الوضعية لم تدم طويلا حيث أنه بعد وفاة غيّة ملك نوميديا الشرقية (ماسوله) عام 207 ق.م. نشب خلاف بين أفراد البيت المالك على وراثة العرش الماسولي فلم تتمكن قرطاجة من السيطرة عليه وتسويته بصورة ترضي جميع الأطراف المتنازعة على الملك، ثم أن سيفاكس قد لعب دورا في ترتيب شؤون الإستخلاف بصورة حققت له مكاسب سياسية وربما ترابية أيضا فأصبح أقوى ملك في بلاد المغرب كلها بعد قرطاجة التي عززت علاقتها به نظرا لمكانته المتعاظمة في المنطقة من جهة ورغبتها في الإحتفاظ بجبهة المغرب متماسكة قوية من جهة أخرى. غير أن الأمير مسينيسا المرابط بإسبانيا آنذاك إلى جانب الجيش القرطاجي كان تقديره للوضع العسكري العام مختلفا عن تقدير كل من قرطاجة وسيفاكس كما أن حساباته السياسية كانت مغايرة تماما لما كان يجري بمملكة

أبيه بين المتنافسين على العرش، إذ أنه شهد تراجع القوة القرطاجية أمام زحف الجيش الروماني بشبه الجزيرة الإيبيرية وفشل محاولات تعزيز جيش حنبعل بإيطاليا، كما كان على دراية بما يمكن أن ينجر من انعكاسات سلبية ناجمة عن الخلافات السياسية القائمة بقرطاجة نفسها حول مغامرة حنبعل بإيطاليا، واتساع مجال المواجهة القرطاجية الرومانية، ثم أنه كان واثقا من حصوله على مؤيدين من نوميديا الشرقية ممن مست مصالحهم الإضطرابات الناشئة عن الحروب ووراثة عرش غيّة. ضف إلى ذلك أنه كان يطمح في أن يؤول إليه عرش المملكة بعد وفاة مستحقيه. إن كل هذه الأمور جعلت مسينيسا يلتجئ إلى الحل الخارجي المفروض بقوة السلاح وهكذا فاوض الرومان في القضايا القائمة العسكرية منها والسياسية بما يحقق مصلحة روما منها ومصلحته، واتفق مع مفاوضيه على العمل المشترك الرامي إلى قلب الأوضاع لصالح الطرفين، أي هزم القرطاجيين وحليفهم سيفاكس عسكريا، وتمكين مسينيسا من نوميديا. وقد مرت هذه الحركة السياسية سنة 206 ق.م. وأحوال نوميديا الشرقية مضطربة. من هنا بدأت متاعب سيفاكس إذ أصبحت حياته ومملكته هدفا عسكريا وسياسيا للرومان ومسينيسا مثلما استهدف حنبعل ومن وراءه قرطاجة. ولم ينعم سيفاكس بالمجد طويلا إذ ما لبث الوضع العسكري بالمغرب أن توتر بعودة مسينيسا إلى نوميديا (206 ق.م) وشروعه في مناوشة خصومه، وتهيئة الوضع للانزال الروماني المتفق عليه بالتراب القرطاجي. واتضحت متاعب سيفاكس بعد الانزال الروماني عام (204 ق.م) حيث كان عليه أن يواجه هذا الإنزال المفاجئ قبل أن تقع قرطاجة تحت طوقه، إذ لم يكن لديها من الجيش ما يحول دون هذا التطويق، فضم سيفاكس جيشه إلى جيش قرطاجة الذي كانت تحت قيادة عزربعل بينما كان مسينيسا وجيشه إلى جانب الجيش الروماني بقيادة كورلينيوس شبيُون الذي لقب بالإفريقي لانتصاره بإفريقيا، وتجلت بوادر نهاية سيفاكس في أخذ الرومان ومسينيسا له على غرة

وإحرازهم نصرا كبيرا عليه وعلى عزربعل في شهر أبريل 203 ق.م)، وقد غيرت تلك الهزيمة من وجه الحرب ومستقبل القتال بين الطرفين حيث كانت خسارة القرطاجيين وسيفاكس فيها كبيرة، ثم أن المحاولة التي قام بها سيفاكس وصدر بعل قصد كسر الجيش الروماني ورجال مسينيسا بسهل الدخلة (أعالي مجردة) في شهر جوان من نفس السنة لم تحقق الهدف المرغوب، بل أنها أسفرت عن هزيمة أخرى تعقب أثرها المنتصرون جيش سيفاكس المتوجه نحو كرطا (قسنطينة) وألحقوا به هزيمة زاد من فداحتها وقوع سيفاكس أسيرا بيد خصمه مسينيسا الذي دخل كرطا مظفرا، فانتقم منه ومن زوجته القرطاجية سفونزبة.

وهكذا كانت نهاية الملك سيفاكس وبها سقطت مملكته بيد خصمه مسينيسا الذي اعترفت به روما ملكا على نوميديا كلها منذ ذلك الحين كما فقدت قرطاجة أكبر حليف وأقوى سند لها في بلاد المغرب فكان ذلك أحد العوامل القوية لهزيمتها المقبلة في معركة زاما (عام 202) التي دارت بين قوتين غير متكافئتين وإن قاد فيها الجيش القرطاجي القائد الشهير حنبعل، إذ ضاعف الرومان جيشهم القوي المهيأ للمعركة الفاصلة وجيش مسينيسا المعزز بنشوة الإنتصار، بينما كان قوام الجيش القرطاجي رجال أنهكهم عناء السفر (رجال حنبعل الذين عادوا معه من حروب إيطاليا) وآخرون ذهبت بقواهم الهزائم السابقة.

والخلاصة أن الفترة التي نعرفها من حياة سيفاكس لا تتجاوز عشر سنوات الأخيرة من حياته (213-203 ق.م) قضاها في خضم الأحداث والتقلبات المواكبة لتغير ميزان القوى بين الطرفين (روما وقرطاجة).

2 - الملك مسينيسا (238-148 ق.م)

لعل مسينيسا أكثر حظا من خصمه سيفاكس بين صفحات التاريخ، ذلك أن النصوص القديمة احتفظت بحجم أوفر من المعلومات حوله على عكس سيفاكس، وبفضل هذا الحجم النسبي من المعارف التاريخية أمكننا أن نلم بقسط من الأخبار المتعلقة بحياة هذا العاهل النوميدي ومن خلالها بعض أمور مملكته وعلاقاتها بجيرانها.

ولد مسينيسا عام 238 ق.م. في زوبعة من الأحداث العسكرية كان شرقي نوميديا وتراب قرطاجة مسرحا لها، هي حرب الجيش القرطاجي المتمرد المعروفة بحرب المرتزقة التي حدثت عقب توقف القتال بين روما وقرطاجة (الحرب البونيقية الأولى 264-241 ق.م).

ولا يتسع المجال هنا للتعرض إلى هذه الحرب لكننا نكتفي بالإشارة إلى أنها مثلت نوعا من النفور الشعبي ضد الدولة القرطاجية التي اشتطت في مطالبة السكان بالمغارم وأضرت بهم من خلال مطالب الحرب، إذ لم يقتصر التمرد على أفراد الجيش المأجور المتعدد الأجناس الذي مثل فيه النوميديون نسبة عالية، ولكنه ضم مجموعات كثيرة من الأهالي، فاكتست الأحداث ثوب ثورة عارمة طليعتها جيش متمرد وخليفتها مدنيون يشدون من أزره، وكان قائد الثورة نوميديا يدعى مطوس. وتحدثت النصوص القديمة عن احتضان السكان لهذه الثورة، ودعمهم لها بالمال والرجال بحيث كانت النسوة تتبرعن بحليهن للمجهود الحربي، ثم أن قرطاجة عجزت عن السيطرة على هذا العدد وكادت المدينة تسقط فريسة له لولا

استنجاد قائدها عملقار ببعض الأمراء النوميديين ومنهم نرهفاس فتمكن من اخماد الثورة والسيطرة على الموقف العسكري بالبلاد. وكان نرهفاس أحد أفراد البيت الماسولي النوميدي الذي كان يسيطر على الإمارة المجاورة للتراب القرطاجي، وهو البيت الذي أنجب مسينيسا. غير أننا لا نعلم شيئا عن دور غيّة والد مسينيسا في تلك الأحداث وبالتالي موقفه منها مع أنه كان أحد أعيان هذا البيت إن لم يكن ملكا بعد آنذاك، مع الإشارة إلى أن والد غيّة زيلالصن قد شغل وظيفة حاكم مدينة دوقة تحت لقب شافط (أو سبط) على الطريقة البونيقية، مما يدعو إلى الإعتقاد بأنه كان يحكم المدينة تحت رعاية قرطاجة أو على وفاق كبير معها.

ولد مسينيسا إذن بمكان ما قد يكون مدينة دوقة التي أقيم له ضريح فيها بعد وفاته. تملأ الحرب أكبر حيز من اهتماماته ويسجل التاريخ أشهر الأحداث التاريخية التي كان فيه طرفا. ويتوفى والحرب البونيقية الثالثة (149-146) على أشدها بين روما وقرطاجة وهي حرب كان سببا رئيسيا في إشعالها. فلا غرابة إن تكرر ذكره أكثر من غيره لدى مؤرخي تلك الحروب من الإغريق والرومان فذلك ليس من باب التمجيد البطولي أو العرفان له بالفضل ولكن سياق أخبار تلك الحروب اقتضى ذلك. ومن ثم فإننا لا نعثر عند أولئك المؤرخين ما يفيدنا في معرفة طفولة مسينيسا وكذلك أطوار حياته الخاصة وأخبار مملكته منفصلة عن الأخبار المتعلقة بروما. وذلك أن أول ذكر له في تلك المصادر كان بمناسبة وجوده على رأس فرقة نوميدية ترابط إلى جانب الجيش القرطاجي بإسبانيا عام (212 ق.م) وعمره آنذاك حوالي 26 سنة. ثم توالى ذكره مرتبطا بمواقفه من الطرفين المتحاربين، ونال اهتماما أكثر لدى أولئك المؤرخين عندما سجل ذلك الموقف الشهير من قرطاجة بعد وفاة أبيه (207 ق.م) بانقلابه ضدها وانضمامه إلى الرومان فأصبح بأعماله المناوئة للقرطاجيين وحلفائهم النوميديين يحظى بشيء من المدح، وفي سياق ذلك وردت بعض الإشارات المتعلقة به وبأحوال مملكته، منها

علمنا أنه قضى جزءا من طفولته وشبابه في مدينة قرطاجة سيرا على عادة الأعيان النوميديين الموالين لقرطاجة الذين كانوا يوفدون أبناءهم إلى عاصمة الشمال الإفريقي قرطاجة لينشأوا فيها ويتشبعوا بحضارتها استعدادا للسيادة والملك.

وما عدا هذه الإشارة فإننا نجهل جميع ما يتعلق بظروف نشأته وتكوينه وتنقلاته قبل أن يرحل إلى شبه الجزيرة الإيبيرية محاربا. لكن المؤرخ اليوناني بوليبيوس الذي التقى به بصحبة القائد الروماني سيبيون الإيميلي قد خصّه ببعض الوصف الجسماني والمعنوي أضاف إليه كتاب آخرون نتفا مختلفة. منه أن مسينيسا، كان شديد البأس قوي الإرادة ذا عزيمة لا تثنيها المحن والعوائق والأخطار، وكان طويل القامة قوي البنية محتفظا بحيويته ونشاطه ولم تنل الشيخوخة من صحته ولا أثرت عليه السنون والأهوال، حيث كان قادرا على قيادة جيشه وهو في سن الثمانين ويقضي يومه متأهبا على صهوة جواده دون أن تظهر عليه علامات التعب أو الإنهاك. ووصف بأنه كان لا يأبه بتقلبات الطقس فيستقبل المطر والبرد مكشوف الرأس وهو في سن متقدمة دون أن يناله الضرر. وليس معنى هذا أن الخشونة كانت شرعته في الحياة بل ذلك يكمن في قدرته على التكيّف مع الظروف وحمل نفسه على تقبل مقتضياتها. أما عندما يكون الظرف غير الظرف ويستقر في قصره بعاصمة ملكه فإنه يحيط نفسه بهالة من سعة العيش والترف لا تقل عما كان عليه حال أنداده من ملوك العصر، فيتناول طعامه وشرابه في أواني من الفضة والذهب، وتقام له حفلات الموسيقى اليونانية الراقية في جو تملؤه مظاهر أبهة الملك والسلطان. إنه رغم ما يبدو على هذه النتف من المبالغة في إطراء مسينيسا فإنها لا تبعد كثيرا عن الحقيقة، ذلك أن الرجل كان عسكريا قضى جل حياته محاربا فلا غرو إن اكتسب هذه الخصائص الجسمانية والنفسية التي نالت إعجاب المؤرخين فأثبتوها في كتبهم.

يمكن تقسيم حياة مسينيسا من حيث مراحلها الكبرى إلى ثلاثة أقسام هي: مرحلة الطفولة والشباب وتمتد من سنة ميلاده عام 238 إلى 206 ق.م. وهي مرحلة تكاد تكون مجهولة لدينا باستثناء بعض الأخبار المتعلقة بالسنوات الأخيرة منها التي قضاها بإسبانيا محاربا في صفوف القرطاجيين. ثم المرحلة الممتدة من 206 إلى 203 ق.م، التي قضاها مكافحا في سبيل حصوله على كرسي الخلافة. ومع قصر هذه المرحلة إلا أنها من أصعب مراحل حياته وأكثرها نشاطا وحيوية وتأثيرا في مجريات الأحداث العسكرية الجارية بالمنطقة المغربية وخارجها، إذ شهدت هذه السنون من عمره تخليه عن القرطاجيين وانضمامه للرومان ثم انتقاله إلى نوميديا التي تعرض فيها للمطاردة من طرف خصومه بها، إلى أن تمكن من هزمهم بمساعدة حلفائه الرومان كما سبق ذكره. أما المرحلة الثالثة والأخيرة من حياته فتمتد من سنة 203 وهي سنة حصوله على صولجان الملك إلى عام 148 ق.م، حيث فارق الحياة عن عمر يناهز الثمانين سنة. وفيها حقق مسينيسا أمجاده السياسية والعسكرية الكبرى حيث تمكن من تحقيق الوحدة بين شطري نوميديا وبلغ بالمملكة أقصى اتساعها إذ امتدت حدودها من نهر الملوية غربا إلى السيرت الكبير شرقا وكاد يحقق حلمه السياسي بابتلاعه ممتلكات القرطاجيين كلها وضم مدينتهم إليه لولا تدخل روما ومعاجلة الأجل.

ولا ندري إن كان مسينيسا قد لاحظ بوادر وقوع المغرب كله تحت الهيمنة الرومانية التي مهد لها بعمله على إزالة الحاجز القرطاجي من الوجود. ثم إننا لا نعلم إن كان يتوقع أن الرومان لن يكتفوا هذه المرة بهزم القرطاجيين وإجبارهم على تسليم أسلحتهم وأموالهم وهدم حصونهم ثم يعودون من حيث أتوا كما فعلوا من قبل عقب موقعة زاما. وهل كان متيقنا من أن أبناءه سوف يتمكنون من مواصلة نهجه الساعي إلى تحرير المغرب كله من الهيمنة الأجنبية دون أن

يصطدموا بمصالح روما في المنطقة أو على الأقل أنهم سيتمكنون من المحافظة على الإرث الكبير الذي أفنى أبوهم عمره في جمعه لهم من غير أن يثير ذلك هواجس حلفائه الرومان وأطماع المتطلعين منهم لاستغلال الأوضاع المترتبة عن انتصار جيشهم في إفريقيا؟ إننا لا نستطيع القول بأن واحدا من هذه التصورات أو غيرها قد دار بخلد مسينيسا وهو يشاهد بداية زوال قرطاجة من الوجود، ذلك أننا نجهل نواياه الحقيقية وليس في الروايات التاريخية ما يساعدنا على ترجيح هذا التصور أو ذاك. لقد ترك هذا الصمت باب الإفتراضات مفتوحا أمام المؤرخين فتباينت تفسيراتهم لمواقف مسينيسا واختلفت تقديراتهم لمدى ما كان يتمتع به الرجل من بعد نظر أو حصافة رأي.

3 - مدينة كرطا (سيرتا) عاصمة نوميديا (Cirta)

كرطا، قسنطينة، إسمان عريقان تحلت بهما هذه الحاضرة المنيعة الرائعة، كما وصفها استرابون منذ قرابة ألفي عام.

ولئن كان الإسم الثاني تذكاريا (قسنطينة) تزلف به المستوطنون الرومان لسيدهم الإمبراطور قسطنطين بمناسبة زيارته لهذه القلعة الشماء، وظل متداولا إلى الوقت الحاضر، فإن اسمها الأصيل والعريق «كرطا» (Cirta) لم يمحه الزمن الطويل من ذاكرة التاريخ الخالدة لأنه مرتبط بواقع تاريخي حي، ويجسم أزهى مرحلة تاريخية مرت بها الجزائر في العصور القديمة.

إن أكثر الحواضر بقاء وأطولها عمرا وأقدرها على الإستمرار هي التي تتوفر لها عوامل المنعة والنمو والخلود، وأبرز هذه العوامل تتمثل في المميزات الجغرافية لموقعها ووفرة الموارد الاقتصادية لسكانها. فضلا عن مناعتها الطبيعية خاصة في إقليم جغرافي مثل إقليم مغربنا الكبير المتميز بتحركاته البشرية عبر العصور.

إن نظرة فاحصة في طبيعة الإقليم القسنطيني تضفي بنا لاستنتاج جملة من الخصائص الجغرافية المميزة التي ساعدت كرطا على الحياة طويلا وخاصة في العصور القديمة. فالمدينة تقع على ارتفاع معتدل يتوفر فيه الضغط الجوي المناسب للإستقرار البشري، كما أن الهواء جاف ومتجدد يريح التنفس ويبعث عن النشاط، فضلا عن التساقط المناسب (800 مم^3 سنويا في المعدل) مما كان يوفر للإنسان حاجته من الماء، ويساعد على نمو النباتات الفلاحية والرعوية.

وهناك خاصية أخرى تميزت أو انفردت بها كرطا وهي التوسط بين منطقتين متباينتين من حيث التضاريس والمناخ وأنماط معيشة السكان. ألا وهما منطقة السهول العليا من جهة والمرتفعات الشمالية من جهة أخرى. وسوف نعرف فيما بعد كيف أن هذا التوسط كان إيجابيا بالنسبة لكرطا عبر التاريخ.

ونضيف عنصر المناعة الطبيعية الذي تتمتع بها هذه المدينة، ليس فحسب ضد الجيوش الغازية، ولكن أيضا وبالخصوص ابتعاد موقعها عن معابر البدو الرحل وعن مناطق تذبذبهم بين المواسم السنوية وهذا العنصر الأخير أعطى لكرطا فرصة الإستمرارية والعراقة عبر التاريخ، فهي عكس المدن التاريخية الأخرى الواقعة في طريق البدو أو في مجالات ترددهم، مثل قفصة وتبسة ومسيلة والقلعة وسطيف فلم ينل «كرطا-قسنطينة» من تأثير الرحل ما نال هذه الحواضر.

وحتى تديس الجارة القريبة من كرطا والتي قاسمتها الأهمية في وقت من الأوقات (في عهد الرومان خاصة)، وتتوفر خرائبها على ما يؤكد قدمها الشديد (القرن الخامس ق.م)، لم تصمد أمام عوادي الزمن لكونها لا تتوفر على خصائص كرطا.

ولنا في سيقوس ذلكم الموقع الأثري الهام العائد إلى ما قبل التاريخ أوضح مثل على ما نقول. ولا يطاوعنا المجال هنا للاستمرار في ذكر القرائن التاريخية حول هذا الموضوع، إذ يكفي القول بأن هناك عشرات المواقع التاريخية في الجزائر وفي بلاد المغرب كلها كانت عامرة حية تنبض بالحركة في أزمنة غابرة، بعضها يتوغل إلى فجر التاريخ والبعض الآخر إلى العصور القديمة أو الوسطى، ولكن افتقارها إلى ما تمتعت به كرطا من خصائص البقاء جعل بعضها يندثر تماما، والبعض الآخر يفقد أهميته وأصالته مع الزمن.

التسمية

إن أقدم تسمية لهذه المدينة العريقة احتفظت بها النصوص القديمة والوثائق الأثرية، هي كرتا (Cirta) بالتلفظ اللاتيني والإغريقي، أو كرتن (بالنون) كما جاءت في النقود النوميدية وقد وردت في أقدم النقوش اللاتينية بلفظ كرثة (بالثاء) (Cirtha) وقد ورد اسمها في قطعة نقد بالبونية ربما بصفة مختصرة (Teth). ولكن مهما اختلف نطقها قديما فإن الجانب الذي طرح للمناقشة زمنا طويلا، يتعلق بالمعنى الكامن في عبارة (Cirta) بالذات، فهل هي مشتقة من الفينيقية، وبالتالي تعني القرية أو المدينة كما هو الشأن في عبارة قرت (بفتح القاف) والذي عرفت به قرطاجة (قرب مدينة تونس) وقرطاجنة (إسبانيا) ومعروف أنّ اسم قرطاجة مكون من لفظتين «كرت» = القرية و«حدشت» = الجديدة؟ أم أن عبارة كرطا لفظ مشتق من اللغة الليبية القديمة، ويحمل معنى لا يزال مجهولا لدينا، هذا المعنى الذي حدا ببعض الباحثين برجي (Berger)، إلى القول بأنه قد يكون مشتقا من اسم المكان أو الموقع الحصين الذي تتربع عليه هذه المدينة، وليس مشتقا من عبارة فينيقية لأنه يختلف عن عبارة قرطة الفينيقية في كون هذه بالفتح وكرطا بالكسر، هذا فضلا عن معطيات تاريخية أخرى ساقها هذا الباحث في هذا الموضوع، غير أن هذا الإفتراض يبدو ضعيف السند التاريخي واللغوي إذ لا توجد قرائن تاريخية ولغوية تدعمه، خاصة وأن الليبية القديمة مازالت المعرفة بها سطحية وضئيلة.

والرأي السائد، وإن كان بعضهم لا يزال متحفظا إزاءه، هو أن كرطا لفظ فينيقي يعني المستوطنة أو المدينة لقرب اشتقاق هذا اللفظ من عبارة قرطة، إلا أن هذا الإفتراض، وإن كان شبه مسلم به، يثير مشكلا تاريخيا آخر، وهو أنه إذا سلمنا بكون التسمية فينيقية الأصل، فإنه يترتب على ذلك القول بأن كرطا مستوطنة فينيقية بدليل الإسم الذي تحمله وبدليل ما اكتشف فيها من آثار بونية الطابع، غير أنه لا تتوفر الأدلة القطعية حول هذا الموضوع، بل أن هناك العديد

من الصعوبات التي تقوم في وجه هذا الإفتراض، أهمها أن الفنيقيين قد اهتموا بإنشاء المستوطنات على الشواطئ لاتخاذها اسكالات (محطات) في طريقهم عبر المتوسط، أو مراكز تجارية لتجميع البضاعة أو مبادلتها مع السكان المحليين (الأهالي)، وكرطا تقع في عمق يبعد عن الشاطئ بمسافة طويلة يصعب على الفنيقيين اختراقها فضلا عن موقع كرطا الذي لا يوجد ما يماثله من مواقع المدن الفينيقية الشاطئية سواء منها ما هو موجود في الساحل السوري أو المغربي.

حتى في العهد القرطاجي، وهو المرحلة الثانية من التواجد الفينيقي في المغرب، فإن المصادر التاريخية لم تفدنا بما يؤكد تأسيس القرطاجيين لكرطا، فعلى الرغم من أن القرطاجيين قد حولوا أنظارهم عن البحر لوجود المنافسين الإغريق، واهتموا بالأرض الزراعية وبإفريقيا كمورد إقتصادي جديد وبديل، حيث أرسلوا الحملات الإستطلاعية داخل إفريقيا وحولها، واحتلوا مناطق زراعية هامة في بلاد المغرب المجاورة لهم حتى بلغوا تبسة واخضعوها للجزية (الحرب البونية الأولى)، فإنهم رغم ذلك لم يهتموا بإنشاء المدن الداخلية، بل اكتفوا بمطالبة الأهاا بالضرائب، وجندوا إمكانيات البلاد البشرية والاقتصادية لصالحهم، خاصة خلال الحربين البونيقيتين الأولى والثانية (264-241 ق.م، 218-202 ق.م).

ومن جهة أخرى فقد أثار الإكتشاف الأثري بالحفرة المتمثل في المعبد البوني بقسنطينة جدلا بين الباحثين حول أصول كرطا، إذ أتى هذا الكشف بأقدم الوثائق التاريخية عن ماضي كرطا القديم، وذهب بعضهم إلى الإعتقاد في أن السكان الأصليين لكرطا كانوا من الفينيقيين بدليل شواهد نذورهم المكتشفة بهذا المعبد، وهي تحمل أسماء فينيقية لا جدال فيها.

غير أن هذا الإفتراض تتضاءل أهميته وتضعف دعائمه إذا علمنا أن الأهالي كانوا يتسمون بأسماء الفينيقيين ويمارسون شعائرهم الدينية، ويستعملون لغتهم وكتابتهم، وأوضح دليل عن ذلك أن اللغة البونيقية كانت لغة الدولة النوميدية

الرسمية ضربت بها النقود، ونقشت في اللوحات التذكارية والجنائزية ولم تستعمل الليبية إلى جانبها في العملة مثلا، وإن كانت قد استعملت في النصب الجنائزية ومن ثم فشواهد القبور المعثور عليها بمعبد الحفرة البوني هي في الواقع لليبيين النوميديين دون أن نستبعد وجود عناصر فينيقية أو مولّدة بينهم.

ولا يسعنا المجال هنا كي نعرض خلفيات هذه القضية وأبعادها التاريخية والحضارية، ونكتفي بالقول حول أصول كرطا بأنها كانت منذ ما قبل التاريخ، بدليل الأدوات الأثرية، عبارة عن موقع استقرار بشري لتوفر المكان على عوامل الإستقرار في تلك المرحلة البدائية، كالمياه الجارية والمخابئ الطبيعية والحصانة ضد الغزاة والحيوانات المفترسة. ثم تطور الموقع مع الزمن وشيد السكان منازلهم بالقرب من المغاور عندما ضاقت بهم مخابئهم، وأصبح الموقع قرية ثم مدينة، ربما استعار لها سكانها اسم كرطا من اللغة الفينيقية التي لم تكن غريبة عنهم لأنهم عرفوا الفينيقيين منذ أواخر القرن الثاني عشر قبل ميلاد المسيح وتعاملوا معهم تعاملا ايجابيا.

مراحل تاريخ كِرطا

إن تاريخ تأسيس المدينة لا يزال مجهولا، ولعل ذلك راجع لكونها لم تؤسس من العدم، فهي كما ذكرت آنفا تطورت من محطة استقرار بشري في ما قبل التاريخ إلى مدينة هامة في العصور التاريخية، وبصورة لم ينقطع معها العمران البشري بها. وأقدم الأخبار عن كرطا هي التي أوردها بوليبيوس المؤرخ الإغريقي الكبير، ثم إشارات المؤرخ اللاتيني ليفيوس، وكان الأول قد عاش خلال القرن الثاني قبل الميلاد وزار كرطا وبقية المغرب وتعرف على مسينيسا وأثنى عليه ونوّه بمنجزاته. وترجع أقدم الأخبار عن كرطا إلى أواخر القرن الثالث قبل ميلاد المسيح أي إلى أواخر الحرب البونيقية الثانية عندما كانت كرطا محل صراع بين كل من الملك

سيفاكس ملك نوميديا الغربية المسماة بمازيسوله (نسبة لقبائل المازيسيل) والأمير مسينيسا الذي كان يطالب بحقه في وراثة مملكة نوميديا الشرقية المسماة ماسوله (نسبة لقبائل الماسيل) وكانت كرطا آنذاك إحدى عواصم سيفاكس الكبرى. ولم يهتم المؤرخون الإغريق واللاتين بتاريخ كرطا وخاصة منه ما يتعلق بتأسيسها مثلما اهتموا بتأسيس قرطاجة والمدن الفينيقية الأخرى كأوتيكا (غرب قرطاجة) وليكسوس (شمال الرباط) وقادش (عند مصب النهر الكبير بإسبانيا).

أما المصادر المحلية من فينيقية وليبية فهي مفقودة، وربما كان السبب في فقدانها ما أصاب مدينة قرطاجة وغيرها من الحواضر النوميدية على يد الرومان من حرق وتدمير وإتلاف، فاندثرت من جراء ذلك المكتبة القرطاجية، وحتى ما أنقذ منها لم يصلنا منه شيء، رغم أن صالوستيوس قد تحدث عن كتب قرطاجية سلمها الرومان لملوك نوميديا باعتبارهم ورثة الحضارة البونيقية وحفظة لسانها. ويقول نفس المؤلف بأنه استفاد من كتب تاريخية حول بلاد المغرب كتبها أحد المؤرخين النوميديين وهو الملك يمسال الثاني.

ولكن صالوستيوس لم يذكر محتوى هذه الإستفادة ولا احتفظ بمقتطفات من ذلك التراث النوميدي، بل اكتفى بالنقل عنه ما رآه مناسبا لحبك قصته المعروفة بحرب يوغرطة.

وإذا قارنا تاريخ قرطاجة بتاريخ كرطا فإن الأول يعتبر واضحا بالنسبة لتاريخ الثانية والفضل في ذلك يرجع إلى المؤرخين الإغريق واللاتين الأوائل. فقد احتفظت كتبهم بأخبار هامة ودقيقة أحيانا حول مدينة قرطاجة. خاصة تلك الأخبار المتعلقة بالصراع القرطاجي الإغريقي أو القرطاجي الروماني. وقد أمكن الإعتماد على النصوص القديمة والملفات الأثرية في تحديد تاريخ تأسيس قرطاجة بصفة شبه مضبوطة (814 ق.م)، أما كرطا والمدن النوميدية الأخرى فإن حظها من النصوص القديمة ضئيل، لأنها لم تكن تشكل محور اهتمام بالنسبة للكتاب القدماء من

الإغريق أو اللاتين لأنها لم تكن طرفا في الصراع القائم آنذاك بين شعوب المتوسط. وهكذا لم يأت ذكر كرطا في كتبهم سوى عرضا عندما يتعلق الأمر بحادث تاريخي هام، له صلة بجملة الصراع. واعتمادا على هذه الإشارات الهامشية فقط أمكننا التعرف على بعض النتف حول تاريخ هذه الحاضرة المغربية أو تلك، وعلى هذا فإن أخبار بوليبيوس أو ليفيوس أو صالوستيوس حول كرطا تتصف بالغموض والإقتضاب والتقطع وبعدم الدقة أيضا، فضلا عن كونها لا تشير إلى تاريخ تأسيس المدينة.

ولقد سكت هيرودوت قبل ذلك بقرون عن ذكر حواضر ليبيا (وقد كان يسمي إفريقيا كلها بليبيا) واهتم فقط بالجانب البشري والطبيعي، حيث ركز على وصف مقارن للقبائل الليبية وتحديد مضاربها، ووصف ثقافاتها وأنماط معيشتها وما إلى ذلك، فضلا عن كون هيرودوت لم يزر البلاد، ولم يتعرف على طبيعتها وأهلها وحواضرها، واكتفى بما رواه له الإخباريون الذين زاروا ليبيا، أو ربما اتصل ببعض الليبيين فأجابوه عن تساؤلاته التي كان يستهدف من ورائها جمع معلومات هي اثنوغرافية الطابع أكثر منها تاريخية المنهج.

أما جوستين، صاحب قصة عليسيا وجلد الثور، فقد ترك لنا بعض الأخبار عن مدن ليبية أو نوميدية كانت مزدهرة وحصينة وكثيرة السكان خلال القرن الرابع قبل الميلاد، ولكنه لم يفصل الحديث في هوية تلك المدن ومواقعها وأسمائها لأنه ربما نقل أخبارها من مصادر إغريقية قديمة تتعلق بذلك الزمن عندما كان الصراع على أشده بين إغريق صقيلية والقرطاجيين، وهكذا اتصفت أخبار جوستين بالعرضية التي طبعت كتب المؤرخين القدماء من إغريق أو لاتين حول تاريخ كرطا وجميع بلاد المغرب وحتى صالوستيوس الذي خصص كتابا لحرب يوغرطة، يعد المصدر الأول والوحيد لتلك الأحداث، فإنه لم يركز على وصف المدن النوميدية ولم يهتم بأنشطتها إلا عرضا، إذ لا نجد ذكرا لمدينة كرطا وهي عاصمة

نوميديا وقلبها النابض. إلا في بعض الأماكن من كتابه حينما يتعلق الأمر بذكر حصار ضرب عليها أو مجزرة رهيبة تعرض لها سكانها أو تحديد موقع معركة جرت بالقرب منها.

والأمر السائد بين المهتمين بتاريخ كرطا هو أن هذه الحاضرة كانت موجودة قبل القرن الثالث، غير أنه إلى الآن لم تتوفر لدينا الوثائق الأثرية المؤدية لهذا الإفتراض، على أنه رغم هذا الغموض الذي يسود تاريخ كرطا في العهد النوميدي فإنه يمكن تتبع أهم مراحل هذا التاريخ بصفة إجمالية من خلال إشارات النصوص القديمة والوثائق الأثرية المكتشفة حديثا.

1 - مرحلة ما قبل توحيد نوميديا على يد مسينيسا

إن ما لدينا من معلومات حول هذه المرحلة الغابرة لا يفي بالغرض، فكرطا خلال هذه الفترة لا تزال مجهولة في مجملها، ومع أن المدينة كانت محل صراع بين قبائل الماسيل الشرقيين وقبائل المازيسيل الغربيين، وهو ما برز في ذلك الإقتتال العنيف بين سيفاكس ومسينيسا اللذين وقفا على طرفي نقيض في الصراع القائم بين القرطاجيين والرومان آنذاك، فإن زادنا من المعلومات التاريخية عن وضعية كرطا في ذلك الظرف الحالك لا يساعدنا على رسم صورة واضحة عن المدينة المتنازع عليها. فنحن لا نعرف فيما إذا كانت كرطا عاصمة للملك غيّة والد مسينيسا، وأن سيفاكس قد احتلها بعد وفاة غيّة، أم أنها كانت لسيفاكس أيام غيّة؟

جاء عند كل من بوليبيوس وليفيوس أن مدينة كرطا كانت هدفا ومطمحا للأمير مسينيسا عندما عاد من إسبانيا مطالبا بخلافة والده غيّة عام 206 ق.م.

ولقد امتنعت كرطا عن مسينيسا، ولم يتمكن من اقتحامها رغم وجود المؤيدين له بها.

2 - كرطا عاصمة نوميديا الموحدة

لما تمكن مسينيسا من هزم خصمه سيفاكس وأسره في معركة حاسمة دارت رحاها في شهر جوان من سنة 203 ق.م ودخل مدينة كرطا منتصرا، اتخذ منها عاصمة لملكته الكبرى، وأهمل أمر سيغا (على وادي تافنة) التي كانت عاصمة سيفاكس الثانية، مع أنه احتل جميع أراضي نوميديا الغربية حتى وادي الملوية غربا. ولقد تراجعت أهمية سيغا بعد سقوط سيفاكس وطواها النسيان، وأهمل ذكرها الإخباريون القدامى، في حين تواصل نجم كرطا في الصعود، وحظيت بمكانة مرموقة لدى الملك الشاب مسينيسا، فأقام بها ولم يفضل عنها مدينة أخرى إلى أن توفي عام 148ق.م.

لقد كانت المدينة العتيقة على الربوة المحاطة بوادي الرمل، لكن تواصل العمران بهذه الربوة حال دون الكشف عن أي أثر للمدينة القديمة (في العهد الملكي).

لقد اتفقت النصوص القديمة لليفيوس وبوليبيوس وابيانوس وزوناراص وميلا حول حيوية كرطا بالنسبة للملك سيفاكس الذي يبدو أنه كان يقيم بها، حيث تذكر هذه النصوص قصرا له بالمدينة.

إنّ أهم وثائق كرطا الأثرية تعود إلى خلفاء مسينيسا. وبخصوص هذا الملك تذكر النصوص قصرا شيده في كرطا كان فسيح الأرجاء جميل المنظر، متعدد القاعات، ولسوء الحظ أن الوثائق الأثرية المتوفرة لدينا لا يوجد فيها ما يدل على هذا القصر، ما عدا رسم على قطعة نقد قديمة تعود إلى عهود يوبا الأول يمثل واجهة قصر جميل.

ويذكر القدامى أن مسينيسا كان يجلس في إحدى قاعات قصره الفسيح مصغيا إلى معزوفات الموسيقيين الإغريق الذين كانوا يؤمون قصره لشغفه بموسيقاهم وكان يتناول طعامه على موائد فاخرة مجهزة بأطباق من الذهب

والفضة. لكن موقع هذا القصر لا يزال مجهولا، ويظهر أنه كان بقصبة المدينة التي كانت تشكل أكروبولا مماثلا لاكروبول مدينة أثينا، ويرجع السبب في اندثار معالم هذا القصر التاريخي الذي أصبح أسطوريا إلى التوضعات الطبقية التي أحدثها العمران المتواصل للمدينة والذي لا يزال في اتساع حتى اليوم.

ولا شك أن القصر الملكي بكرطا كان في مستوى عظمة ملوكها حتى أن بعض الباحثين راح يتفحص خرائب ضريح الخروب المنسوب لمسينيسا علّه يعثر فيه على ملامح صورة هذا القصر المفقود.

ورأى البعض الآخر في الرسم الذي على ظهر قطعة نقد نوميدية قديمة صورة طبق الأصل للواجهة الأمامية لذلك القصر، فهي تمثل واجهة مبنى فخم تتقدمه أعمدة جميلة من طراز يوناني، يتوسطها مدخل في شكل قوس كبير يحيط مدخلين صغيرين ينحصران بين الأعمدة. وعلى الواجهة العليا أبراج تبدو وكأنها مرابض حراس القصر.

ولقد استفادت كرطا من علاقات الصداقة التي كانت تربط مسينيسا بالإغريق (اليونان)، حيث انفتحت أبوابها لأرباب الفن والثقافة والتجارة اليونان، وقد بالغ مسينيسا وخلفاؤه في تقريب العنصر الإغريقي من القصر واستخدامه في مجالات البناء والتعمير. وربما جاز لنا القول بوجود مدارس إغريقية بكرطا، خاصة إذا علمنا أن أبناء مسينيسا كانوا يجيدون اللغة الإغريقية إلى جانب البونية والليبية، حيث تضلع ابنه مستنبعل والد يوغرطة في العلوم الإغريقية حسب شهادة المؤرخ بوليبيوس الذي كان يعرفه شخصيا بحكم صداقته لوالده مسينيسا.

ويعود هذا الإنفتاح النوميدي على الحضارة الإغريقية إلى ما كان يربط مسينيسا بمشاهير الإغريق من أواصر الصداقة المبنية على المصالح المتبادلة، حيث كانت المدن الإغريقية مثل ديلوس وأثينا تستورد منتوجات فلاحية نوميدية في مقدمتها القمح. ولقد أقام أهل تلك المدن تماثيل تذكارية لمسينيسا الصديق الحميم

رمزا لعرفانهم بجميله ومودته، كما كان مسينيسا يرسل الهدايا الثمينة إلى أعيانهم.

ويرجع الباحثون العنصر الإغريقي في كرطا إلى عهد مسينيسا. وقد تزايد عددهم إلى درجة أنهم أصبحوا يشكلون مجموعة كبرى بالمدينة حتى أن استرابون قال بأنهم كانوا يشكلون مستعمرة إغريقية في قلب كرطا، ومع ذلك فقد ظل هؤلاء الإغريق يكونون نسبة ضئيلة بالمقارنة مع عدد سكان المدينة النوميديين. ثم أنهم اندمجوا في مجتمع كرطا اندماجا معنويا، ويبدو أنهم قدموا إليها بكيفية تدريجية ولم يأتوها في صورة نزوح استيطاني كما هو الشأن في جهات أخرى. ومن ثم لا يمكن أن نعتقد في أنهم كانوا يشكلون مجموعة مستقلة، خاصة إذا علمنا أنهم مارسوا العبادة المحلية الليبية الفينيقية وكتبوا نذورهم وشواهد قبورهم بالإغريقية.

وفي عهد مكيبسا (مسيبسا) عرفت كرطا تطورا كبيرا، وتشبعت بالحضارة الإغريقية أكثر من السابق، إلى درجة أن بعضهم وصفها بالإنغماس في الثقافة الهلينستية لكنها ظلت بونيقية اللغة، وقد تزاوجت في عمارتها ومبانيها الدينية والجنائزية الأساليب البونيقية الأصيلة والإغريقية الحديثة، فجاءت تلك العمارة صورة فريدة من نوعها في تاريخ العمارة الإنسانية، ولدينا في ضريحي دوقة والخروب أوضح مثل على هذا التزاوج كما عرفت العمارة الجنائزية تزاوجا آخر بين أصول معمارية ليبية محلية وأساليب جمالية إغريقية، وهو ما نراه في كل من ضريح مادغوس المدراسن (قرب باتنة) وضريح تيبازة (قرب العاصمة) وهما يعاصران فترة ازدهار كرطا بلا ريب، حيث يتأرجح تاريخ هذين المعلمين بين القرن الثالث والثاني قبل ميلاد عيسى عليه السلام.

وإذا عجز علم الآثار عن تحقيق شيء مهم ومرغوب في كرطا الملكية فإنه قد كشف لنا عن موجودات أثرية هامة في خرائب جارتها ومعاصرتها، تديس، يمكن

اعتمادها في التعرف على بعض الجوانب الخفية من تاريخ هذه المدينة القديم. وأهم مكتشفات تديس حوالي عشرة آلاف قطعة نقدية قديمة من بينها عدد كبير يحمل اسم المدينة كرطا، ويرجع إلى عدة عهود. بالإضافة إلى الفخار الليبي الأصيل، وقد أمكن التعرف على بعض الجوانب التاريخية لكرطا من خلال مكتشفات تديس.

هذا وقد اتخذ مكيبسا من كرطا عاصمة مفضلة قدوة بوالده، فلم يبغ عنها بديلا رغم توفر الحواضر في عهده مثل مدن دوقة وبيلاريجيا وزاما وهيبوريجيوس (عنابة)، فضلا عن الحواضر الفينيقية الأصل القائمة على السواحل والتي أصبحت تابعة للمملكة النوميدية منذ الحرب البونية الثانية (201 ق.م).

وعند وفاة مكيبسا عام 118 ق.م واصل خلفاؤه الثلاثة: يوغرطة ويمسال وأذربعل الإقامة بكرطا رغم تقاسهم أمور المملكة ثم ترابها.

لكن مدينة كرطا قد شهدت في عهد هؤلاء محنة كبرى، إذ بعد أن عاشت فترة استقرار وازدهار دامت ما يقرب التسعين (90) عاما (203-116) ق.م احتدم حولها النزاع بين كل من أذربعل ويوغرطة بعد مقتل يمسال في ظروف غامضة. وقد زاد تدخل الرومان في النزاع من هول الخطب، وتلقت كرطا من جراء هذا التدخل ضربات قاصمة.

وكان لانحياز الإيطاليين المقيمين بالمدينة إلى جانب أذربعل وتنظيمهم للمقاومة في المدينة ضد يوغرطة أثره البالغ في توتر أعصاب يوغرطة فحاصر المدينة وتشدد في إحكام الحصار إلى أن سقطت في يده ونال منها كثيرا فأعمل السيف في رقاب كل من كان يحمل سلاحا بها من الإيطاليين أو النوميديين الموالين لخصمه أذربعل.

وحسب صالوستيوس فإن كرطا كانت محصنة تحيط بها الأسوار ويصعب اختراقها، لأن يوغرطة اضطر أثناء هجومه على المدينة إلى استعمال مختلف

وسائل الحصار والإقتحام التي كان يعرفها بحكم خبرته الطويلة في الحرب حيث حارب إلى جانب الرومان في حربهم ضد نومانسيا بإسبانيا.

ويذكر صالوستيوس أن يوغرطة أقام حول المدينة أسوارا وأبراجا وخنادقا كي يمنع أي تسلل من والي المدينة. وظل كذلك ما يقرب من ستة أشهر حتى سقطت كرطا في يده وقتل خصمه أذربعل (عام 112 ق.م).

وقد استغل صالوستيوس الفرصة كي ينوه بشجاعة ونخوة الإيطاليين في الدفاع عن الشرف الروماني على حد تعبيره، ولقد كان لإقتحام يوغرطة هذا الأثر البالغ على الرأي العام في روما حيث استغله دعاة الحرب وأعداء يوغرطة في إقناع مجلس الشيوخ بضرورة إعلان الحرب على نوميديا، فتم لهم ذلك.

وخلال هذه الحرب التي وصلتنا أحداثها كما صاغها صالوستيوس، تواصلت مصائب مدينة كرطا لأنها اعتبرت بالنسبة للطرفين المتحاربين موقعا استراتيجيا هاما فتوالت أعمال الحصار على المدينة، وتتابع سقوطها بالتداول تارة تقتحمها جيوش الرومان وتارة يحررها يوغرطة ويعتصم بها. ولقد نقل لنا صالوستيوس نتفا من تلك الأحداث جاء فيها على الخصوص: «إن القائد الروماني ميتولوس استطاع أن يحتل كرطا عام (108) ويتخذ منها مقرا لقيادته العسكرية في نوميديا بعد أن هزم خصمه يوغرطة في ثاله مما اضطر هذا للإلتجاء إلى قبائل الجيتول في الجنوب النوميدي وإلى الملك الموريطاني بوكوس ليمدوه يد العون. وقد هاجم يوغرطة بمعية بوكوس مدينة كرطا مرة أخرى، وكان ميتولوس يحتفظ فيها بغنائمه وأسراه، ولقد تملك ميتولوس الخوف من حصار يوغرطة فخرج من المدينة وعسكر بعيدا منها قصد مواجهة يوغرطة في معركة نظامية لا قبل له بها، لأنه كان يعلم أن يوغرطة يتجنب هذه الحرب الميدانية لعدم توفره على وسائلها».

وقد أثرت حرب العصابات التي فرضها يوغرطة على ميتولوس وعلى خلفه ماريوس فأجبرت هذا الأخير على الفرار والإعتصام بكرطا عدة مرات.

وتذكر مصادر أخرى أهمها كتب ديو كاسيوس وأبيانوس وديودور الصقلي، أن مدينة كرطا كانت نقطة تطاحن بين ماريوس ويوغرطة، فعندما يعتصم بها أحدهما يضطر الثاني إلى محاصرته أياما وليالي حتى يخرجه منها مكرها، ناجيا بنفسه، وإن أهم المعارك في حروب يوغرطة قد دارت بين ماريوس ويوغرطة في كرطا أو بالقرب منها. إلى أن كانت أحبولة القبض على يوغرطة من طرف القائد سولا مساعد القنصل ماريوس بتواطؤ من بوكوس في أواخر عام 105 ق.م، حيث اقتيد في القفص إلى سجن روما ومات فيه جوعا وعطشا.

وبعد إخضاع روما لنوميديا، اكتفوا بإجراء ترتيبات سياسية فيها، مكنتهم من مواصلة سيطرتهم غير المباشرة على البلاد، ومنحوا جزءا من تراب المملكة إلى بوكوس جزاء الحث على الخير (كما يقول جوليان). أما كرطا فقد انفتحت أمام التوافد الإيطالي، وكثر بها ممثلو التجارة الرومانية، بصورة أكثر مما كانت قبل الحرب، خاصة وأن الرومان توجوا على عرش المملكة النوميدية شخصا ضعيفا الإرادة هو غودا أخ يوغرطة، فلم يمانع في أي إجراء روماني بالمملكة، ولم يكترث لأمر التجار الرومان الذين تحكموا في عصب التجارة الخارجية، وربما احتكروا التجارة الداخلية أيضا. غير أنه منذ أحداث يوغرطة انصرف اهتمام الكتاب عن أخبار كرطا وبقية البلاد النوميدية، فأحاطها صمت تعذر معه أن نعرف شيئا مذكورا عنها طيلة نصف قرن من الزمن وبالتحديد حتى نشوب الحرب المدنية بين حزب قيصر وحزب بومبي عام 49 ق.م، حيث انضم الملك يوبا الأول إلى أتباع بومبي، ويبدو أن يوبا الأول كان يفضل الإقامة في زاما بدلا من مدينة كرطا التي كانت مقرا لأحد عماله وهو مسينيسا الثاني. وكان نصيب كرطا من تلك الحرب التي رمى يوبا الأول بإمكانيات ومصير المملكة في رهانها، أن تعرضت لهجومات كاسحة من طرف فرقة من المرتزقة الإيطاليين تحت قيادة المغامر سيتيوس، الذي وضع نفسه في خدمة قيصر مقابل منحه ومرتزقته أرضا في نوميديا يقيمون فيها إمارة.

وقد كان هذا المرتزق مقيما بمعية أتباعه الذين هم من جنسيات مختلفة. في إسبانيا، ثم في موريطانيا يؤجرون أنفسهم للأمراء والملوك المتنازعين على الحكم، وكانت الحرب الأهلية الرومانية في إفريقيا فرصة لهم لتحقيق أحلامهم في الإستقرار بأرض نوميديا خاصة وأن قيصر كان يبحث عن أحلاف له في موريطانيا كي يستخدمهم في ضرب يوبا الأول من الخلف، كما تحركت أطماع ملك موريطانيا بوكوس الثاني في نوميديا، فانتهز رغبة قيصر هذه واتفق معه على مهاجمة مملكة يوبا الأول لإرغامه على التراجع في وجه قيصر. وتعاون كل من مرتزقة سيتيوس وبوكوس على القيام بهذه المهمة، واستهدفوا مدينة كرطا وعددا من المدن الأخرى. فسقطت بين أيدي مرتزقة سيتيوس قبل أن يدركها يوبا الذي فوجئ بهذا الهجوم، فخسر الحرب ضد قيصر وخسر معها المملكة، ولم يجد تصرفا أليق بالرجال من الإنتحار بضواحي عاصمته الثانية (زاما)، وكان ذلك عام 46 ق.م. وأجزل قيصر العطاء لحلفائه بوكوس ومرتزقة سيتيوس، فمنح بوكوس الجزء الغربي من تراب نوميديا، وترك مدينة كرطا بيد سيتيوس ومرتزقته مع الأراضي المحيطة بها. ثم واصل هؤلاء المرتزقة هجوماتهم على المدن النوميدية فاحتلوا منها شولو (القل)، وروسيكادا (سكيكدة) ومليف (ميلة)، وكونوا من المدن الأربعة إمارة أطلق عليها غزيل (Gsell) اسم «جمهورية السيتيان». وهكذا دخلت كرطا عهدا جديدا، عهد الإحتلال الروماني الذي ناء بكلكله على البلاد قرابة الخمسة قرون، دون اعتبار للعهدين الوندالي والبيزنطي.

مكانة كرطا الإقتصادية في المملكة

بلغت كرطا منزلة مرموقة في العهد النوميدي، وهو ما أجمعت عليه نصوص الأقدمين، حيث نعتها بومبونيوس ميلا مثلا بالمدينة الجميلة الرائعة الغنيّة والمتوفرة على جميع الأشياء، ووصفها قيصر في كتابه (الحرب الإفريقية) بالمدينة الثرية

ذات الرخاء الكبير. ونوه استرابون الجغرافي الإغريقي قبلهم بإمكانيات كرطا الإقتصادية والعسكرية قائلا بأنها كانت في عهد الملك مكيبسا قادرة على تقديم عشرة آلاف فارس وضعف عددهم من المشاة، وأنها كانت ذات رخاء لا يضاهى. ولقد اعتمد المؤرخ الفرنسي ستيفان غزيل على مثل هذه المعلومات فقدر عدد سكان المدينة كرطا آنذاك بما بين 150 و180 ألف نسمة وهو عدد هائل بالنسبة لذلك العصر.

ولقد أراد مسينيسا لهذه المدينة أن تكون في مستوى مدينة قرطاجة التي كانت تمثل في نظره رمزا للدولة القوية مصدر الأذى والعدوان، ومن ثم عمل على إضعاف القرطاجيين ومحاصرتهم تجاريا، إذ احتكر تجارة إفريقيا وحول طرقها عبر المدن النوميدية، كما أخرج التجارة النوميدية من الإحتكار القرطاجي، وأصبح التجار الأجانب يتعاملون مع المملكة النوميدية بصفة مباشرة دون وسيط خارجي. فاستفادت المدن وخاصة كرطا من هذه التحولات وراجت بضاعتها في أسواق المدن المتوسطية.

ولقد هيأ موقع كرطا السبيل أمام التجار الأجانب وأصحاب الحرف من مختلف الجنسيات للإقامة بها دون خوف نظرا لمناعتها. ودلت الإكتشافات الأثرية على تعايش هذه العناصر الأجنبية منذ زمن بعيد بالمدينة، ولعل أفضل الروابط التي جمعت تلك العناصر المتابعة هي المصلحة الإقتصادية التي كان لكل عنصر فيها نصيب. ولقد اتصف سكان كرطا من النوميديين بالتسامح إزاء العناصر الأجنبية النافعة، فأظهروا تخلصهم من عقدة العرقية والعصبية الرعناء المنافية للتفتح، ودلت الإكتشافات الأثرية على أن كرطا كانت تستورد حاجاتها من البضائع الأجنبية كما كانت تصدر الفائض من منتوجاتها نحو الأسواق الخارجية، ومن المستوردات مثلا المصنوعات الفنية والتحف وأدوات الزينة والأسلحة، أما الصادرات فكانت ممثلة في القمح الذي طوت شهرته الآفاق،

والصوف والجلود، والخيول النوميدية الشهيرة، والأخشاب الثمينة مثل العفص والرخام النوميدي الفائق الشهرة، والحيوانات المفترسة والعاج، وما إلى ذلك من المنتوجات الطبيعية التي كانت تتكدس في أسواق المدن الرئيسية في انتظار شحنها نحو الأسواق الخارجية وهو ما تطلب وجود تجار أجانب أو ممثلو التجار والوسطاء والمضاربين لإبرام الصفقات وإعداد البضاعة والإشراف على تصديرها.

وكما وجدت آثار لبضائع أجنبية بكرطا وغيرها من المدن النوميدية، وجدت آثار نوميدية في بلدان متوسطية أيضا أهمها النقود الذي عثر على الكثير منها في جنوب فرنسا وإسبانيا، وتعود إلى أوائل القرن الأول قبل الميلاد، بل عثر من بينها على قطع تحمل رسم مسينيسا، وهو ما يؤكد قدمها.

غير أن هذا الرخاء الذي عاشته مدينة كرطا في العهد النوميدي والذي بلغ أقصاه في أخريات هذا العهد قد حرك رغبة الرومان في الإستئثار بالمدينة، فحاول التجار الإيطاليون الإعتصام بها في وجه يوغرطة عام 112 ق.م وفشلوا، لكن مرتزقة سيتيوس قد مكنهم قيصر من تحقيق المطمع الروماني في كرطا عام 46 ق.م، حيث سقطت كرطا بأيديهم فأفل نجمها اللامع وهوت سمعتها الإقتصادية العالمية، وسقطت من علياء الحرية والسيادة إلى قبضة العبودة والإستغلال الروماني الذي لم يكن يعرف حدودا.

4 - حاضرة كلاما (قالمة) (Calama)

الموقع وإشكالية التسمية

تتربع مدينة قالمة الحالية على أنقاض مدينة (كلاما) القديمة بهضبة صغيرة هي امتداد للسفح الشمالي الشرقي من جبل ماونة بجوار نهر السيبوس وفي مكان يصل ارتفاعه إلى 270 متر من مستوى سطح البحر. يمتد بجوار المدينة سهل خصيب جميل مشكلا ضفاف السيبيوس، وهو عصب قالمة الإقتصادي.

عند وصول الفرنسيين يوم 7 سبتمبر 1836م إلى هذا الموقع كانت أرضية قالمة مغطاة بالآثار القديمة فشرعوا في بناء قلعة تحصنوا بها على أنقاض القلعة البيزنطية، ولا تزال بعض أسوار القلعة الفرنسية قائمة إلى اليوم.

إنّ غياب اسم المدينة (كلاما) في النصوص والخرائط القديمة بدءا من بلينوس القديم إلى بطليموس فتح الباب لاجتهادات المؤرخين، خاصة وأن اسم (كلاما) ليس مشتقا من ألفاظ لاتينية ولا معنى له في هذه اللغة. ثم أن النقوش البونية المعثور عليها في عين المكان احتوى كثير منها على لفظ (ملكا Malca) في مقاطع نذرية أو جنائزية. كل هذا حمل بعضهم على القول بأنّ (كلاما Calama) هي قلب من طرف اللاتينيين للفظ (ملكا) البوني أو الفنيقي. وقد نشر الطبيب جوداس (Judas) المهتم بالدراسات الفنيقية عدة نقوش تحمل لفظ (ملكا) معتبرا أنّ (كلاما) هو (ملكا) مقلوب عند اللاتينيين. وعنده أن لفظ (ملكا) يعني الملكية "Royale" على

عثرنا أثناء التحريات الميدانية على عدد من النقائش البونية في جنوب غرب وشمال شرق مدينة قالمة وسوف يتم نشرها بعد دراستها مستقبلا.

قرار هيبون ريجيوس (الملكية) باللاتينية، أي حسبه أنّ هذه المدينة كانت تقلب بالملكية. وقد ذهب هذا المذهب عدد من الباحثين منهم ريبو (Reboud). بينما شكك في صحة هذه الفرضية غيره أمثال غزيل (Gsell) الذي اعتبر الأدلة غير كافية على ذلك ولم يحاول مناقشة الموضوع لغياب المعطيات التوثيقية الكافية. وهكذا ظلت التسمية (كلاما–ملكا) لغزا محيرا إلى الآن. ونقول نحن بأنه لا جدوى من الإفراط في عرض الفرضيات والإحتمالات حوله في غياب الأدلة الموضوعية.

إكتشاف كلاما (قالمة)

ظلت خرائب غير معروفة إلى أواسط القرن الماضي، حيث كان يخلط بعضهم بين مدينة سوتول (Suthul) (المجهولة الموقع حاليا) وهي المدينة المذكورة عند سالوستيوس وبين خرائب قالمة (كلاما). من ذلك أن دورو دي لامال (Dureau de la Malle) ذكر في تقريره الذي رفعه إلى الأكاديمية الفرنسية عام 1843م أن «قالمة هي كلاما هي سوتول»: "Guelma sive calama suthul".

قام الضابط الفرنسي دوفيفي (Du vivier) مباشرة بعد احتلال قالمة برفع أثري لبقايا كلاما القديمة ورسم خريطة لها قبل أن ينالها العمران الفرنسي الحديث. ولقد واصل دورو دي لامال العمل في هذا المجال، حيث قام برفع أثري وهندسي (معماري) للمعالم الباقية كالأسوار والبوابات والحمامات والمسرح والقطع الهندسية المتناثرة والنقوش والزخارف والنقائش الكتابية والتماثيل والخزفيات وما إلى ذلك.

وفي عام 1844 دون قريلوا (Grellois)، وكان طبيبا بالمستشفى العسكري، معلومات ثمينة عن الآثار المتبقية في قالمة بصفة أكثر دقة وشمولية مقتديا في ذلك بجوداس Judas. فكان كتابه الذي قدمه إلى أكاديمية ميتز (Académie de Metz) عام 1851م أكمل الأعمال الأثرية فهو بمثابة النص الوصفي لأعمال دورو دي لامال الفنية المتمثلة في الرسوم والأشكال. ولم تجر حفريات منتظمة بموقع المدينة القديمة (كلاما) التي طغى عليها العمران الحديث بسرعة فطمس جل معالمها.

كلاما قبل الإحتلال الروماني

يتضح من الشواهد الأثرية العائدة إلى الفترة البونية-النوميدية أن كلاما (ملكا) كانت مركزا حضريا هاما في عمق الإقليم النوميدي، وأنها احتضنت مجتمعا خليطا مكونا من عناصر فينيقية ونوميدية، وأن معبوداتهم كان يغلب عليها الطابع السامي (الفنيقي-الكنعاني) بدليل الأسماء. ويظهر أن هذه الثقافة ببعديها المادي والمعنوي قد تأصلت في المدينة على مدى أجيال بحيث تعذر على الأجيال اللاحقة في العهد الروماني التخلي عنها، وهو ما يشهد به تواصل العمل بالأنظمة البونية في مجال الإدارة والإقتصاد والمجتمع. لقد وثقت نقائش لاتينية تعود إلى القرنين الأول والثاني استمرار العمل بهيئة الشفاط على رأس المدينة وبأسماء بونية وليبية. وأكد أوغسطين أسقف عنابة (هيبون) فيما بعد (القرن الخامس) في رسائلهِ الجدلية أن القوم كانوا لا يزالون يستعملون اللغة البونية دون اللاتينية وحتى بعض رجال الدين المسيحيين من أتباعه كانوا يمارسون شعائرهم ويلقون خطبهم الواعظة باللغة البونية أو الليبية، وأنه (أي أوغسطين) كان يصعب عليه إفهام جمهور المسيحيين في إقليم قالمة (كلاما) وما جاوره ما يريد إبلاغهم من مواعظ باللغة اللاتينية، فكان يصحب معه إليهم تراجمة يفهمونهم مقاصده.

لقد عثر ولا يزال العثور متواصلا على عدد كبير من النقائش البونية في قالمة وضواحيها وجرت دراسة ما اكتشف باكرا على يد كل من جوداس (Judas) وفيديرب (Faidherb) وغيرهما. وكذلك الأمر بالنسبة للنقوش الليبية-النوميدية التي تعد منطقة قالمة أهم موطن لها، وهو ما دعا بعض الباحثين إلى الاعتقاد في تعايش لغوي ثلاثي (بوني، ليبي، لاتيني) مارسه أهل منطقة قالمة (كلاما) إلى زمن متأخر من العهد الروماني.

من الوثائق المجسدة لتواصل التأثير البوني إلى القرن الثاني الميلادي تلك النقيشة اللاتينية التي تحمل أسماء شفاط ثلاثة على رأس الهيئة الحاكمة في كلاما. جاء في تلك النقيشة:

«الشفاط أشمون بن متهمبعل وأورباني بن أوشوسوري والأمير بودنت بن أوشوسوري...»

"Suffetatus Asmunis Mutthmbalis filii et aurbani Auchusoris filii principatu pudentis Auchusori filii".

فالسلطة الثلاثية هنا على النمط البوني (قاضيان وأمير) وطريقة كتابة الأسماء السامية بإضافة تعريفات تقتضيها اللغة اللاتينية في أواخر الأسماء للأعراب.

كلاما في العهد الروماني

سقطت كلاما كغيرها من المدن النوميدية عام 46 ق.م بأيدي الجيش الروماني التابع لقيصر بعد انتصاره على الملك النوميدي يوبا الأول وحلفائه من أتباع بومبي خصم قيصر. حيث كانت تلك الأحداث سببا في نهاية (سقوط) مملكة نوميديا التي أمر قيصر بتجزئة أراضيها إلى ثلاثة أجزاء: القسم الغربي الممتد إلى الغرب من مدينة كرطا (Cirta = قسنطينة) منحه قيصر إلى حليفه بوكوس الثاني ملك المور. والجزء الشمالي الواقع إلى الشمال من كرطا وكان يضم مدن: كرطا – روسيكاد (سكيكدة) – شولو (القل) – ميليف (Meliv) كافأ به قيصر مرتزقة سيتيوس (Sittius) الذين أنجدوه في حروبه الإفريقية ومكنوه من هزم يوبا الأول. أما الجزء الثالث فكان يضم بقية الأراضي الواقعة إلى الشرق من كرطا بما فيها مدينة كلاما، وقد أنشأ فيه قيصر مقاطعة رومانية جديدة دعاها: أفريكا نوفا (Africa Nova) أي إفريقيا الجديدة تمييزا لها عن مقاطعة إفريقيا الرومانية المؤسسة عام 146 ق.م والتي أصبحت تدعى أفريكا فيتوس (Africa Vitus)، أي افريقيا القديمة.

أبقى الرومان على نوع من الإستقلالية في تسيير شؤون المدن النوميدية مثل كلاما على الطريقة المعهودة في العهد البوني–النوميدي. ولم ينشئ قيصر بمدينة كلاما مستوطنة لبعض جنوده المسرحين بعد الحرب كما فعل في مناطق أخرى

بتراب المقاطعة الإفريقية مع أن كلاما كانت أراضيها صالحة لمثل هذه الأعمال الإستيطانية. لكن يظهر أن ذلك كان صعبا على الرومان بسبب حالة المقاومة التي دأب عليها النوميديون في هاته المنطقة الجبلية الصعبة التي وصفت بألب نوميديا.

في عهد الإمبراطور هدريانوس منحت كلاما مرتبة البلدة (Municipium)، وهو ما وثقته عدة نقائش لاتينية، وذلك عندما تكاثر عدد المدنيين الرومان بها وارتفع مستوى المتأثرين فيها بالحضارة الرومانية. وظلت كلاما بلدة في العهود اللاحقة بما في ذلك عهد الأباطرة السيفيريين المعروفين بتشجيعهم لمظاهر الرومنة في شمال إفريقيا، فضلا عن أن كلاما عرفت نهضة عمرانية في ذلك العهد وقامت فيها منشآت باسم الأسرة السيفيرية.

في عام 283م، أي في الفترة المعروفة بعهد الفوضى العسكري منحت كلاما حق المستعمرة الرومانية وهي أعلى مراتب المدن المرومنة، بحيث يكون سكانها في منزلة المواطنين الرومان ويظهر أن أهم المنشآت المعمارية كأقواس النصر والحمامات الكبرى والمسرح قد توفرت فيها قبل ذلك لكونها من بين الهياكل الأساسية للمدينة البلدة المرشحة لمرتبة المستعمرة.

عرفت كلاما كغيرها من المدن النوميدية حركة التنصير منذ القرن الثاني عندما كانت لا تزال في مرحلة السرية. وقد ورد ذكر كلاما في أدبيات الكنيسة الإفريقية منذ عام 305م بمناسبة انعقاد اجتماع أساقفة نوميديا بمدينة كرطا الذي حضره أسقف مدينة كلاما وكان يدعى دوناتوس، وقد جرى حوار بينه وبين رئيس المجلس حول طبيعة الكتب المقدسة. ويظهر أنّ الجدل المذهبي بدأ منذ ذلك الوقت ينحو نحو الإنشقاق بتمحوره حول اتجاهين: الدوناتية والكاتوليكية. وكانت كلاما إحدى معاقل النحلة الدوناتية المناهضة للسلطة الرومانية وحلفائها الكاتوليك.

ورد في وثائق الكنيسة الإفريقية أيضا أن أسقف كلاما كان مقدم الأساقفة بمدينة هيبون عام 394، وكان دوناتيا.

ولما اشتد النزاع بين الطرفين كانت كلاما إحدى حصون الثورة والتمرد على الكنيسة الرسمية والسلطة الإمبراطورية. وقد سيطر على المدينة جماعات

المتمردين الريفيين الذين نعتهم أوغسطين بالداورين، وهم ثوار ريفيون في تقديرنا. وقد ضج منهم هذا الأسقف واستنجد بالسلطة البلدية ضدهم. ويذكر في إحدى رسائله أنهم عاثوا في الكنائس الكاتوليكية التابعة له في كلاما وإقليمها قائلا بأنهم أشاعوا الوثنية وأذلوا الأساقفة من أتباعه في كلاما وضواحيها.

وفي عام 411م انعقدت محاكمة الدوناتيين وأتباعهم «الدوارين» بقرطاجة بأمر من الإمبراطور هونوريوس الذي كلف الحاكم (الكومت) مركيليانوس بإدارة المحاكمة. وقد كلف هذا الحاكم هيئة من أساقفة كلاما على رأسهم بوسيديوس (Possidius) بالمرافعة (المجادلة) ضد خصومهم الدوناتيين من أجل إقامة الحجة عليهم دينيا كي يتسنى له محاكمتهم وتجريمهم ثم معاقبتهم. لم يغفر الدوناتيون لبوسيديوس هذه الجريرة فنكلوا بأتباعه بكلاما وضواحيها، ولما اجتاح الوندال المنطقة انظموا إليهم وسيطروا على الوضع فاضطر الأسقف بوسيديوس للهرب إلى هيبون حيث حضر وفاة أستاذه أوغسطين (430/08/28م) ودوّن تاريخ حياة هذا المناضل المسيحي الكبير.

كلاما في العهدين الوندالي والبيزنطي

ليس لدينا معلومات حول كلاما في العهد الوندالي. ولكننا نلاحظ أن ضررا كبيرا لحق بعمرانها يكون سببه الصراع المذهبي وتخلي سكانها عنها، حيث ورد في بعض الروايات أنّ الناس فرت من المدن نحو الجبال فسكنت المغارات والكهوف هربا من بطش الوندال. وهي رواية مبالغ فيها كما يظهر، إلا أن الثوار المور قد استغلوا الفرصة واستعادوا سيطرتهم على الأقاليم التي احتلها الرومان منذ قرون، وأجبروا سكان المدن على الخضوع، وهدموا أسوار مدنهم، وهو عمل قام الوندال بمثله كذلك حسب رواية بروكوب.

أما العهد البيزنطي فإنه مجسد بمدينة كلاما في القلعة التي بناها القائد البيزنطي صولومون عام 539م على أنقاض المدينة وبمواد بناء هي حطام المنشآت

المعمارية الرومانية السابقة كتيجان الأعمدة وقطع أقواس النصر والقطع الرخامية الجميلة وحنايا المياه. كما اتخذت القلعة من أسوار الحمامات الكبرى مستندا لها. وهذا يدل على أنّ البيزنطيين وجدوا كلاما خرابا.

لقد عثر الفرنسيون عام 1836م على أجزاء من القلعة البيزنطية سليمة فاحتموا بها. ثم رمموها عام 1843م وأضافوا إليها وأطلقوا عليها اسم «قلعة قالمة» وظلت حاميتهم متمركزة بها إلى استعادة الإستقلال عام 1962م.

من بقايا كلاما وشواهدها الأثرية

سجل ضباط الإحتلال الفرنسي الأوائل بقالمة مجموعة من بقايا كلاما، منها ما يتعلق بالآثار المعمارية ومنها ما يتعلق بالمخلفات الأثرية المتنوعة.

من ذلك أجزاء من سور كلاما القديم العائد إلى العهد الروماني، والمسرح الذي أعيد بناؤه على الأسس الأصلية. ويوجد في الركن الشمالي الغربي من المدينة الحديثة (قالمة). وكذا أطلال الحمامات داخل القلعة وبقايا عيون عمومية وآثار معابد وأضرحة وكنائس وخزانات مياه وقنوات نقل (حنايا) المياه وبازيليكا. وأوضح المعالم المعمارية القلعة البيزنطية والحمامات هذا بالإضافة إلى الفخار والنقود والكتابات والعناصر الزخرفية الحجرية والرخامية.

وقد اكتسحت المدينة الحديثة معظم الشواهد المعمارية باستثناء المسرح والقلعة البيزنطية التي أقام الفرنسيون قلعتهم على كثير من أجزائها وكذا بقايا حمام داخل القلعة. غير أن أعمال الحفر بغرض البناء أو مد الطرق الحديثة والقنوات غالبا ما تكشف عن آثار كلاما وخاصة ما يتعلق منها بالمقابر والشواهد الجنائزية المختلفة التي يعود بعضها إلى العهد البونيقي والنوميدي.

وقد عثر عن بقايا الأبواب والطرق التي كانت تربط كلاما بالمدن المجاورة. منها طريق روسيكاد (سكيكدة) وطريق هيبون (عنابة) وطريق حمام الصالحين (أكوي تيبيليتاني) وطريق تبليس (عنونة) وغيرها من الطرق التي كانت تربط كلاما بنسيج عمراني كثيف بإقليم المدينة وخارجه.

والخلاصة أنّ تاريخ كلاما (قالمة) لا تزال شواهده مدفونة تحت بناءات المدينة الحديثة التي أقامها الفرنسيون على أنقاض المباني القديمة وبمواد بناء جاهزة التقطوها أو أسقطوها من الأطلال.

بعض المصادر والمراجع المعتمدة في موضوعات الفصل الثاني

1 - Charboneau, Constantine et ses antiques, 1857.
2 - Corpus Inscription latinarum (= C.I.L.) VIII, no 1846; 5306; 5332; 5350; 5351; 5373; 5378; 53228.
3 - Camps (G.), Aux origines de la bérbèrie, 1960.
4 - Dureau De Lamalle, Province de Constantine, 1937.
5 - Faidherb, Collection complète des inscriptions punico-libiques.
6 - Gsell (S.), Atlas archéologique de l'Algérie, 2 vol. Feuille 9, 17.
7 - Gsell (S.), Histoire ancienne de l'Afrique du Nord, Tome 5, 1927.
8 - Grellois, Mémoire de l'académie de Metz.
9 - Judas, Etudes demonstratives de la langue Phenicienne et de la langue Libyque.
10 - Leschi (L.), "Cirta", in R. Africaine, 81, 1937.
11 - Mazard (J.), Corpus...
12 - Saumagne (Ch.), La Numidie et Rome, 1968.
13 - Berthier (Ch.), La Numidie, 1974.
14 - Salluste, Guerre de Jugurtha.
15 - Reboud, "La maouna et ses contreforts", Rec. de Constantine, 1882-1883.
16 - Polybe, Histoire.
17 - Tite-live, Histoire romaine.
18 - Strabon, Géographie, XVII, ...
19 - Procope, Guerre des Vandales, II, ...
20 - Possidius, Vie d'Augustin.

الفصل الثالث

إحتلال ومقاومة

1 – كلمة حول التغيرات السياسية في حوض المتوسط أواخر الألف الأولى قبل ميلاد المسيح.

2 – أساليب الإحتلال الروماني وصور المقاومة.

3 – التوسع الروماني نحو الجنوب وآثاره الإقتصادية والاجتماعية.

4 – شبكة الطرق ودورها في تكريس الإحتلال.

1 - كلمة حول التغيرات السياسية في حوض المتوسط أواخر الألف الأولى قبل ميلاد المسيح.

إذا كان البحر الأبيض المتوسط يتبوأ اليوم أهمية خاصة بالنسبة للبلدان الملامسة له، فإن هذا المجال المائي المدعو قديما بالبحر الداخلي (Mar Interum) كان ذا حيوية متميزة بالنسبة للأمم المطلة عليه باعتباره حلقة اتصال بينها وبين البلدان المتعاملة معها. وقد بلغت أهميته عند الدول الكبرى منزلة جعلت منه جزءا لا يتجزأ من اليابسة الواقعة تحت نفوذ تلك الدول، بحيث اعتبر في عداد المناطق الخاضعة لسيادتها ومن جملة غنائمها، من ذلك أن الرومان لم يترددوا في نسبة هذا البحر إليهم فقالوا: بحرنا (Mar nostrum).

إن هذه القيمة الإعتبارية التي بلغها هذا البحر قديما وحديثا أتت من كون جميع الشعوب المتوسطية قديما قد تعاملت عبره وخاضت عبابه سعيا إلى الرزق أو رغبة في السيطرة على ما وراءه من أقاليم نافعة، فهو طريق إلى كسب القوت ومطية إلى النفوذ السياسي والإقتصادي معا.

وهكذا حفل تايخ هذا الحيز الجغرافي بأحداث تاريخية كبرى منذ أن عرف سكان جزره وشواطئه فن الملاحة والأسفار. لقد تنافس عليه التجار اليونانيون والقرطاجيون، كل يريد السيطرة عليه والإستئثار بموارده من دون الآخر، فانجر عن ذلك التنافس نزاع ما لبث أن تطور إلى حالة حرب بين الطرفين استغرقت مئآت السنين.

وكان من نتائج ذلك الصراع أن تغيرت خريطة حوض المتوسط السياسية، وظهرت دول تعاظم شأنها في خضم ذلك التطاحن كدولة روما، في حين أفل نجم أمم وإمبراطوريات أخرى من سماء المتوسط كأمم الإغريق والقرطاجيين الذين حفل تاريخ المنطقة بأخبارهم واحتفظت الأقاليم المطلة على المتوسط وجزره ببقايا حضارتهم اللامعة.

وهكذا برزت قوة روما في الربع الأخير من الألف الأولى قبل الميلاد كدولة متوسطية كبرى بعد نجاحها في السيطرة على شبه الجزيرة الإيطالية وابتلاع المستعمرات الإغريقية في كل من جنوبي إيطاليا وصقلية، ثم أنها ما لبثت أن سيطرت على الأقاليم الجنوبية لحوض المتوسط، ومنها بلاد المغرب التي كانت محتمية بقوة الإمبراطورية القرطاجية، فورثت روما عن أعدائها القرطاجيين المهزومين الضفة الجنوبية من حوض المتوسط الغربي ابتداء من عام 146 ق.م. وبذلك أزالت روما الوجود القرطاجي نهائيا من هذا الأقليم، وغدا الحوض الغربي غنيمة سياسية انتقلت إلى أيدي الرومان بعد هلاك القرطاجيين. وتابعت روما حركتها التوسعية فاستولت على بلاد الإغريق، وانكشف أمامها الشاطئ الشرقي لحوض المتوسط فبدا لها بريق الشرق الجذاب. وكان من أثر انتصاراتها الباهرة أن فكرت في السيطرة على العالم القديم بأجمعه آنذاك، وكان هذا العالم مكونا من بلدان في حوض المتوسط وامتداداته، خاصة منها بلاد الشرق (مصر وآسيا الغربية). وطفقت روما تعمل على تجسيد نيتها في توحيد هذا العالم الزاخر وجعله تحت حراب جندها إلى أن تم لها ذلك تدريجيا على أيدي قادتها الكبار أمثال بومبي ويوليوس قيصر.

وتمكنت عسكريتها القوية من إبعاد الخطر الذي كان يهدد حدود إيطاليا الشمالية بعد أن كسرت شوكة الغاليين الجبليين بمرتفعات الألب، وأثخنت في الشعوب المحاذية لحدود إمبراطوريتها المتوسطية الناشئة كالأيبيريين والليبيين

والمقدونيين والجرمانيين والفرس وغيرهم من الأمم والأقوام التي داهمها الخطر الروماني فانبرت تقاومه دفاعا عن وجودها. ولم ينقض القرن الأول قبل ميلاد عيسى عليه السلام حتى دانت منطقة حوض المتوسط بأجمعها للرومان وأكرهت شعوبها على الإذعان لسلطان روما المتعاظم.

وبذلك تغير وجه الخريطة السياسية لعالم المتوسط وتوحدت ألوانها، فاختفت دول الإغريق وامبراطورية المقدونيين من مصر وآسيا الغربية بعد أن مسح الكيان القرطاجي نهائيا من الخريطة السياسية. وانضوت مختلف الكيانات السياسية المستقلة تحت راية روما رغم إرادتها، وأصبحت حدود الرومان ممتدة من المحيط الأطلسي غربا إلى نهر الفرات شرقا، ومن نهر الدانوب شمالا إلى رمال الصحراء الكبرى جنوبا.

وكان لهذه التغيرات في الخريطة السياسية أثر على البلاد المجاورة، حيث تقلص ظل الإمبراطورية الفارسية أمام تعاظم روما واتساع امبراطوريتها، ولم يتمكن الفرس من استرجاع المناطق التي افتكها منهم الإسكندر المقدوني وخلفاؤه السلوقيون، كما سقطت مصر البطلمية لقمة دسمة في يد روما. وبذلك تحول مركز العالم القديم من الشرق الأدنى إلى إيطاليا، وغدت روما عاصمة سياسية لهذا العالم الذي تنازعت على مركز الصدارة فيه أمم وإمبراطوريات سابقة فأخفقت، وحلم بجمع زمام أمره فاتحون عظام أمثال قورش الفارسي والإسكندر المقدوني وحنبعل القرطاجي فلم يوفقوا.

2 - أساليب الإحتلال الروماني وصور المقاومة

أولا: طبيعة الإحتلال الروماني

1 - سياسة الإحتلال المحدود.

بدأ اهتمام الرومان بمنطقة المغرب منذ أن دخلوا في صراع مع الإمبراطورية القرطاجية عام 264 ق.م وهو التاريخ الذي نشبت فيه المعارك بين الطرفين في صقلية. ولم يكن الرومان يومئذ يميزون بين إقليم وآخر من الأقاليم الواقعة تحت نفوذ القرطاجيين المباشر أو غير المباشر، ومن ثم كان هدفهم الإستراتيجي إسقاط العملاق القرطاجي المنتصب أمام حركتهم التوسيعية في حوض المتوسط، دون أن يفكروا كثيرا فيما سيؤول إليه بعد ذلك أمر الأقاليم الخاضعة للدولة القرطاجية، ومنها ممالك المغرب القديم، غير أن انتصارهم الساحق على قرطاجة عام 146 ق.م جعلهم يكتشفون أنهم تسببوا في إحداث فراغ سياسي في منطقة شمال إفريقيا لا بد لهم من ملئه، فسدوا الثغرة القرطاجية مؤقتا عندما أنشأوا مقاطعة أفريكا الرمانية (Pronvincia Africa Ramana) في الإقليم القرطاجي، واتخذوا إجراءات سياسية تتعلق بالملكة النوميدية (الجزائر القديمة) المجاورة لهذه المقاطعة، تمثلت تلك الإجراءات في تعديل تحالفهم مع نوميديا كي يصبح وصاية، بحيث تتحول نوميديا من دولة مستقلة حليفة لروما إلى مملكة خاضعة لنفوذها.

وبانهيار الجدار القرطاجي انكشفت نوميديا وبقية بلاد المغرب للرومان وأصبحت في نظرهم منطقة أمنية بالنسبة لمقاطعتهم الإفريقية ومن ثم كان

اهتمامهم بأمرها يدخل في صميم سياستهم الخارجية الهادفة إلى توفير الأمن الحدودي عن طريق تحالف غير متكافئ مع الجيران، يضمن لروما الكلمة العليا في القضايا الهامة، أي أنّ مملكة نوميديا قد وجدت نفسها في دائرة الهيمنة الرومانية بوقوعها ضمن حزام الأمن الروماني، ومن ثم أضحى وقوعها تحت السيطرة الرومانية المباشرة أمرا وشيك الوقوع.

غير أن سياسة المراحل التي اتصفت بها حركة المد الروماني اقتضت من روما انتهاج أسلوب المرونة في علاقاتها بالمملكة النوميدية مما أتاح لها تمهيد المنطقة لمستقبلها الروماني المنتظر. وكان أسلوب التحالف من خصائص سياسة روما الخارجية، انتهجته مع جيرانها في إيطاليا فضمنت به كلمتها العليا على المسالمين من جيرانها الحلفاء ونصرا مؤزرا على الثائرين منهم ضدها.

لقد استغلت روما ميزات التحالف مع ملوك نوميديا أثناء حروبها الطاحنة ضد قرطاجة، بحيث كان سندا قويا لسياستها الرامية إلى عزل أعدائها القرطاجيين عن جيرانهم النوميديين بواسطة استغلالها للخلافات بين الطرفين وتنمية روح التنابذ بينهما، وهذا واضح من خلال وقائع النزاع بين قرطاجة ومملكة نوميديا – فيما بين الحربين البونيقيتين الثانية والثالثة (202-149 ق.م) ومواقف العاهل مسينيسا من النزاع بين القرطاجيين والرومان، إذ قطفت روما ثمار العداوة التي كانت مستحكمة بين مسينيسا وقرطاجة دون عناء شديد، وضمنت لنفسها منزلة الحكم الذي لا راد لرأيه في الخلافات القائمة بين نوميديا وقرطاجة آنذاك.

ولم يطرأ تغير واضح على طبيعة العلاقات التي كانت تربط نوميديا بروما بعد سقوط قرطاجة عام 146 ق.م مع أن الطرفين أصبحا متجاورين ترابيا بعد أن كان الطرف الروماني فيما وراء البحر. لكن الملاحظ أن النفوذ الروماني قد تزايد بحكم هذا الجوار، واتخذ طابع التغلغل عن طريق تقاطر العنصر البشري الروماني من رجال التجارة والإستثمار، حيث انفتحت أبواب المملكة على مصراعيها أمام التجار وأصحاب المصالح الإقتصادية من الإيطاليين، فأصبحوا يشكلون نسبة عالية في الجالية الأجنبية بالمدن النوميدية الكبرى، واستغلوا العلاقات الخاصة

التي كانت تربط نوميديا بروما فحصلوا على امتيازات كبرى في ميدان المبادلات التجارية، إذ لم يكن يعقهم عن التنقل عبر المراكز التجارية أي عائق أو يعطل نشاطهم إجراء جمركي ما، بل أن حريتهم كانت مضمونة واستقلالهم عن القوانين والأعراف المحلية كان مصانا. كل هذا أتاح لأولئك الوافدين تشكيل جالية إيطالية بالمدن النوميدية لها وزنها السياسي إلى جانب مكانتها الإقتصادية المرموقة.

إن الجوار الروماني لملكة نوميديا الحليفة قد مثل خطوة كبرى نحو التدخل المباشر في شؤونها الداخلية تمهيدا لإسقاط عرشها واحتلال أرضها. ذلك أن هذا الجوار قد مكن الرومان من متابعة تطور الأوضاع السياسية بالملكة عن كثب والمساهمة في توجيهها بما يتلاءم والمصلحة الرومانية. وقد تجلت المساهمة الرومانية في توجيه المملكة النوميدية ومراقبة تطوراتها الداخلية في قدوم القائد الروماني سكيبيون الإيميلي (Scipion Emelianus) إلى عاصمة المملكة ليحضر أو يشرف على ترتيب إجراءات استخلاف الملك الهالك مسينيسا عام 148 ق.م، كما برز تدخل روما الصريح في شؤون المملكة عقب وفاة الملك مكيبسا عام 118 ق.م، حيث أوفدت لجنة لتقسيم تراب المملكة على الورثة الثلاثة (يوغرطة –يمسال –أذربعل) بعد أن فشل هؤلاء في تسوية خلافاتهم فيما بينهم بأنفسهم. ولم يلبث هذا التدخل حتى تحول إلى عمل عسكري مارسته روما ضد يوغرطة الذي رفض الإنصياع لإرادتها منتهجا سبيل الإستقلال بالرأي والتخلص من الوصاية الرومانية، فشنت عليه جحافل الجيش الروماني حربا مدمرة دامت قرابة السبع سنوات (112-105 ق.م) إنتهت بالقضاء عليه.

واقتضت سياسة الإحتلال التدريجي التي أملتها ظروف روما الداخلية عدم استثمار النصر العسكري الذي أحرزه الجيش الروماني في حربه ضد يوغرطه، إذ كان متيسرا لروما أن تعلن نوميديا المهزومة إقليما رومانيا وتُنصّب ولاية لها فيه على نحو ما فعلت من قبل في إقليم قرطاجة عام 146 ق.م، لكن بدلا من ذلك رتبت أوضاع ما بعد الحرب بصورة ضمنت لها قوة النفوذ وزمام المبادرة بالتدخل كلما لزم الأمر صونا لمصالحها العليا في البلاد...

وهكذا أبقى الرومان على عرش المملكة قائما على جزء من ترابها إذ تم تفتيت الوطن النوميدي وتوزيعه على الأطراف التي توسمت فيها روما الإستعداد للمحافظة على نفوذها في المنطقة المغربية، ومن تلك الأطراف: بوكوس ملك موريطانيا (البلاد الواقعة خلف نهر الملوية حاليا) الذي أصبح منذئذ حليفا قويا لروما، ثم أمراء نوميديون وقفوا في صف الرومان، فيما يبدو، أثناء حروب يوغرطة. وسلمت روما جزءا ضئيلا من تراب نوميديا الفسيح إلى غودا وهو أخو يوغرطة الذي وصفه المؤرخون بضعف الشخصية وقلة المواهب.

ودخلت نوميديا بعد هذه الإجراءات الحاسمة عهد التبعية الصريحة وخمدت طموحاتها في التخلص من هيمنة روما المتزايدة، وتلاشت أحلام جيل يوغرطة في مقاومة المد الروماني بقوة السلاح، واكتفت الأسرة المالكة بمسايرة الوضع الجديد الناجم عن سنين الحرب اليوغرطية، وتجنب الملوك انتهاج السبل السياسية التي تذكر روما بعهد يوغرطة تفاديا منهم لتكرار التجربة الأليمة. وأفضى هذا السلوك السياسي بنوميديا إلى التأثر بمجريات الأحداث السياسية وتقلبات الوضع في روما نفسها، حيث أصبحت نوميديا في نظر الإتجاه الديمقراطي (حزب العامة) جزءا مكملا لولاية روما الإفريقية لم يحن بعد وقت افتكاك زمام أمره من الأسرة النوميدية التي تشرف على تسييره، بينما كان يرى المحافظون (حزب الأرستقراطيين) ضرورة الإكتفاء بإبقاء المملكة النوميدية في وضعية الحليف الوفيّ وتجنب سياسة الإحتلال وإجراءات ضمّ الأراضي التي تجلب لروما متاعب هي في غنى عنها لو أحسنت استغلال وضعية حلفائها المخلصين.

ومن أمثلة هذا التأثر بالصراع السياسي والعسكري الروماني أن ملوك نوميديا كانوا يجدون أنفسهم مجبرين على إعلان مواقفهم من الأطراف المتنازعة على الحكم في روما، إذ أن اتخاذ موقف حيادي كان أمرا متعذرا عليهم في تلك الظروف، خاصة وأن مصير المملكة كان مرتبطا إلى حد بعيد بمصير تلك الصراعات الحزبية الجارية في روما وولاياتها، ذلك أن مواقف الأطراف الرومانية

المتنازعة على السلطة من بلاد الأحلاف كانت واضحة لدى الملوك النوميديين، ومن ثم كانوا معنيين بما سيؤول إليه ذلك الصراع. ويحسن في هذا السياق أن نذكر الإنقسام السياسي الذي حدث بروما في منتصف القرن الأول قبل الميلاد بين الإتجاه الأرستقراطي المحافظ (Optimates) الذي تزعمه القائد بومبيوس (Pompeius) والإتجاه الشعبي (Populates) الذي حمل لواءه يوليوس قيصر (J. Caesar) وهو الإنقسام الذي تحول إلى حرب مدنية (Bellum Civium) طاحنة خرج منها قيصر متوجا بأكاليل النصر بعد أن دحر خصومه الأرستقراطيين في معارك حاسمة دارت هنا وهناك عبر المقاطعات الرومانية، وخاصة منها معركة تابسوس (Thapsus) التي جرت بالشاطئ الشرقي التونسي (رأس ديماس). والأمر البارز في هذه الأحداث بالنسبة لنوميديا أنها كانت مصيرية نظرا للموقف الذي اتخذته المملكة من تلك الحرب الأهلية الرومانية، حيث انحازت إلى جانب الأرستقراطيين رامية بكل إمكانياتها في حلبة الصراع. وخلاصة القضية أن يوبا الأول ملك نوميديا آنذاك فضل الإنضمام إلى الحزب الأرستقراطي لأسباب تتعلق، فيما يبدو، بمستقبل مملكته. من ذلك أنه كان على دراية بمرامي سياسة قيصر التوسعية التي تستهدف ضم أراضي الممالك الحليفة وفتح أبواب الإستيطان البشري في وجه الفلاحين الإيطاليين والجنود المسرحين. فأراد يوبا أن يجنب مملكته هذا الخطر عن طريق مقاومة قيصر بالإنضمام إلى أتباع بومبيوس المناهضين له. ضف إلى ذلك أن زعماء هذه المناهضة في مقاطعة أفريكا وعدوا الملك النوميدي بالتنازل له عن الأراضي التي يحتلها الرومان في هذه المقاطعة إن وقف إلى جانبهم ضد قيصر. ثم أن ممثلي الأرستقراطية الرومانية في كل من مقاطعة أفريكا ومملكة نوميديا كانوا يعملون على توطيد العلاقات بين أمراء نوميديا والأرستقراطية الرومانية التي ارتبطت مصالحها بالوضع السائد، ولم يكن يرقها أي تغيير في سياسة روما ببلاد المغرب، خاصة وأن أصحاب هذه المصالح كانوا قد أحبطوا مشاريع الإصلاح الزراعي ونجحوا في إفشال حركة الإستيطان

بالمقاطعة الإفريقية من قبل التي قادها نائب العامة «كيوس غراكوس» عام 122 ق.م، وكان ملوك نوميديا مرتاحين لهذا النوع من السياسة المحافظة التي شجعتهم على ربط صلات متينة بالمدافعين عنها في مجلس الشيوخ الروماني، وهم زعماء الأرستقراطية المعارضة لسياسة قيصر الشعبية. لكن يوبا الأول لم يوفق في تقديراته للجو السياسي بمنطقة المغرب وما يمكن أن يترتب عنه من تطورات في الميدان العسكري. ذلك أنه غفل عما تخفيه مملكة موريطانيا المجاورة من مفاجآت بالنسبة للصراع الدائر، أو أنه لم يعبأ بملكها بوكوس الثاني الذي كان يتربع على عرش مملكة واسعة تضم قسما هاما من نوميديا القديمة كان بوكوس الأول قد غنمه عام 105 ق.م لقاء رأس يوغرطة. ذلك أن بوكوس الثاني ما لبث أن انضم إلى جانب قيصر، فكان موقفه هذا أحد العوامل الرئيسية في خنق أنفاس يوبا الأول وإنهاء الكيان النوميدي. ورغم أن الأسباب التي دفعت بوكوس الثاني إلى اتخاذ ذلك القرار المعادي لجاره يوبا مجهولة لدينا إلا أن حالة التبعية التي كانت تميز علاقة الممالك المغربية القديمة بروما قد ساعدت الأطراف المتنازعة في روما نفسها على كسب موقف هذه المملكة أو تلك إلى جانبها. ثم أن بوكوس الثاني كان يرى مملكته معنية بالأحداث التي تجري وقائعها في شرقي نوميديا وفي المقاطعة الرومانية نظرا للعلاقات التي كانت تربط مملكته بروما، وهي علاقة كان سلفه بوكوس الأول قد وطدها بموقفه الشهير من حرب يوغرطة. يضاف إلى ما تقدم أن قيصر كان يبحث عن حليف قوي وراء يوبا لطعنه في مملكته من الخلف وإرغامه على سحب جيشه المواجه لقيصر بمقاطعة أفريكا من أجل حماية ظهر المملكة المهددة. وصادف أن كانت جماعة من المرتزقة الإيطاليين متواجدة بموريطانيا، يرأسها شخص مغامر وراءه سوابق وتوابع يدعى سيتيوس (Sittius)، فاستغل قيصر هذه العناصر الإيطالية وأغراهم بمكافأة سخية إن هم ساهموا في تمكينه من إحراز النصر على حليف أعدائه البومبيين يوبا الأول. وهكذا نجح قيصر في إدخال مملكة موريطانيا حلبة الصراع إلى جانبه، واستعان بمرتزقة سيتيوس

لتطويق نوميديا من الخلف، فاخترق جيش بوكوس الحدود الغربية النوميدية وعاث في مدنها وقراها، بينما انقضت فلول سيتيوس على المناطق الشمالية الغربية من المملكة واستولت على المراكز الحيوية فيها مستغلة غياب الجيش النوميدي الذي كان يخوض المعارك ضد قوات قيصر في الشواطئ التونسية. أي أن تراب نوميديا كان خاليا من الحماية مما سهل على الغزاة كسب المبادرة وتحقيق الهدف المتوخى من الهجوم. وهو إرغام يوبا الأول على التراجع أمام قيصر. لكن هذا الإنسحاب الذي تم في الوقت الملائم بالنسبة لقيصر لم يجد نوميديا نفعا لأن أعداءها كانوا قد تمكنوا منها. وأثارت هذه المفاجأة هلعا في أوساط السكان فاستاؤوا مما حدث، وبلغ الإستياء من بعضهم حدا كبيرا إذ سحب سكان مدينة زاماريجيا ثقتهم من يوبا وأوصدوا أبواب مدينتهم في وجهه، مما أثر على معنويات الملك فوضع حدا لحياته في ظروف غامضة.

2 - إنتصار قيصر في إفريقيا وسقوط مملكة نوميديا

لقد وقع ما كان يخشاه النوميديون. ذلك أنه حالما انتصر قيصر في إفريقيا أعلن عن إلغاء مملكة نوميديا من خريطة المغرب السياسية وإقامة مقاطعة رومانية على ترابها، سميت بأفريكا الجديدة (Africa Nova) تمييزا لها عن المقاطعة الرومانية القديمة التي أصبحت تدعى منذئذ بأفريكا القديمة (Africa Vitus). وبذلك الإجراء ألحق الرومان مصير نوميديا بمصير قرطاجة التي كان قد مر على ذكراها الأليمة مائة سنة كاملة (146-46 ق.م)، واستعاض الرومان عن دور نوميديا في حزام الأمن بمملكة موريطانيا الواقعة خلفها، وهي مملكة برهن ملوكها عن وفائهم لروما بالقدر الذي لا يخشى معه على مصلحة الرومان في المنطقة الغربية. وهكذا دفع قيصر، باحتلاله لنوميديا، التغلغل الروماني خطوة هامة إلى الأمام، ولم يكتف بتكرار ما فعله سلفه ماريوس الذي اقتنع بحمل قائد الثورة النوميدية يوغرطة إلى روما، تاركا البلاد التي سالت على أديمها دماء رومانيا غزيرة بين

أيدي حلفاء روما الجدد. كما وفّى قيصر بوعده وأخلص لمبدإ حزبه الشعبي التوسعي، حيث يعتبر ضم تراب نوميديا من الأهداف الكبرى التي يرجع تحقيقها بالنفع العميم على أتباع ذلك الحزب المناهض للأرستقراطية. غير أن قيصر كان شديد الحذر في نظرته للتركة النوميدية، إذ لم تدفع به نشوة الانتصار إلى ضم جميع أراضي المملكة إلى البلاد التي كان يحتلها الرومان من قبل. فجزأ التراب النوميدي بطريقة فيها حكمة وتبصر شديدان. من ذلك أنه منح الجزء الشمالي منها إلى مرتزقة سيتيوس، أقاموا فيه إمارة مستقلة عرفت باسمهم، وكانت تضم إقليم الشمال القسنطيني الحالي بما فيه المدن الشهيرة: القل (Chullu) وسكيكدة (Rusicade) وميلة (Milev). بالإضافة إلى كيرطا (Cirta) عاصمة نوميديا العتيقة. ومن الجلي أن قيصر كان يتوخى من وراء منحه هذا الجزء إلى مرتزقة سيتيوس تحقيق هدف عسكري يكمن في وقاية ظهر الولاية الرومانية الجديدة مما يمكن أن ينشأ عن طموحات الحليف الجديد بوكوس. وهو ما ينبه إلى أن قيصر كان غير مطمئن إلى الحلفاء المغاربة اتعاضا بأحداث يوغرطة ويوبا الأول. ذلك أن مرتزقة سيتيوس كانوا أفضل من يستطيع أن يستوطن ذلك الإقليم الجبلي (الشمال القسنطيني) ويدافع عنه نظرا لرغبة أولئك المرتزقة في الإستقرار بموطن اغتصبوه بحد السيف، لأنهم لم يكونوا ينتمون إلى وطن آخر غير ذلك بحكم أنهم منبوذون من بلادهم في ايطاليا. وقد شرع جماعة سيتيوس فور حصولهم على ذلك المغنم الثمين، في مطاردة الفلاحين النوميديين من أراضيهم وإقامة مستعمراتهم فيها. وهو ما يدل على أن سياسة الإستيطان التي كان ينتهجها قيصر قد انطلقت بوضوح في أراضي المملكة النوميدية على أيدي أولئك المرتزقة. أما الجزء الغربي من تراب نوميديا القتيلة فقد استولى عليها بوكوس الثاني بموافقة قيصر كجزاء أوفى وعربون ثقة الرومان في مملكة موريطانيا الحليفة. ويظهر أن قيصر لم يقم بهذا التقسيم جزافا. ذلك أنه كما إستهدف حماية ظهر الولاية الرومانية الجديدة

من خطر المقاومة النوميدية بغرسه مرتزقة سيتيوس في مناطق تلك المقاومة لا يستبعد أنه راعى في منح بوكوس تلك المكافأة ما يتفق والأمن الروماني. فالمناطق الجبلية الواقعة غربي الوادي الكبير (Ampsaga) ومنطقة السهول العليا الشرقية كانت من المناطق التي لا يمكن الإطمئنان إلى سكانها، بدليل أن هؤلاء ما لبثوا أن هبوا ملبين نداء الثورة الذي أطلقه أرابيون. ذلك أن احتلال الرومان لملكة نوميديا قد ترك إنطباعات سيئة في أوساط السكان، فاحتلال الرومان لملكة نوميديا قد ترك انطباعات سيئة في أوساط السكان، الأمر الذي نبه قيصر إلى اتخاذ جانب الحيطة في مواجهة سكانها بصفة مباشرة فارتأى أن يوكل أمر المناطق النائية المستعصية إلى كل من مرتزقة سيتيوس وبوكوس.

غير أن الترتيبات السالفة الذكر لم تكن نهائية، حيث ما لبث شكل خريطة الجزائر السياسية آنذاك أن أدخل عليها الرومان تعديلات اقتضتها الحركة الإستعمارية في البلاد. ذلك أنه على الرغم من سقوط قيصر صريعا في عتبة مبنى مجلس الشيوخ بروما (44 ق.م) تحت طعنات خصومه من متطرفي الأرستقراطية المناهضة لسياسته، فإن ابنه بالتبني أوكتافيوس (Octavius) الذي كُتب له أن يصبح سيد العالم قد أحيا طموحات قيصر وأنعش مشاريعه التوسعية. من ذلك أنه استولى على مملكة موريطانيا عام 32 ق.م ووضع ادارة شؤونها في يد قائد عسكري تابع لسلطته المباشرة متذرعا بخلو عرش المملكة من وريث شرعي بعد موت بوكوس. وفتح أوكتافيوس، الذي لقب فيما بعد بأغسطس، أبواب الإستيطان على مصراعيها في وجه الفلاحين الإيطاليين، وكان منهم جنوده المسرحون بعد الحرب.

وبعد ثماني سنوات من الحكم الروماني المباشر في موريطانيا أوكل أوكتافيوس أمر تسييرها إلى يوبا الثاني ابن ملك نوميديا يوبا الأول عام 25 ق.م. وكان يوبا الثاني قد نقل من نوميديا عقب هلاك والده يوبا الأول عام 46 ق.م، وتمت تنشئته الرومانية في أحضان العائلة اليوليانية التي ينتمي إليها كل من

قيصر وأوكتافيوس، ثم أسند إليه هذا الأخير مهمات في البلاد العربية وشمال إفريقيا فأحسن القيام بها وهو ما جعله يحظى باهتمام الإمبراطور أوكتافيوس فتوجه ملكا على موريطانيا.

ورغم أن مملكة يوبا الثاني كانت مترامية بحيث امتدت من المحيط الأطلسي إلى مشارف كرطا (Cirta)، فإن هذه المملكة كانت في واقع الأمر شكلية. حيث لم يكن يوبا الثاني أكثر من مجرد موظف روماني في صورة عاهل يرفل في أبهة الملوكية.

ومهما يكن فإن الجزء المتبقي من الجزائر النوميدية في يد بوكوس الثاني، وهو لجزء الممتد من كرطا (حوالي الواد الكبير: Amsaga) إلى نهر الملوية (Mulucha)، وكان هذا النهر حداً تاريخيا بين نوميديا وموريطانيا، قد امتدت إليه أيدي الرومان ابتداء من عام 32 ق.م أي بعد مضي أربعة عشر حولا من سقوط العرش النوميدي. وقد شرعت فلول المستوطنين الرومان من قدماء الجنود خاصة تنشئ لنفسها مستعمرات فلاحية محصنة تحت حماية يوبا الثاني وابنه بطليموس من بعده، فامتدت بذلك حركة الإستيطان عبر المناطق الغربية من الجزائر القديمة، مركزة في الجهات الشمالية منها ابتداء من بجاية (صلداي: Saldae) إلى شرشال (يول قيصرية: Caesaria) مع عمق نسبي في الداخل.

وعمل يوبا الثاني جاهدا على تجنيب الرومان مخاطر انتفاضات الفلاحين ضد التغلغل الإستيطاني، لكن هذه المملكة الصورية ما لبث الرومان أن أزالوها من خريطة المغرب السياسية عندما رأوا أن دورها في تمهيد المنطقة لمستقبلها الروماني قد انتهى وأن بقاءها لا جدوى منه. وهكذا أوعز الإمبراطور كاليغولا باغتيال بطليموس أثناء زيارته لمدينة ليون عام 40م ووضع المملكة تحت إدارة قائد عسكري تابع لسلطته المباشرة. ثم أعلن على تراب تلك المملكة بعد عامين (أي سنة 42م) عن إنشاء مقاطعتين رومانيتين هما: موريطانيا الطنجية وموريطانيا القيصرية نسبة إلى عاصمتيهما (مدينة يول قيصرية ومدينة طنجة). وبذلك أتم

الرومان سيطرتهم المباشرة على بلاد المغرب كلها باستثناء المناطق الجنوبية التي ظلت مستعصية عليهم إلى حين.

3 - الأمن الروماني والإحتلال الواسع.

لم يضع الرومان حرابهم بعد ضمهم موريطانيا نهائيا. ذلك أن سيطرة يوبا الثاني ثم ابنه من بعده كانت جزئية بحيث لم تشمل جميع المناطق الداخلية نظرا لصعوبة التحكم في سكانها الذين كانوا في حالة تمرد وثورة ضد سلطة يوبا وبطليموس خاصة وأن هؤلاء السكان قد تعودوا على الحرية ودرجوا على مقاومة السيطرة الأجنبية الضاغطة من الشمال، وهو ما تؤكده الأحداث العسكرية التي كانوا وقودا لها منذ زمن نرهفاص وثورة الجند القرطاجي المأجور (241 ق.م) مرورا بحرب يوغرطة ثم تكفاريناس.

وهكذا وجد أباطرة روما الأوائل أنفسهم أمام وضعية عسكرية محرجة بعد حسمهم للوضعية السياسية في بلاد المغرب. وتمثلت أوجه الوضعية الجديدة في مسألة الأمن الذي صعب تحقيقه وفي توفير الشروط الملائمة لسياسة الإستيطان الجديدة التي مثلت أحد الميزات البارزة للعهد الإمبراطوري في بلاد المغرب، وهي سياسة برزت أهميتها الإستراتيجية كقاعدة قوية في ربط الأقاليم المفتوحة بروما عن طريق استغلال مواردها الاقتصادية بأيدي رومانية.

واقتضت هذه الوضعية الجديدة انتهاج سياسة الإحتلال الشامل لكون ذلك يحقق هدفين هامين هما أولا تحطيم المقاومة وتصفية معاقل الثوار بانتهاج أسلوب الهجوم بدل انتظار المهاجمة، وثانيا انتزاع الأراضي من أصحابها عن طريق القوة بقصد توفير المساحات الزراعية للوافدين الرومان وتوسيع رقعة الإحتلال.

ولتحقيق هذين الهدفين كان لزاما على الأباطرة الرومان أن ينظموا قواتهم العسكرية المتواجدة في بلاد المغرب ويرتبوها استراتيجيا كي يكسبوها فعالية أكثر. ويدخل تنظيم الحامية الرومانية في إفريقيا التي أصبحت تدعى بالفرقة

الثالثة الأوغسطية (نسبة إلى الإمبراطور الأول الملقب بأوغسطس) في هذا المضمار. كما تندرج فيه الخطة العسكرية المتمثلة في إنشاء جبهة دفاعية قوية «الليمس» تحتوي على طرق وحصون خلفية ومراكز حراسة ومراقبة أمامية. وإنشاء الوحدات العسكرية الخفيفة للتدخل السريع. بالإضافة إلى تجهيز الحملات العسكرية وإرسالها نحو مواطن القبائل المتحركة أو الجهات التي تسودها القلاقل.

ذلك أن الممارسة العسكرية الرومانية في الميدان نبهت إلى ضرورة توسيع الخريطة العسكرية كي تشمل المناطق المستعصية التي كانت تمثل مصدر قلق بالنسبة للتواجد المدني الروماني، ومنها المناطق الجبلية المحيطة بالأوراس، وهو ما تطلب إنشاء معسكر للفرقة الثالثة الأوغسطية بحيدرة (Ammaedara) الواقعة شرقي تبسة (Theveste)، وهو المعسكر الذي انتقل بعد ذلك غربا إلى تاموقادي (تيمقاد) ثم لامبيز (تازولت) استجابة للضرورة العسكرية.

وبخصوص الحملات العسكرية الكبرى التي قام بها الرومان في العمق النوميدي نذكر من أهمها وأقدمها تلك التي قادها بروقنصل إفريقيا عام (22-21 ق.م) عبر مناطق المقاومة في كل من نوميديا وموريطانيا، وهي الحملة التي انتهت، حسب الوثائق الرومانية بانتصار حققه الجيش الروماني على الثوار فاستحق قائده تاج النصر. ثم الحملة الصحراوية الكبرى التي اخترق بها البروقنصل كورنيليوس بالبوس (Carnelius Balbus) الصحراء الشرقية الجزائرية نحو جرمة عاصمة مملكة الغرامنت عام (21-20 ق.م)، وهي الحملة التي سجل بعض أخبارها بلينوس القديم وغيره وتم تقديم أسرارها أمام العربات الحربية في استعراض عسكري بروما أثناء الإحتفال بالنصر على أقوام الصحراء عام 19 ق.م. وكانت الحملة الأخيرة قد عرجت بعد انطلاقها من قرطاجة، على الشرق النوميدي وانضمت إليها عناصر من جيش يوبا الثاني، فتمكنت من قمع القبائل الثائرة بمنطقة الأوراس قبل توجهها نحو غدامس، وقد خربت تلك الحملة بمساعدة الجيش الموريطاني مدنا وقرى نوميدية ورد ذكرها في أخبار الحملة التي اتسعت

مناطق عملياتها العسكرية فشلت البلاد الواقعة ما بين حدود الولاية الإفريقية القديمة شرقا إلى غربي بلاد الحضنة غربا ومن منطقة كرطا شمالا إلى أعماق الصحراء جنوبا. فكانت بذلك من أكثر العمليات العسكرية الرومانية اتساعا وأقواها أثرا.

وكان ذلك الإحتلال المنهج الذي شرع فيه أوكتافيوس وواصله خلفاؤه في أعماق التراب النوميدي ثم الموريطاني قد وضع حدا لسياسة التوسع المحدود التي سلكها من قبل قناصلة العهد الجمهوري مسايرة للرأي العام السائد في مجلس الشيوخ الروماني، ولم يوقف الأباطرة الأوائل عملية الإحتلال الشامل للبلاد رغم المقاومة المستميتة التي اعترضت التغلغل الروماني نحو الداخل. بل إن إصطدام الجيش الروماني بالمقاومة النوميدية أمر دفع قادة هذا الجيش إلى تغيير خططهم الحربية وتكييف نشاطهم العسكري لمواجهة حرب العصابات التي فرضها الثوار من جهة، ودعم سياسة الإستيطان والتحكم في السكان الأهالي عن طريق مراقبتهم وتوجيه تحركاتهم ونقل المجموعات المشاغبة منهم إلى أقاليم تسهل فيها السيطرة عليهم من جهة ثانية. وهكذا اقتضت الضرورة العسكرية التدخل في الوضع الديمغرافي وإخضاعه لمتطلبات الإحتلال الواسع.

ولم يكن احتلال البلاد وإخضاع سكانها نهائيا أمرا متيسرا في نظر الأباطرة إن لم تسنده إجراءات أخرى تثبته وتدعم نتائجه، ومنها شبكة الطرق. لقد برزت أهمية القيام بأعمال هندسية كبرى منذ انتقلت فرقة الإحتلال إلى معسكرها الجديد بالقرب من بلاد النمامشة، وذلك بهدف مدّ طرق استراتيجية عبر المناطق المحتلة لربطها بمراكز التواجد الروماني في الداخل من جهة وإيصالها بالمدن الرئيسية شمال البلاد من جهة أخرى. وقد تبين لنا من خلال خريطة الطرق الرومانية ومراحل إنجازها أن تاريخها مرتبط بحركة التوسع الروماني عسكريا ومدنيا. وبهذا كانت الطرق وسيلة إخضاع واستعمار أكثر منها وسيلة تعمير وحضارة كما قد يتبادر إلى الذهن. لقد سهلت شبكة الطرق ووسائل الدفاع

الأخرى (الليمس) على الجيش الروماني مهمة السيطرة على المناطق المستعصية ومواصلة الإحتلال نحو الداخل، مما مكنه من الإستيلاء على جميع المناطق المتصفة بالحيوية الإقتصادية مهما نأت، وتطويق المناطق المضطربة وتجهيز كل ذلك بوسائل الحماية العسكرية التي تسهل على المؤسسة المدنية (جهاز إداري-مستوطنات زراعية) قطف ثمار الإحتلال.

ثانيا: صور من المقاومة

إنّ مقاومة النوميديين للإحتلال الروماني ظاهرة تاريخية لا يمكن تجاهلها، لقد اتخذت تلك المقاومة أشكالا متعددة وبرزت في صور مختلفة باختلاف الظروف والمعطيات. فاتخذت طابع المواجهة العسكرية على يد يوغرطة متحدية إرادة روما وعظمة جيوشها، كما تقمصت شكل المناورات السياسية والمساومة العسكرية مثلما حدث مع العاهل يوبا الأول، ثم برزت أخيرا في صور من المواجهة الشعبية التي اكتست طابع الثورة الجزئية أو الشاملة ضد تغلغل الإستعمار الروماني كما هو الشأن بالنسبة للثورة التي قادها أرابيون أو التي اشتهرت بشخصية تكفاريناس وكذلك التي تزعمها إيدمون فيما بعد في الجزء الغربي من الجزائر القديمة (أي موريطانيا القيصرية).

1 - ثورة أرابيون.

أرابيون هو ابن مسينيسا أحد أمراء نوميديا المساعدين للملك يوبا الأول. كان شابا يافعا عندما حصلت المأساة وذهبت المملكة غنيمة حرب بعد هلاك يوبا الأول وكذلك والده مسينيسا. وقد ساهم أرابيون في الدفاع عن نوميديا لكنه اضطر إلى مغادرة الوطن صحبة أتباع بومبي الذين هزمهم قيصر في إفريقيا فتراجعوا نحو إسبانيا. وظل الأمير النوميدي هناك بعض الوقت في انتظار فرصة العودة إلى نوميديا ليثأر لوالده وبلده.

ووانته الفرصة المنتظرة عندما تم اغتيال قيصر في روما عام 44 ق.م فعاد أرابيون صحبة نخبة من رجاله الذين رافقوه إلى ديار المهجر فوجد قومه في انتظاره مما ساعده على القيام بتعبئة عامة والشروع فورا في مطاردة المحتلين. وكان هؤلاء المحتلون طرفين: رجال سيتيوس السابق ذكرهم، وقوات بوكوس الثاني التي كانت تحتل الأجزاء الغربية من نوميديا.

تمكن أرابيون من إلحاق الهزيمة بالمحتلين المرتزقة وقتل زعيمهم سيتيوس عام 43 ق.م دون أن يفلح في إخراجهم من عاصمة المملكة كرطا بعد أن تخصنت بها فلولهم ونظمت فيها الدفاع الجالية الإيطالية. لكن أرابيون نجح في إبعاد القوات الموريطانية المرابطة بالمدن والقرى النوميدية. فأزاح بذلك قوات الإحتلال عن جزء هام من نوميديا.

وحاول أرابيون أن يستفيد من النزاع القائم بين حاكمي مقاطعة أفريكا القديمة والجديدة متبعا سياسة المناورة والتظاهر لكل منهما بالتأييد والمناصرة. ولم يكن يستهدف من وراء ذلك سوى ربح الوقت وتجنب الصدام بقوة أي منهما كي يتفرغ للقضاء على رجال سيتيوس وإبعاد قوات بوكوس غربا من جهة وفرض نفسه كملك قوي بنوميديا من جهة أخرى، أي أنه كان يريد عزل أعدائه المباشرين (رجال سيتيوس وبوكوس) عن حاكمي المقاطعتين المتنازعين بأحياء عرش نوميديا كي تصبح كيانا سياسيا قويا في منطقة الصراع.

وقد أفلح أرابيون في مهمته على المستويين الداخلي والخارجي لبعض الوقت، حيث أنه تمكن من استقطاب عناصر الثوار وتوحيد كلمة الأمراء وشيوخ القبائل، فجند الرجال وأعد الجيش وتمكن من هزم أعدائه في معارك خاطفة. ويبدو أنه استطاع أن يوقظ الوازع الوطني في نفوس السكان من حضريين وريفيين على السواء. حيث تحمس سكان المدن للمقاومة فامتنعت بعض المدن مثل زاماريجيا عن الإصغاء للرومان الذين لم يتمكنوا من اقتحامها إلا بعد حصار طويل أعجز أهلها عن المقاومة.

وعلى المستوى الخارجي وُفق أرابيون في فرض مكانته بالمنطقة بين الحزبين المتنافسين على السلطة الرومانية في بلاد المغرب، ذلك أن الخلاف كان على أشده بين مجلس الشيوخ الروماني والحكومة الثلاثية (Triumvira) التي شكلها ثلاثة قناصل (أوكتافيوس–ليبدوس–أنطونيوس)، ثم فيما بعد هؤلاء، فامتد أثر الخلاف إلى بلاد المغرب ونشب نزاع بين حاكمي المقاطعتين الرومانيتين بها نظرا لتباين موقفيهما من الصراع الجاري في روما. فاستغل أرابيون تلك الفرصة ودخل اللعبة السياسية الرومانية مثلما فعل يوبا الأول من قبل، خاصة وأن كل طرف كان مفتقرا إلى سند قوي. وكان هدف أرابيون عزل أعدائه السيتيان وبوكوس بضم رأيه إلى حاكم (أفريكا الجديدة = نوميديا) ظاهريا. وهكذا تمكن من إلحاق الهزيمة بالمعمرين السيتيان وإجلاء قوات بوكوس غربا تحت تغاطي الحاكم الروماني المذكور رغم أن رجال سيتيوس كانوا في صفه، كما أن أرابيون لم يعلن صراحة عداءه لحاكم (افريكافيتوس) نظرا لحاجته لغض الطرف من جهة هذا الأخير كي يتمكن من استعادة مناطق نوميدية تقع على حدود المقاطعة الرومانية المذكورة.

ويظهر أن أرابيون قد تعمد الغموض في علاقاته بحاكمي المقاطعتين تحقيقا لهذا الغرض الإستراتيجي. وقد تنبه الحاكم الروماني سيكتيوس صاحب الولاية الجديدة (نوميديا) لخطة أرابيون فتربص به وأوعز باغتياله (40 ق.م) مدعيا الإشتباه في أمره.

وبمقتل أرابيون سقطت شخصية نوميدية أخرى ضحية فشل المناورات السياسية التي درج على خوضها ملوك نوميديا كسبيل للخلاص من العدو عندما يعجزون عن مقاومته صراحة.

2 – المقاومة الشعبية

دخلت المقاومة النوميدية بعد اغتيال زعيمها أرابيون عام 40 ق.م مرحلة جديدة يمكن أن نطلق عليها اصطلاح «المقاومة الشعبية» نظرا لخلوها من عنصر القيادة البارزة من جهة ولشموليتها وعفويتها من جهة ثانية.

وقد اتضحت هذه المقاومة وتفاقم خطرها في أعين الرومان خاصة بعد انتهاء الحرب المدنية الأخيرة وتجميع السلطة في أيدي أوكتافيوس الذي أصبح سيد العالم الروماني الوحيد بعد أن منحه مجلس الشيوخ السلطة اللامحدودة (Impérium) فأصبح إمبراطورا. ذلك أنه ما أن اطمأن أوكتافيوس على عرشه (29 ق.م - 14م) حتى شرع في انتهاج خطة استعمارية محكمة قوامها وضع شبكة من المستعمرات العسكرية في الأقاليم الاستراتيجية بموريطانيا القيصرية (الجزائر الغربية) انطلاقا من الوادي الكبير.

ولقد تفطن الأهالي لهذه العملية واندفعوا يقاومونها منذ البداية. وقد احتفظت المصادر القديمة (Dion. LV. 28) بأخبار تلك المقاومة حيث جاء فيها أن الثورة اندلعت في كافة تراب موريطانيا، وأن السكان قد تمردوا على الملك يوبا الثاني، وأن الإنتفاضة قد عمت مناطق تواجد المستعمرات الرومانية وعاثت فيها، وقتل المتمردون عددا كبيرا من الرومان، وكان الثوار يرددون رفضهم للوجود الروماني وعدم اعترافهم بيوبا الثاني الذي توجه الإمبراطور ملكا عليهم.

لقد عبرت تلك الإنتفاضة التلقائية عن وعي السكان بحقيقة الوضع وعن صورية الملك يوبا الثاني، حيث لم يروه أكثر من موظف روماني يحمل اسم ليبيا ولقب ملك، لأنه برهن لهم عن صدق رأيهم فيه منذ الوهلة الأولى لتنصيبه باستبدال اسم عاصمته «يول» بـ«قيصرية» تزلفا منه لسيده أوكتافيوس الملقب بقيصر، وأمر أتباعه بتقديس هذا الأخير في حياته وعبادته بعد موته.

وقد اتسع نطاق الثورة جغرافيا فشمل جميع بلاد المغرب، حيث انضمت إليها قبائل الجيتول وغيرها من القبائل الليبية العتيدة. الأمر الذي أعجز يوبا وشل قدرته على الحد من خطر الثورة العارمة، وهو ما أرغم الإمبراطور على إصدار أمره إلى حاكم المقاطعة الإفريقية سمبرينوس أتراتينوس (L. Semprinus Atratinus) بالتدخل في الوضع على رأس الفرقة الرومانية لوقف زحف الثوار الداهم وذلك عام 22-21 ق.م. وكان تدخل الجيش الروماني في الوضع شديد الأثر على

السكان، لكن شمولية الثورة مكنت من زرع بذور المقاومة في جهات مختلفة من بلاد المغرب وتعميم الوعي بضرورة مواجهة التواجد الروماني حتى عند القبائل الصحراوية التي أعدت عدتها وتحركت لضرب المستعمرات الرومانية في الجنوب الشرقي للمقاطعة الرومانية (عام 20 ق.م)، الأمر الذي جعل الإمبراطور يصدر أمره لحاكم المقاطعة، كورنيلوس بالبوس (Cornelus Balbus) بتجهيز حملة ضخمة وشن هجوم شامل على القبائل الثائرة ومتابعتها في أعماق الصحراء حتى عاصمة الغرامنت (جرمة).

وكانت قبائل الجيتول أكثر تلك المجموعات البشرية مضايقة للرومان وأمتنها عودا وأكبرها عددا. وقد اشتد ضغط المقاومين الجيتوليين وغيرهم على الرومان في عهد الإمبراطور تيبريوس (Tiberius) (14م) خاصة لأن هذا كان قد توغل بالحدود الرومانية جنوبا فضمت أجزاء من بلاد الجيتوليين بعد أن احتوت معظم أراضي قبائل الموزولامي الأوراسية.

ويظهر أن الحرب كانت شديدة بين القوات الرومانية وقبائل الجيتول إلى درجة أن إحراز نصر ما على هذه القبائل كان يبوئ صاحبه مجدا كبيرا ويجعله أهلا للقب شرفي، من ذلك أن البروقنصل كورنيليوس لنتولس (Cornelius Lentulus) الذي حظي بانتصار مؤقت على الجيتوليين عام 6م. لقب بالجيتولي (Gaetulicus) تكريما له على هذا الظفر العابر.

والواقع أن تلك الحملات التأديبية لم تكن قادرة على تحقيق أهدافها النهائية لأن المقاومة كانت متواصلة بالرغم من مواكب النصر التي كانت تقام احتفاء بالتغلب على الثوار. ذلك أنه إن سكتت المصادر عن ذكر أخبار المعارك الكبرى فإن أحداث حرب العصابات اليومية التي هي إحدى أساليب المقاومة الشعبية كانت أمرا معتادا، بحيث كان الأمن متعذرا في المناطق الداخلية وعبر الطرق والمسالك الموصلة بين المدن والمراكز الرومانية.

3 - تنظيم المقاومة - تكفاريناس ومزيبا

إستقبل النوميديون والموريون تتويج تيبريوس إمبراطورا عام 14م بانتفاضات عديدة، كانت أخطرها الثورة التي اشتهرت باسم قائدها تكفاريناس الذي نظم المقاومة فاكتسب شعبية كبيرة وأصبح زعيما ثوريا ينطق باسم الثائرين ويعبر عن إرادة الأهالي في المطالبة بحقوقهم من الإمبراطور الروماني تيبريوس الذي شغلت ثورة تكفاريناس قسما هاما من عهده واحتلت حيزا أساسيا في اهتماماته. ذلك أن هذه الثورة الشاملة أمكنها أن تتواصل مدة سبع سنوات (17-24م) وأن يعم نشاطها العسكري معظم بلاد النوميديين والموريين دون مراعاة للحدود السياسية أو الإدارية متجاوزة الإعتبارات القبلية، بحيث أن كلا من المور بقيادة مزيبا (Masipa) والنوميد بقيادة تكفاريناس قد جمعوا ثقتهم في هذا الأخير، فوحدوا جهودهم وأكدوا عزمهم على تجاوز الإطار الجغرافي الضيق والعمل بجهد موحد لمواجهة الخطر الروماني الزاحف من الشمال في صورة استيطان زراعي لا يتوقف.

لكن الأمر المؤسف، هو أن يذهب المؤرخون مذهب المؤرخ الروماني تاكيتوس (Tacitus) فيرون مثله بأن قائد تلك الثورة الكبرى لم يكن سوى شيخ قبيلة من أنصاف الرحل (العشابة) استولى عليه الغضب من جراء القيود التي فرضها الرومان على حرية التنقل التي تعودت عليها قبائل الموزولامي (Musulami) الأوراسية فاندفع متمردا على الرومان بعد فراره من الفرقة المساعدة (Auxila) بالجيش الروماني حيث كان جنديا بها، وراح يؤلب قومه على الوضع، ثم استطاع بفضل شجاعته ومهارته الحربية التي اكتسبها في صفوف الجيش الروماني، أن يجلب إليه قبائل رعوية أخرى في نوميديا وموريطانيا ويوحد كلمة الجميع على المطالبة برفع القيود وتأمين المراعي.

والواقع أن الإمعان في نصوص تاكيتوس واستقراء الأحداث المتعلقة بها يجعلنا ندرك أن حقيقة تلك الثورة الشاملة (من بلاد التيطري إلى طرابلس وفزان)

لا تكمن في المطالبة بحرية التحرك أو تأمين الإنتجاع فحسب ولكنها تشكل حلقة بارزة ومتينة في سلسلة المقاومة العنيدة التي قابل بها الأهالي حركة زحف الإحتلال الروماني نحو الداخل. ذلك أن هذه الثورة العارمة لا يمكن النظر إليها منعزلة عما سبقها من أوجه المقاومة التي اتخذت طابعا عفويا، وكذلك التي أعقبتها، مهما كانت الأشكال التي اتخذتها والمظاهر التي تميزت بها. وعلينا ألا نغفل الإنتعاش الذي طرأ على حركة الإستيطان الزراعي في عهد الإمبراطور أوكتافيوس أغسطس وخلفه تبيريوس، وهو انتعاش دفع بأقدام المستوطنين الرومان نحو الداخل فتوغلوا في البلاد واستولوا على الأراضي الزراعية وتمكنوا من الهيمنة على الواردات الإقتصادية في المناطق الداخلية. ولقد تجنب مصدرنا الوحيد في أخبار حروب تكفاريناس، وهو كتاب الحوليات (Annales) لتاكيتوس، التعرض لهذه المعطيات المحركة للأحداث فاقتصر على ذكر الحوادث العسكرية التي وقعت أثناء سنوات حكم الإمبراطور تبيريوس وغيره دون تحليل أو تعليل.

تمثلت الإجراءات الإمبراطورية المتعلقة بدفع الإستيطان نحو الداخل في إنشاء المستعمرات العسكرية بالمناطق الجبلية الملائمة عسكريا وتمهيد الطرق ومصادرة الأراضي الزراعية بعد مغادرة أصحابها الأهالي. ولدينا في انتفاضة قبائل المور القاطنة إلى الجنوب من مدينة قيصرية (شرشال) ضد الملك يوبا الثاني إبان إنشاء عدد من المستعمرات المذكورة بتلك المنطقة بمباركة من يوبا دليل قوي على شمولية الإحساس بضرورة المقاومة وتوحيد الصف والقيادة بين المور والنوميد. كما تؤكد مبادرة قائد المور مازيبا بالإنضمام إلى قائد النوميد تكفاريناس حاجة الجميع إلى جمع الشمل وتعميم الثورة وتوسيع رقعة القتال قصد تشتيت قوات العدو وتعميم الفزع في صفوفها.

وهكذا استفادت المقاومة النوميدية مرة أخرى من قائد متمرس بفنون القتال الرومانية، عارف بنفسية الجند الروماني وخطط قادته. لقد ماثل تكفاريناس بتجربته العسكرية في صفوف القوات الرومانية سلفه البعيد يوغرطة الذي اعتمد

هو الآخر على خبرته القتالية التي اكتسبها في الجيش الروماني وإطلاعه الجيد على خفايا هذا الجيش مع فارق بين الشخصين من الناحية الرسمية، حيث كان يوغرطة ملكا وصديقا لروما قبل نشأة الحرب بينما كان تكفاريناس مجرد جندي في إحدى كتائب «المليشيات المساعدة» بنوميديا. لكن كلا الرجلين كان نوميديا يحمل مشاعر حاقدة على الغزاة وعزيمة صلبة على المواجهة وشخصية جذابة جمعت حولها الناس فرادى وجماعات. ثم أن كليهما لم تكل عزيمته أو يستسلم لعدوه رغم الخسائر المادية والبشرية التي ألحقها الرومان بالسكان على مدى سبع سنوات من حرب الإبادة الشاملة.

وقد وصف لنا تاكيتوس في إشاراته العابرة تفكاريناس بأنه كان مجرد جندي متمرد، فر من التزاماته في الجيش الروماني والتحق بعصابات المتمردين وقطاع الطرق، فانتصب عليهم قائدا وراح يمارس النهب والسلب، ثم ما لبث أن نظم عصاباته على نحو عسكري مشكلا من أفرادها فرسانا أقوياء ومحاربين أشداء وقف بهم في وجه الجيش الروماني متحدثا باسم قبائل الموزولامي، ثم انضمت إليه قبائل المور بقيادة مزيبا، وتقاسم الشخصان قيادة المعارك، فكان تفكاريناس على رأس الجنود المدربين على الطريقة الرومانية، بينما انطلق مزيبا يقود حرب العصابات الخاطفة يخلف الدمار وينشر الرعب في النفوس ...

ولا يعزب عن الذهن إدراك الإنطباع السيء الذي كان يحمله الكاتب الروماني تاكيتوس عن تكفاريناس. ذلك الإنطباع الذي تميزت به كتابات المؤرخين الإستعماريين المتعلقة بأخبار المقاومة، فهم كانوا يعكسون وجهة نظر بني قومهم نحو أعدائهم، ويعبرون عن مدى الإستياء الذي كان يحمله الرأي العام عما كان يتسبب فيه الثوار من متاعب لجيوشهم ومضايقات للمعمرين منهم. ويبرز ذلك الإستياء في الأوصاف والنعوت المشينة التي كان يطلقها أولئك الكتاب على الثوار وقادتهم، وكذا المصطلحات التي يستعملونها للدلالة على أفعالهم، كاستخدام عبارة «التمرد» بدل «الثورة» و«العصيان» بدل «الإنتفاضة» و«التخريب» بدل «الحرب» و«العصابات» بدل «الفرق»، وهكذا ...

والحقيقة أنه رغم الإقتضاب الذي تتصف به رواية تاكيتوس غير أنه يمكننا أن نستنتج منها بعض خصائص تلك الثورة مما يتيح الرد على من أخذ بظاهر الرواية من المؤرخين المحدثين. فعند تاكيتوس أن تكفاريناس جندي بسيط فر فجمع قبائل كثيرة هاجم بها الرومان. هذا جانب، وأنه كون من أتباعه جيشا نظاميا وأنه قسم جيشه إلى قسمين أحدهما يتكون من الجنود النظاميين المدربين على طرق القتال التي لقنها إياهم بنفسه. وكان هذا القسم تحت قيادته شخصيا. والثاني يضم الفرسان وفرق المقاتلين التقليديين بأسلحتهم الخاصة، وأساليب القتال الموروثة، أي الفرق المناسبة لحرب العصابات بمفهومها الحديث، وأوكل قيادة هذا القسم إلى حليفه ومساعده قائد المور مزيبا، وأنه استخدم جناحي الجيش بفعالية عسكرية ناجحة، مما مكنه من هزم الجيش الروماني في عدة معارك بالإضافة إلى ما أحدثت خطته العسكرية من أثر نفسي على المدنيين الرومان المتواجدين في الأرياف فانخفضت معنوياتهم. ويضيف تاكيتوس في فقرة أخرى أن تكفاريناس أصبح يتحدث باسم النوميديين، وأنه أقدم على إرسال بعثة إلى الإمبراطور تبيريوس لمفاوضته في مسألة إعادة الأرض المحتلة إلى أصحابها الأهالي.

إن هذه الإشارات الخاطفة تتضمن ما يستوجب التوقف والتمعن. كما أنها تثير التساؤل حول ما إذا كان تكفاريناس مجرد جندي بسيط في إحدى الكتائب الرومانية المساعدة، أم أن مكانته كانت أكبر من ذلك عند قومه قبل أن ينظم إلى الرومان، إنه لمن الصعوبة بمكان أخذ رواية تاكيتوس ببساطتها الظاهرة. ذلك أنه لا يعقل أن تنساق قبائل عتيدة تخضع لنظامها التقليدي ولسلطة رؤسائها وراء رجل نكرة كان في صفوف أعدائها الرومان، ثم التحق بعد فراره بقطاع الطرق والصعاليك لولا أنه كان ذا شأن بين قومه.

ويظهر من خلال تلميحات الرواية أن تكفاريناس كان مدركا لمشاعر الإستياء التي يكنها قومه للرومان وللمتعاملين معهم، وأنه أحسن استغلال تلك المشاعر

وتوجيه أصحابها نحو الهدف المقصود، ومن ثم تمكن من استقطاب الغاضبين على الوضع والمتهيئين للثورة فوجه جهود الجميع نحو الهدف المشترك، وهو إرغام العدو على التوقف عن مصادرة الأراضي والتراجع عما بين يديه منها وإرجاعه إلى أصحابه. ويظهر كذلك أن هذه الوجهة التي اتخذتها حركة تكفاريناس قد لقيت استحسانا وتجاوبا لدى الأقوام المجاورة من أهل موريطانيا القيصرية والذين كانوا عرضة لحركة مد استيطاني وكذلك لدى شعب الجيتول (وهم سكان السهوب وشمالي الصحراء) ومملكة الغرامنت بأقصى الصحراء (فزان-جرمة). وهو يعد نجاحا سياسيا كبيرا لحركة تفكاريناس الذي عرف كيف يستثمره ويطوره إلى تحالف عسكري شكل جبهة قتال مترامية الأطراف أعجزت الرومان وشتتت جهودهم العسكرية وأثرت على معنويات المعمرين فتواطأ بعضهم مع تكفاريناس حسب رواية تاكيتوس نفسه.

لقد أثبت مؤرخنا هذا شمولية الثورة وتغطيتها لبلاد النوميديين والمورين، ووصف المقاتلين الثوار بالعدد الهائل معتبرا الجيش الروماني ومن وقف معه من أنصار يوبا الثاني بأنهم كانوا ضئيلي العدد أمام المجموع الهائل (Multidudinem) من النوميد والمور الثائرين. وهو ما يعبر بقوة عن كون حركة تكفاريناس لها جذور وطنية قوية متصلة بتيار المقاومة وأنها مظهر من مظاهر التصدي التاريخي للإحتلال والإستيطان الأجنبي، وأن وصف قائدها تكفاريناس بالشخص المتمرد على القانون المتزعم لعصابات اللصوص لا ينسجم مع الواقع التاريخي بقدر ما ينسجم مع منطق المؤرخين الإستعماريين رومانا كانوا أم فرنسيين.

أما مرتسمات الوقائع العسكرية على المجال الجغرافي فمن الصعب تتبعها بوضوح نظرا لاقتضاب رواية تاكيتوس الوحيدة، غير أن منطقة الأوراس وما جاورها كانت إحدى الأقاليم التي شهدت كثافة أكثر من غيرها في المواجهة بين قوات الثوار وفيالق الجيش الروماني. وكانت المعارك هنالك في صورة قتال نظامي اختبر فيه تكفاريناس قدرة جيشه الذي أعده لهذا الغرض، خاصة في الجولات الأولى من الحرب.

ويظهر حسب الرواية أن خبرة الجيش الروماني المتفوقة في هذا النوع من القتال بالإضافة إلى الأسلحة والعتاد المتطور قياسا لما بيد جنود تكفاريناس أمور مكنت الجيش الروماني من انتزاع النصر في بعض المعارك مما اضطر قائد الثورة إلى الإنسحاب نحو الجنوب كي يعد رجاله لحرب من نوع آخر، قوامها الغارات الخاطفة ومحاصرة الأهداف العسكرية والمدنية المنعزلة والإستيلاء على المحاصيل الزراعية وعرقلة النشاط الاقتصادي الروماني في الداخل.

لم يتمكن قادة الجيش الروماني الموفدون من قبل الإمبراطور من الظفر بتكفاريناس، حيث كان يجيد الإنسحاب من المعارك التي يراها في صالح أعدائه فيفوت عليهم فرص النيل منه، الأمر الذي ساعد على إطالة عمر الثورة وشجع السكان على الإنضمام إليها وهو مازاد في حماس وتصميم القائد تكفاريناس وعزز جانبه.

وقد أشاعت الحرب حالة من عدم الأمن أثرت على النشاط الإقتصادي حيث كانت المحاصيل الزراعية معرضة لمصادرة الثوار، فضلا عن انقطاع طرق القوافل التجارية وتعطل المبادلات فيما بين المدن ومراكز العمران، الأمر الذي كان يضايق رجال الأعمال الرومان ويعرقل نشاطهم، فرغب بعضهم في وضع حد للحرب ولو عن طريق التفاوض والمصالحة.

ولعل تكفاريناس قد علم بهذه الرغبة لدى كثير من أصحاب المصالح الاقتصادية في نوميديا، وأدرك أن هنالك من يرغب في السلم من رجال السياسة في روما فبادر بإعلان شروطه مقابل السلم المرغوب فيه وهو ما كان يخشاه الإمبراطور الذي كان يرى في قبول تلك الشروط حطا واضحا من هيبة الإمبراطورية الرومانية ومن سمعة جيوشها لدى أعدائها المتربصين بها في تخوم أخرى من الأوطان الخاضعة لروما. وأعلن الإمبراطور رفضه لمقترحات تكفاريناس المتمثلة في تراجع الرومان عن الأراضي التي احتلوها وأمر بالإكثار من الحشود العسكرية في نوميديا واختيار خطط حربية مماثلة للتي كان يطبقها الثوار مع

التركيز على سياسة التفرقة في أوساط الأهالي عن طريق ترغيب بعضهم بالوعود وإثارة التناحر فيما بينهم.

وقد شرع الجيش الروماني في العمل بالخطط الجديدة ابتداء من عام 22م تحت قيادة البروقنصل بليزوس الذي استهل مهمته بضرب حصار على الأماكن الحيوية كينابيع المياه ومعابر الطرق التقليدية. وشدد الحراسة على المستعمرات ومراكز الإنتاج وحصن المواقع العسكرية والمدنية الرومانية، ثم بادر بمهاجمة الثوار واقتفاء أثر تكفاريناس. وقد صدرت أوامر الإمبراطور تبيريوس إلى الملك يوبا الثاني بالمشاركة في الهجوم العسكري الواسع بالتنسيق مع القائد بليزوس قصد الحد من خطر العمل العسكري المشترك بين الأقوام المورية الثائرة ضد الملك وحلفائه الرومان وبين النوميديين بقيادة تكفاريناس.

واقتضت الخطة العسكرية الجديدة تجزئة الفيالق إلى وحدات قليلة العدد خفيفة العدة سريعة التحرك متأهبة للتدخل في كل حين. وهذا أمر مغاير للطريقة التقليدية التي تعتمد على التعبئة العامة وتنظيم القتال بمختلف مراحله واختيار الميادين الصالحة لإدارة المعارك باستدراج العدو إلى الأماكن المكشوفة التي تساعد على استخدام مختلف أجنحة الجيش بفعالية، وهي طريقة كان يعرفها تكفاريناس فيتجنب مخاطرها.

وتمكن بليزوس بخطته الجديدة من تحقيق عدة انتصارات على الثوار لكنه لم يفلح في الإنتصار على الثورة مع أنه تمكن من أسر أخ لتكفاريناس، وألحقت العمليات الحربية أضرارا بالغة بالسكان، لأن الفرق الصغيرة كانت تنتهج أسلوب المباغتة المتبع من طرف الثوار وتتغلغل في عمق المناطق النائية فتفاجئ أهالي القرى البعيدة وتعيث فيها، فيقتل الجنود الرومان ويأسرون كل من يظفرون بهم من العجزة والنساء والأطفال، كما يفتكون بالمواد الغذائية ويحطمون البيوت والخيم، وهذا ما أثر على إمكانيات الثوار ومعنويات السكان العزل.

غير أن العمق الصحراوي كان ملجأ للثوار ومحتشدا لهم كلما ضايقهم عدوهم وقطع عليهم سبل الإتصال والتجمع بالمناطق الشمالية. وهكذا توغل تكفاريناس

رجاله في الجنوب وراح يستنهض همم شعب الغرامنت القاطن في جهات فزان والواحات الشرقية الجزائرية، كما لقي عونا نافعا من طرف أقوام الجيتول المقيمين بجهات الأطلس الصحراوي والهضاب العليا الغربية.

وعندما اختفى تكفاريناس ظن بليزوس أن الثورة قد انتهت وأنه من حقه أن يدخل إلى روما في موكب النصر المؤزر كي يختم نهاية توليته إدارة المقاطعة الرومانية بإفريقيا بذلك الشرف المرموق. فارتحل إلى روما في شهر جوان من سنة 23م، بعد أن أقنع الإمبراطور في مراسلة سابقة بأن الثورة قد قمعت وأن نوميديا قد لانت شوكتها وهزمت نهائيا، واتخذ من أسره شقيق تكفاريناس دليلا على ادعائه.

ويبدو أن تبيريوس قد اقتنع بأن الوضع العسكري في نوميديا لا يبعث على القلق أو التخوف من تجدد الثورة. ومن ثم أمر بإجلاء الفيلق التاسع الإيبيري عن إفريقيا اعتقادا منه بعدم الحاجة إلى تواجد هذا الجيش في المنطقة. ثم عين بروقنصلا جديدا على إفريقيا خلفا لبليزوس. وهو كورنيليوس دولابيلا (Corn. Delabela) لكنه ما أن التحق هذا القائد الجديد بمقر قيادته في إفريقيا خلال شهر جويلية من عام 23 ق.م حتى هاجم الثوار بقيادة تكفاريناس مراكز عديدة بعنف أشد من ذي قبل. وحدث أن توفي الملك يوبا الثاني فأحدثت وفاته فراغا سياسيا وعسكريا هاما بمملكة موريطانيا حيث أن ابنه بطليموس الذي تولى العرش بعده لم يكن في مستوى والده إزاء المهام الكبرى الملقاة على عاتقه لصالح الرومان، فاستغل الثوار هذه الحادثة وضاعفوا نشاطهم العسكري المعادي لبطليموس وحلفائه الرومان، وكثر عدد المتمردين على المملكة والتحق بهم كثير ممن أخضعهم يوبا الثاني من قبل، فعمت الثورة كلا من نوميديا وموريطانيا مرة أخرى، وعجز بطليموس عن مواجهة الموقف فاستنجد بالإمبراطور.

وكان تكفاريناس قد تلقى مددا عسكريا من ملك الغرامنت، تمثل في تزويده برجال محاربين ومؤن وعتاد، وطلب منه أن يعتبر تراب مملكة الغرامنت عمقا

عسكريا لكفاحه ضد الغزاة الرومان، وألا يتردد في اللجوء إليه كلما ألمت به ضائقة. وأن يودع غنائمه وممتلكاته المنقولة بأرض مملكة الغرامنت لتكون في مأمن من مخاطر العدو الروماني. هذه الأخبار أثبتها تاكيتوس نفسه.

واتخذت الأحداث أبعادا أخرى، من ذلك أن تكفاريناس توصل إلى كسب وتأييد ومساعدة بعض المدنيين الرومان القاطنين في المدن الداخلية بنوميديا، مما يشير إلى استفحال أمر الثورة وعلو شأن قائدها فأصبح المدنيون الرومان يخشون سطوته ويتقربون منه. والحقيقة أن حالة الأمن في جهات أخرى من الإمبراطورية كانت متدهورة وتبعث على الشك في إمكانية تغلب الجيش الروماني على الأعداء أينما كانوا في نوميديا. وذكر تاكيتوس أن هذه الأخبار شجعت كل الراغبين في تحرير نوميديا وإفريقيا على النهوض ومطاردة الجنود والموظفين الرومان أينما وجدوا.

وأثارت أخبار التأييد والمساعدة التي قدمها بعض الرومان المدنيين إلى الثوار النوميديين قلق الإمبراطور. وقد شهدت بعض الأوساط السياسية في روما بما يجري من تواطؤ في نوميديا منددة به ومحذرة من عواقب ذلك على المصلحة الرومانية في شمال إفريقيا، كما نادى بعض أعضاء مجلس الشيوخ بمحاكمة أولئك المتواطئين الذين وصفوهم بالخونة وهو ما يذكرنا بما جرى أيام يوغرطة حسب رواية الكاتب صلوستيوس (Sallustius) التي ورد فيها أن كثيرا من الشخصيات الرومانية تواطأت مع يوغرطة تحت مفعول الرشوة.

ورغم هذا فقد صح عزم الإمبراطور أكثر من ذي قبل على إخضاع نوميديا وقمع سكانها المتمردين بعنف أشد، وذلك بغرض إنهاء حالة الحرب فيها نهائيا. ورأى أنه لا يمكن تحقيق ذلك سوى بالقضاء على تكفاريناس نفسه وعدم الإكتفاء بحملات التأديب التي درج القادة الرومان على القيام بها من قبل موهمين الإمبراطور أنهم حققوا انتصارات يستحقون عليها مواكب التبجيل والشرف بروما. وتأكدت إرادة الإمبراطور بنشاط دولابيلا الذي استهل مهمته العسكرية

بتسليط القمع والإرهاب على السكان وإغراء بعض رؤساء القبائل النوميدية بمنحهم أراضي جزاء انسحابهم من صفوف الثورة ووقوفهم ضد تكفاريناس، وهكذا تمكن القائد الروماني من كسب بعض القبائل فمنحها أراضي بالمنطقة المحاذية لحدود المقاطعة الرومانية من الجهة الجنوبية. كما أنه ضرب أعناق بعض رؤساء قبائل الموزولامي الرافضين لعروضه؛ وبالموازاة مع هذا قام بطليموس بتعبئة المملكة لشن حرب شاملة ضد الثوار المناوئين له وضد حلفائهم النوميديين باتفاق مع دولابيلا الذي أصدر تعليماته إلى بطليموس بتجهيز فرق من أتباعه في عمق المملكة لمراقبة تحركات السكان المناهضين والتصدي للثوار كلما أمكن الأمر.

واتبع دولابيلا خطة سلفه بليزوس في جعل الجيش فرقا ووحدات قليلة العدد وتسليح الجنود بما خف من الأسلحة، وانتهاج أسلوب المباغتة، ويظهر أن هذه الخطة الحربية ما كانت متأتية لجيش روما لولا تمكنه من الحصول على مساعدة بعض السكان، ونجاحه في بث العيون وراء أعدائه الثوار واتصاله الدائم بالمخبرين المندسين في صفوف تكفاريناس. ومما يؤكد هذا الإحتمال أن جيش روما عدل عن حمل العتاد العسكري الثقيل وكذلك المؤونة والذخيرة أثناء تنقلاته في أعقاب الثوار، وهو أمر مستغرب من جيش كان يخوض حربا في أرض الأعداء بعيدا عن مراكز التموين والإمداد لولا أنه كان يعتمد على التمون من بعض السكان ويأوي إليهم عند الضرورة.

وهكذا تمكن دولابيلا من نشر قواته في أغلب المواقع الهامة حاثا إياها على الظفر برأس تكفاريناس الذي أصبحت صورته معروفة لدى الجنود الرومان لكثرة لقاءاتهم به في ميدان المعركة بينما كان الزعيم النوميدي مصمما على مواصلة القتال حتى النهاية على الرغم من فقدانه كثيرا من الرجال في المعارك بمن فيهم ابنه الذي وقع في الأسر أثناء معركة وقعت بالقرب من سور الغزلان (Auzia). وحسب تاكيتوس فإن هذه المعركة كانت بداية النهاية بالنسبة لتكفاريناس الذي أصبح يبحث عن الموت في ساحة القتال حتى لا يقع في الأسر. ولم يطل الأمد به

حتى سقط في إحدى المعارك عندما باغته جيش روماني ليلا بضواحي سور الغزلان فارتبك رجاله من المفاجأة ولم يتمكنوا من تجنب الهزيمة وخسران القائد تكفاريناس.

أحدث سقوط تكفاريناس أثرا بالغا في أوساط النوميديين والمورين وغيرهم. من ذلك أن الثورة تفككت ودانت البلاد للرومان مكرهة، وخشي الغرامنتون على مصريهم فأرسلوا إلى الإمبراطور الروماني يعلنون خضوعهم لسلطان روما. واستحق الملك بطليموس عرفان الإمبراطور فنال من يد مبعوث هذا الأخير قضيب العاج والحلة الأرجوانية المطرزة جزاء العون النافع الذي قدمه للجيش الروماني بقيادة دولابيلا.

وترتب عن إخماد الثورة في شمال إفريقيا أن قام الرومان بإجراءات عملية تعلقت بتوسيع مجال الإحتلال وتعديل وضعية السكان - فشددوا التحصينات وأحكموا المراقبة على مناطق المقاومة السالفة، وقاموا بمصادرة الأراضي الزراعية الخصبة وأجروا عليها عمليات التقنين المعتادة كالمسح والتسجيل والتجزئة إلى وحدات مئينية (كنتورياي)، وتركوا بعض الأراضي الرعوية والجبلية بأيدي القبائل التي تعاونت معهم أثناء ثورة تكفاريناس.

ساد نوميديا هدوء نسبي عقب هذه الأحداث الدامية، استغله الرومان في دعم خطواتهم التوسعية نحو الداخل وذلك بشق الطرق وتمتين الحدود وإنشاء المستعمرات لقدماء الجنود. واستطاع الإمبراطور تيبريوس أن يقضي بقية أيامه على عرش روما مطمئنا على شؤون نوميديا، كما ورث عنه كاليغولا (Caligula) تاج الإمبراطورية في ظل الأمن الروماني (Paxa Romana) الذي كان يبدو أن أجنحته تظلل إفريقيا بكاملها، لكن هيهات.

إن الإجراء الذي أقدم عليه هذا الإمبراطور من جديد بقتله بطليموس غيلة عام 40م. قد حرك سواكن الأمور وهز نفوس الأهالي ومشاعرهم فانتفضوا من جديد ضد الرومان ملبين نداء ثائر جديد هو إيدمون ...

4 – ثورة إيدمون بموريطانيا

حمل إيدمون وكان أحد القادة المقربين من الملك الهالك بطليموس لواء الثأر ممن كانوا أصدقاء المملكة فأضحوا أعداءها اليوم، وتمكن من استنهاض رعايا الملك القتيل، فتحرك القوم من طنجة إلى يول (قيصرية–شرشال)، وهرع سكان المدن والأرياف يقدمون له المساعدة ويشدون من أزره. كما وجد في البدو وأشباههم عضدا قويا شجعه على الوقوف في وجه القوات الرومانية ومواصلة النضال حتى النهاية. وقد تحرك النوميديون مستغلين انتفاضة موريطانيا الشاملة، وعم البلاد كلها اضطراب شديد وقفت الفرقة الثالثة الأوغسطية أمامه عاجزة مما اضطر الإمبراطور كلوديوس الذي خلف كاليغولا إلى استدعاء فرقتين كاملتين من إسبانيا لمواجهة الموقف العسكري المتردي في موريطانيا ونوميديا، وقدر بعض المؤرخين عدد الجيش الروماني الذي شارك في العمليات العسكرية ضد ثورة إيدمون بعشرين ألف مقاتل أوتي بمعظمهم من مقاطعات أخرى على ظهر الأسطول، وتم إنزالهم بموانئ موريطانيا. وقد احتيج إلى تموينهم من خارج البلاد نظرا لكون المنطقة كانت في حالة عصيان فامتنعت عن تقديم القمح ومختلف المؤن إلى الجيش الروماني، فتحتم على الإمبراطور كلوديوس أن يكلف الأسطول التجاري المرابط ببريطانيا بالقيام بمهمة تموين الجيش المحارب في موريطانيا عبر البحر.

وتركزت العمليات العسكرية في منطقتين حيويتين: منطقة الشلف والتافنة ومنطقة وليلى بالمغرب الأقصى، وهما من المناطق التي سبق أن نهضت فيها مستعمرات رومانية للجنود المسرحين، وأخذ استغلال إمكانياتها الإقتصادية بأيد رومانية في إبعاد الخطر الثوري عن تلك الجهات وحماية مصالح روما فيها.

وكانت مهمة إيدمون صعبة، إذ أنه لم يتمكن من كسب ثقة الجميع فعجز عن تعبئة إمكانية البلاد لمواجهة الرومان. ذلك أنّ بعض سكان المدن، ومنهم أهل وليلى (فوليبيليس – Volubilis) قد امتنعوا عنه وقاوموه فنالوا جزاءهم الحسن من قبل

الإمبراطور كلوديوس بإعلانه مدينتهم بلدة رومانية عام 44م. وواضح أنّ ذلك الإستعصاء ناجم عن التأثير القوي الذي خلفته مرحلة التمهيد التي لعب فيها يوبا الثاني وابنه بطليموس دورا إيجابيا بالنسبة للرومان.

وهكذا فشل إيدمون في مهمته رغم شمولية حركته، فتمكن الرومان منه وقضوا على انتفاضته خلال أقل من عامين من العمل العسكري المكثف، وتم إنشاء مقاطعتين رومانيتين بموريطانيا هما مقاطعة الشرق وأسموها «موريطانيا القيصرية» وهي الجزائر الوسطى والغربية حاليا، كانت تمتد من مشارف كرطا شرقا إلى وادي الملوية غربا، ثم مقاطعة الغرب التي أطلقوا عليها مصطلح «موريطانيا الطنجية» نسبة إلى مدينة طنجة التي أصبحت عاصمتها الإدارية، وتغطي هذه المقاطعة جميع البلاد الواقعة خلف نهر الملوية إلى المحيط الأطلسي.

غير أنّ قضاء الرومان على حياة إيدمون وإسكات حركته في الواجهة الشمالية من البلاد وإعلانهم موريطانيا بلادا رومانية لم يضع حدا نهائيا للمقاومة في الواجهة الجنوبية كالسهوب ورفارف الصحراء التي شعر سكانها بأن خطر التواجد الروماني في الشمال أصبح يهددهم خاصة وأن حياتهم الإقتصادية مرتبطة بمناطق الشمال لتعودهم على ارتيادها بقطعانهم في مواسم معينة، أو التعامل مع سكانها تجاريا. فكان الإحتلال الروماني عائقا رئيسيا أمام هذا النفع الحاصل لهم بالجوار.

وتشير المصادر إلى حالة من الإضطرابات سادت المناطق السهبية والتل، تسبب فيها سكان تلك الجهات حيث رفضوا الخضوع للأمر الواقع وواصلوا المقاومة مما اضطر الجيش الروماني إلى تجهيز حملات إخضاع اخترقوا بها السهوب وتعمقوا في رفارف الصحراء. وهي الحملات التي أمر بها الإمبراطور كلوديوس ضد تجمعات البدو في التل تحت زعامة شخص يدعى صبال (Sabal) ولا نعلم إن كان لهذا الشخص علاقة بإيدمون، أو أنه مجرد زعيم قبيلة استطاع أن يجمع ثقة قبائل المنطقة ويقود رجالها ضد المحتلين.

وقد تحمل الجنود الرومان خلال تلك الحملات التي قاد إحداها أوسيديوس (Hosidius Geta) عام 43م مشاق كثيرة من جراء العطش ونفاذ المؤن أثناء تنقلاتهم عبر مناطق قفراء، ولم يكن ظفر الجيش الروماني بقائد المقاومة صبال في الجنوب الوهراني كافيا لجعل السكان يغمدون سيوفهم إذ ظلت المقاومة متواصلة في السهوب الغربية الجزائرية (الجنوب الوهراني) بعد ذلك زمنا طويلا فشكلت مصدر قلق دائم على المؤسسات الرومانية ببلاد التل، وهو ما أجبر المؤسسة العسكرية على اتخاذ إجراءات لإحكام الإحتلال وحماية المناطق الخاضعة لسيطرتها، وذلك بإنشائها شبكة دفاعية في غاية الإحكام، هي الليمس Limes.

3 - التوسع الروماني في الجنوب الجزائري وآثاره الإقتصادية والاجتماعية

كانت الجزائر عرضة لحركة الإستعمار الروماني التي شملت بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط، وظلت فاقدة لسيادتها مدة تقارب الخمسة قرون، ابتداء من سقوط المملكة النوميدية في يد قيصر عام 46 قبل الميلاد إلى سنة 430 ميلادي، وهي السنة التي سقطت فيها هيبو (عنابة) في يد الوندال باعتبارها آخر معقل للمقاومة ضد هؤلاء الغزاة الجدد.

كان اهتمام الرومان بالأرض ينطلق من اعتبارهم لشمال إفريقيا (نوميديا خاصة) كخلفية اقتصادية هامة، تساهم في تغطية استهلاك روما من الحبوب، حيث كانت المقاطعات الإفريقية تزود روما بثلثي حاجتها خلال العهد الإمبراطوري الأول. وهذه النسبة العالية ليست ناتجة عن الخصوبة التي بالغ الكتاب في إبرازها فحسب، بل تعود كذلك إلى سياسة إنتاجية كانت تقوم على مبدأ الإستغلال الشامل لإمكانيات الأرض، وتجنيد الطاقات البشرية، والثروة المائية، لجعل الأرض تنتج أكثر من أجل مواجهة الإستهلاك المتزايد.

كانت السياسة الزراعية في المقاطعات قائمة على مبدأ النوعية المطلوبة، أي أن نوع المزروعات كان خاضعا لطلب القاعدة الإستهلاكية، ومن ثم خصص الرومان مناطق للقمح وأخرى للكروم وأخرى للزيتون، وهكذا ...

وكانت الإعتبارات الإقتصادية دافعا قويا للتحركات العسكرية ضد الأهالي لإرغامهم على الخضوع ودفع الضرائب أو لإجلائهم عن أراضيهم، ذلك أن

الخطوات الإستعمارية التي تلي الإنتصارات العسكرية كانت تستهدف الإستيلاء على مزيد من الأراضي الزراعية بهدف إنشاء المستوطنات قصد مضاعفة الإنتاج، وتوسيع النطاق الجغرافي للهيمنة الرومانية، وهكذا لم تتوقف حركة التوسع إلا عندما انغرست أقدام الجنود والمزارعين الرومان في رمال الصحراء، وعندها أحكموا الحدود ونسجوا شبكة الإستغلال الزراعي بإتقان.

- إختراق المناطق الجبلية

لقد كانت المناطق الجبلية المتاخمة للحدود الرمانية بخلفيتها الصحراوية تعتبر في أعين الرومان منطقة عسكرية واحدة، لكنها تختزن المقاومة وتشكل مصدر قلق دائم وخطر مستمر بما ينطلق منها من تحركات ثورية تعوق حركة الإستيطان الجارية في السهول الزراعية بالشمال، وتحد من التوسع نحو الجنوب، وهو ما كان يحفز المؤسسة العسكرية للقيام باحتلال واسع يشمل بلاد التل وحواف الصحراء.

إلا أن المناطق الجبلية من الأوراس حتى ونوغة كانت تمثل حاجزا صعب الإختراق بالنسبة للرومان، ومن ثم كانت الخطة تقتضي التصدي لهذه الأقاليم المستعصية لإخضاعها أو عزلها عن بعضها كي يتمكن المد الروماني من تجاوزها نحو الجنوب.

وحالما قمعت ثورة تكفاريناس عام 23م، شرع الرومان في تنفيذ الإستراتيجية الوقائية في المناطق الجبلية الجنوبية التي كانت مسرحا لتحركات الثوار، وذلك بإنشاء شبكة من التحصينات تطوق المناطق الجبلية الخطيرة، واختراقها بطرق تمكن الفرق العسكرية من التنقل سريعا عبر تلك المناطق لمواجهة أي تحرك معاد.

- تحطيم البنية الاجتماعية والاقتصادية للسكان

يظهر أنّ شبكة الإختراق هذه لم تحقق الأمن الذي كان ينشده الرومان في تلك المناطق، لذلك شرعوا في تنفيذ خطة أخرى أكثر جرأة من الأولى تمثلت في العمل على عزل السكان عن بعضهم، وتحديد مناطق تواجدهم، وترحيل بعضهم إلى ما وراء السفوح الجنوبية لمرتفعات الأوراس والحضنة، وهي خطة استهدفت قطع الصلة بين القبائل الجبلية المتضامنة من جهة، وفصلها عن القبائل السهبية والصحراوية من جهة ثانية، ثم الحصول على أراض زراعية جديدة تكون مجالا للإستيطان الجديد.

إنّ خطورة هذه الخطة لا تتمثل في تفكيك البنية الاجتماعية للسكان فحسب، بل في كونها أبعدتهم عن أراضيهم التي توارثوها جماعيا منذ القدم، وحتمت عليهم نمطا معاشيا معينا تجسد في تحول قسم كبير منهم إلى الترحل بين الجبال والسهوب والصحراء. ونتيجة لهذا التحول تعاظم عدد القبائل المتنقلة التي أصبحت تشكل ضغطا جديدا غير متوقع على الحدود الرومانية، فتخترقها أحيانا أثناء تنقلاتها الموسمية، وهو ما لم يكن يرضى به الرومان بطبيعة الحال.

إنّ هذه النتائج تسببت في تزايد القلق الروماني على الحدود حيث أصبحت تحصيناتهم مهددة بالتدمير ومؤسساتهم الزراعية عرضة للزوال، ومن ثم كان عليهم أن يعملوا على استكمال سيطرتهم على البلاد، حتى تبلغ تخوم الصحراء.

وابتداء من أوائل القرن الثاني الميلادي، وفي عهد الإمبراطور تراجانوس (98-117)، انطلقت الفرق العسكرية الرومانية في حملات هامة على مناطق البدو في رفارف الصحراء، حيث أمر الإمبراطور كلا من القائدين غلوس (M. Gallus) ونطاليس (M. Natalis) بالإشراف على تلك الحملات، وذلك خلال المدة ما بين 102-105م، وقد أنشأ القائد نطاليس القاعدة العسكرية الشهيرة مايوريس (Ad Majores) الواقعة جنوبي نقرين عام 104م. وأشرف على إنجاز الطريق الرابط بين

هذه القاعدة وبين مدينة تهودة (Thabudoes) قرب بسكرة، وبذلك انتقل «الليمس» (الحدود) الروماني من شمالي الأوراس إلى جنوبيه.

إن انتقال الحدود الرومانية إلى ما وراء المرتفعات كان يستهدف التحكم في الطرق والمعابر الرابطة بين الصحراء والتل، حتى يتمكن الرومان من إتمام عملية الحجز البشري التي شرعوا فيها منذ ثورة تكفاريناس. ذلك أن نظرة فاحصة في التوزيع الجغرافي للقلاع الرومانية وأبراج الحراسة ومختلف التحصينات كالخنادق مثلا، تجعل هذا التفسير أمرا معقولا، فهي مقامة على مخارج الوديان المنحدرة من المرتفعات، وعلى المحاور الرئيسية للمسالك الجبلية، وبصفة عامة مخانق الطرق التقليدية بين الصحراء والتل.

وما دام الأمر متعلقا بتحطيم البنية الاجتماعية والإقتصادية للأهالي فإنّ المنشآت العسكرية التي أنجزها الرومان هناك لم تكن ذات نفع إلا إذا أعقبتها إجراءات تتعلق باستغلال الأرض وتوسيع رقعة الإستيطان في تلك الأقاليم الرعوية التي لا زرع فيها، باعتبار أنها تقع في عروض مناخية جافة (منسوب المطر يتراوح بين 200 و100مم) لكن ذلك لم يكن ممكنا دون إجلاء السكان عنها، والدفع بهم إلى السهوب الغربية أو أعماق الصحراء، ومن جهة أخرى فقد اقتضت تلك المطاردة إجراءات إحتياطية أخرى للحيلولة دون عودة السكان إلى مواطنهم بالقوة. وتمثلت تلك الإجراءات الوقائية في إنشاء حزام عسكري بعمق الصحراء لمواجهة البدو، ومراقبة تحركاتهم وتشتيت تجمعاتهم كلما لاح خطرها. وقد جسم الرومان ذلك الحزام في إنشائهم عدة حصون وقلاع عند المعابر الرئيسية بين الصحراء والتل. فحصن مجدل الذي شيد فيما بين 148 و149م يقع في منطقة العبور بين الصحراء والسهوب الجزائرية الوسطى، أي بين الواحات ومراكز العمران الهامة في بلاد التل كسيدي عيسى والسور (Auzia) وقصر البخاري. كما تعد قلعة مسعد (C. Dimmidi) المتوغلة في الصحراء بمثابة رأس زاوية لمجموعة

حصون أخرى تتوزع على ضلع ممتد من مليلي (جميلي Gemallae) إلى مسعد مكونة محورا دفاعيا هاما يمتد عبر المرتفعات المشرفة على منخفض وادي جدي (Nigris F.)، ومن أهمها حصون عين الريش والقهرة وسدوري (Auzum).

- خطوط المواصلات في الجنوب

ومدد الرومان في الطرق الواصلة بين المراكز العسكرية المذكورة آنفا لتعزيزها ودعم فعاليتها العسكرية، ومن ذلك الطريق الرابط بين طبنة ومنسعد عبر الماء الحي (Aqua viva) وسدوري والقهرة وعين الريش والبرج ثم مسعد وهو طريق معبد، تنطلق منه أو تنتهي إليه عدة طرق ثانوية عبر مرتفعات أولاد نايل والسهوب والصحراء مرورا بقصر نتسيلة وقصر الفج والأغواط.

وفي الجهة الشرقية تم تمديد طريق رئيسي معبد بمحاذاة الشطوط (الجريد – ملغيغ – الحضنة)، إنطلاقا من الطريق الرئيسي الهام (قابس – قرطاجة) ليصل إلى طبنة، وهي نقطة الطريق الصحراوي الأول الآنف الذكر (طبنة –مسعد)، ثم استأنف هذا الطريق العرضاني امتداده نحو الغرب من مكري (Macri) (وهي مقره) إلى تارمونت (Aras)، وهنا يفترق إلى طريقين، أحدهما بمحاذاة السهوب نحو تيارت، والثاني ينحرف شمالا نحو سور الغزلان (Auzia).

ودعم الرومان أو أسسوا على امتداد هذا الطريق العرضاني عدة مدن أو حصون أهمها قفصة (Capsa) الشهيرة، وبسرياني (Ad Majores) وتديرت (Ad Medias) وباديس (Badias)، وتهودة السالفة الذكر، وبسكرة (Vescera)، وطبنة (Thubunae).

وكان هذا الطريق مرتبطا بمراكز الشمال بواسطة شبكة هامة من الطرق المخترقة لمرتفعات التل. ومجمل القول أن تلك الشبكة الدفاعية، مكنت الرومان من

حماية الأقاليم الواقعة خلفها، ووضعها محل استيطان، ذلك أنه عندما تنتهي المؤسسة العسكرية من مهامها المتمثلة في تشتيت السكان، والإستيلاء على أراضيهم، وإقامة التحصينات في وجوههم، كانت المؤسسات المدنية تشرع في توزيع الأرض على المعمرين لاستغلالها، وهذا ما تشهد به نقوش كتابية اكتشفت جنوبي شط الحضنة بمركز روماني قديم يدعى حاليا القلعة El Guelaâ.

- حركة الإستيطان في الجنوب

وأما حركة الإستيطان فيمكن إبرازها في جانبين، أحدهما تاريخي، يتمثل في المراحل الكبرى التي قطعتها تلك الحركة إلى أن بلغت هوامش الصحراء، والمظهر الثاني منهجي، ويتعلق بالأساليب المتبعة، والوسائل المستخدمة.

- الجانب التاريخي

لقد انطلقت حركة الإستيطان منذ سقوط الملكة النوميدية في يد الرومان عام 46 ق.م، مجسمة في إمارة المرتزقة التابعين لسيتيوس (Sitius) الذين منحهم قيصر شمالي نوميديا ليستوطنوا فيه بقوة السلاح، وقد ساعدهم وضعهم العسكري باعتبارهم مرتزقة حروب (جنود محترفين) على توسيع إمارتهم، فانتزعوا الأراضي الزراعية المجاورة من أهلها وأنشأوا فيها إقطاعيات هامة، وبذلك يعتبر مرتزقة سيتيوس أولى طلائع المعمرين في نوميديا.

وفضلا عن هذا النوع من الإستيطان غير الرسمي، عرفت نوميديا أيام قيصر حركة استيطان رسمية، تجسدت في مستعمرات قدماء الجنود الذين منحهم قيصر أراضي نوميدية على طول حدود المقاطعة الرومانية مكافأة لهم على خدماتهم المخلصة، وحماية لظهر المقاطعة الرومانية القديمة (أفريكافيتوس

(AfricaVitus) من خطر الثورة التي كان يقودها الأمير النوميدي أرابيون (Arabion) في نوميديا.

وأثناء خلو العرش الموريطاني (33-25 ق.م) من الزعامة السياسية بعد وفاة بوكوس الأصغر، إنطلقت حركة الإستيطان على طول السواحل الجزائرية، من الوادي الكبير (Ampsaga) إلى تنس (Cartenae)، واستمر امتداد الحركة خلال عهد يوبا الثاني وابنه بطليموس الذي تشير مسكوكاته إلى اشتراكه في عمليات تدشين المستوطنات بمملكته موريطانيا الموسعة.

وابتداء من عام 42م وهو التاريخ الذي أنشأ فيه الرومان مقاطعتين موريطانيتين (القيصرية والطنجية) على أنقاض مملكة موريطانيا الصورية، انفتحت الأبواب على مصراعيها في وجه المهاجرين الإيطاليين الذين ساءت أحوالهم هناك، وضايقتهم الإقطاعيات الكبرى التابعة للأرستقراطية الرومانية. وأخذت إدارة المقاطعات الرومانية على عاتقها مهمة توزيع الأرض الزراعية عليهم بعد انتزاعها من أصحابها كما كان قدماء الجنود يستحوذون على الأرض لإنشاء مستعمراتهم ذات الطابع الزراعي–الدفاعي.

وقد سجلت النصوص القديمة، والنقوش الأثرية أخبار ترحيل السكان من مواطنهم وتحديد مناطق تواجدهم بالأراضي الرعوية، وهو ما أثار المواطنين الأهالي حيث اندلعت ثورة شاملة وعنيفة، ضمت تحت لوائها مختلف المجموعات البشرية موزولاميون وجيتوليون ونوميديون وموريون، وحتى الغرامنت الجنوبيون. وكان الثوار يطالبون باسترجاع الأرض المغتصبة كشرط أساسي لتوقيف القتال، وقد بلغت عملية انتزاع الأراضي أوسع نطاق لها أيام الإمبراطور تراجانوس الذي تمت في أيامه السيطرة على معظم الأراضي الزراعية بالسهول العليا النوميدية–الموريطانية، واشتدت في عهده حركة إنشاء المستعمرات، ومد الطرق فيما بينها، وتحصين الحدود كما سبق ذكره.

وفي عهد هادريانوس تواصلت الحركة جنوبا، ثم أخذ الأباطرة السفيريون (سبتميوس سفيروس، كركلا، إسكندر) على عاتقهم مهمة التوسيع الزراعي فيما وراء الأوراس ومرتفعات الحضنة، أي في سهول الحضنة والزيبان المحاذية للشطوط والملامسة لرمال الصحراء. وقد وجد الرومان أنفسهم أمام السكان الذين كانوا قد أبعدوهم عن التل، فلاحقوهم مرة أخرى.

- الجانب المنهجي

أما الجانب المنهجي في حركة الإستعمار الرومانية فإن طبيعة البحث تقتضي اختصاره في مجالين اثنين، يتعلق الأول بإحياء الأرض والتحكم في الثروة المائية، ويتمثل الثاني في «زيتنة» الزراعة بالجنوب.

إن استصلاح الأرض كان أمرا حتميا نظرا لطبيعة الوسط الجغرافي غير الملائمة للزراعة في تخوم الصحراء، فمنسوب المطر ضئيل (200، 100مم)، وموجات الحرارة، وهبوب الرمال أحيانا، كلها أمور تعيق الزراعة، غير أن المظهر المورفولوجي لتلك الأقاليم جعلها تتوفر على تربة فيضية خصبة، إنحدرت إليها من المرتفعات الشمالية، كما تمتاز بتعرضها لمجاري المياه المنحدرة من نفس الجهة، وبهذه الميزة تصبح الزراعة ممكنة، رغم عداوة المناخ، إذا تم التحكم في المياه الجارية أو الجوفية وتفريغ الأراضي من القطعان وتشجيرها بما يلائم المناخ من الأشجار المثمرة، وعلى رأسها الزيتون والنخيل.

والحقيقة أنّ المخلفات الأثرية الرومانية، التي اندثر معظمها بسبب عوامل الإفناء الطبيعية منها والبشرية، تشهد على منجزات زراعية عظيمة الأهمية، نهض بها الرومان في تلك الأقاليم الرعوية. وبما أنّ عنصر الماء كان يمثل الشريان الأساسي الذي يغذي الحياة هناك، يمكننا ذكر بعض الأمثلة عن المنشآت التي أقامها الرومان لاستغلال هذا العنصر الثمين، معتمدين في ذلك على البقايا الأثرية بطبيعة الحال.

ففي منطقة الحضنة تم العثور على بقايا أثرية لسد كبير كان مقاما على وادي الحامة المنحدر من جبال بوطالب، والمتجه نحو حوض الحضنة، وهو سد كانت مياهه تزود مزارع في المنطقة تنتج الزيتون والحبوب بدليل آثار المعاصر والمطاحن المكتشفة هناك، وقد عثر على العديد من بقايا الخزانات المعدة لتجميع المياه من أجل أغراض مدنية أو زراعية.

وعلى وادي رمضان المنحدر من نفس الجبال والمار بمدينة ماكرى (مقرى عند الإدريسي) وهي مقره الحالية، أقيمت منشآت هامة للتحكم في المياه، منها خزانات وقنوات ري، فضلا عن بقايا الخزانات والمعاصر والمطاحن المنتشرة حوالي الوادي.

وما ذكرناه عن استغلال مياه وادي الحامة ورمضان يصدق عن بقية الوديان الحية المنحدرة من سفوح جبال بوطالب نحو الحضنة، من ذلك أنّ بقايا سدود هامة تنتشر على روافد وادي بريكة العليا، كتلك التي على وادي ملاح، وبمنطقة رأس العيون التي تنتشر فيها خرائب هامة لمستعمرة زراعية رومانية تشهد بقاياها بمدى الإزدهار الزراعي الذي بلغته، وهي تدعى حاليا خربة أولاد موسى (هنشير أخربت). وبمنطقة وادي مساره (أعلى وادي بريكة) السهلية تتواجد أعداد هامة لبقايا عمرانية منها ما يتعلق بمنشآت الري، ومعاصر الزيت، والمطاحن. وأهم ما في الجهة مدينة نقاوس المسماة قديما نسفيبوس (Necevibus) نسبة إلى قبيلة نسيفيس (Necives) التي يبدو أنّ نقاوس كانت حاضرتها الرئيسية، فهذه المدينة العريقة تزخر ضواحيها بمعالم أثرية متنوعة، ذات دلالة واضحة على التقدم الزراعي الذي كان عليه إقليمهما. وقد جاء ذكر نقاوس في كثير من المصادر التاريخية القديمة، منها النقوش الأثرية والسجلات الرسمية وفي النصوص الدينية العائدة إلى فترة الصراع المذهبي مما يدل على شهرتها ومكانتها الإقتصادية آنذاك.

أما بجهات مسيلة فيكفي أن نذكر السدود التي شيدها الرومان على كل من وادي اللحم والقصاب (Piacense F.)، فعلى وادي اللحم لا تزال بقايا سد هام قرب برج الجير ماثلة، مع مجموعة من قنوات الري، بالإضافة إلى آثار المعاصر والمطاحن. وتؤكد بقايا المعاصر، في هذا الإقليم المتصف بالجفاف حاليا، على انتشار الزياتين به أيام الرومان. أما مياه وادي القصاب فقد تحكم فيها الرومان بواسطة سدود وقنوات، ففي شمالي مسيلة بحوالي كيلومتر ونصف تتوضع بقايا سد روماني هام، كان يمد منطقة زابي بالمياه الضرورية لري البساتين، وتموين الضياع، ومنها مدينة زابي (Zabi) الشهيرة الواقعة إلى الجنوب من مسيلة بحوالي أربع كيلومترات.

وتبعث البقايا الكثيفة لأعمال الري، في هذه الجهة، على الإعتقاد في أنّ مياه الوادي كانت أكثر استغلالا، وشبكة التحكم في المياه أشد إحكاما وشمولا من التي أقامها الفرنسيون في هذا الإقليم، فهناك منشآت وسدود لا تزال بقاياها إلى الآن على وديان جافة، أو في أراضي لا زرع فيها اليوم. من ذلك آثار مدينة كانت تنتشر مبانيها على مساحة أربع هكتارات تقريبا، توجد على مشارف السبخة، وتدعى خربة الرصاص، لا تصل إليها مياه الوديان حاليا، مع أنها كانت مزدهرة الزرع والضرع قديما. كما أنّ هناك عددا كبيرا من الخرائب تتوضع شرقي مسيلة تؤكد نفس الإعتقاد.

وإذا اتجهنا شرقا، حيث السهول المحاذية لمجاري الوديان، فإننا نعثر على العديد من بقايا أعمال الإستصلاح وانتشار الزياتين. ويكفي ذكر نتف من ذلك عن مدينة طبنة (Thubunae) العريقة وضواحيها، فهي مدينة عتيقة تقع بين كل من وادي بريكة ووادي مزون، تناقل أخبارها الكتاب القدماء، واحتفظت النصوص الرسمية والنقوش بشيء من تاريخها، فقد بلغت مكانة مرموقة في القديم بفضل وارداتها الزراعية الوفيرة نتيجة السيطرة على المياه واستغلال إمكانيات الأرض الزراعية.

ونظرا لأهمية طبنة الإقتصادية والعسكرية اتخذها الرومان ثم البيزنطيون معسكرا هاما يشرف على تلك الجهات الجنوبية، وتنتشر في ضواحي طبنة بقايا أثرية هامة من صنف منشآت الري والخزانات والمعاصر والمطاحن، خاصة منها تلك التي تتوزّع على طول وادي معزوز المسمى في أسفله بوادي بيطام.

أما منخفض القنطرة الإستراتيجي فيكاد يفوق غيره من حيث بقايا التجهيزات الزراعية المتمثلة في السدود والقنوات وأعمال السقاية، وتنظيم الحقول في شكل زراعة بستانية كثيفة، احتفت ببعض أشكالها القديمة إلى الآن.

ونظرا للأهمية العسكرية التي كانت تمثلها منطقة القنطرة المسماة قديما كالسيوس هيركوليس (Calceus Hirculis)، فقد أقام الرومان مراكز عسكرية هامة وطرقا وخنادق وأبراج مراقبة على جوانب الأراضي الزراعية قصد حمايتها من الغزاة الجبليين أو القوافل العابرة لطريق القنطرة العتيق.

وتتزايد كثافة الآثار الزراعية في المنطقة التي يشقها الطريق الروماني الشهير الواصل بين قفصة وتارمونت، وخاصة في السهول الواقعة إلى الجنوب الشرقي من مرتفعات مغراوة والملاح، أي جنوبي مدينة الوطاية الحالية.

ويلاحظ أنّ المياه المعدنية هي الأخرى كانت محل استغلال في العهد الروماني، حيث أقاموا لهم منشآت صحية واستجمام على حمام الصالحين الذي كان يسمى عندهم أكوا بيسكينا (Aqua Piscina).

وما بقي بارزا من آثار منطقة مليلي (جميلي Gemellae) التي غمرتها رمال الصحراء، يمكننا من تصور واضح لحياة استقرار هامة كانت قائمة على استغلال زراعي جيد أساسه التحكم في المياه الجارية والجوفية معا، بدليل بقايا السدود، والقنوات، والآبار على وادي جدي، ولعل خندق الساقية قد أقامه الرومان بهدف المحافظة على الأراضي الزراعية ومواطن الإستقرار بمنطقة مليلي، وإن كان بعض المؤرخين يفترض أنّ الساقية كانت فعلا قناة ريّ حفرت على وادي جدي.

وعلى مخرج الوادي الأبيض، وشمالي سيدي عقبة، أقيمت منشآت ريّ لتغذية منطقة سيدي عقبة بالمياه، مما سمح بقيام زراعة هامة ومراكز استقرار، أشهرها مدينة ثهودة الواقعة شمالي مدينة سيدي عقبة الحالية ببعض الكيلومترات، وهي مدينة هامة كان ينتشر حولها العديد من المزارع والمستعمرات على امتداد الأراضي المحاذية للوادي.

وقد أشاد الكتاب القدماء بالإزدهار الإقتصادي الذي حققته ثهودة وبكثافة العمران المنتشر في ضواحيها، كما تشهد النقوش وفسيفساء الحمامات والقصور على مدى الثرى وحياة الترف التي كان عليها سكان تلك الحواضر، والتي لم يكن يقل عددها عن مائة قرية أو ضيعة.

وعلى وادي العرب المنحدر من الأوراس تتوضع بقايا آثار حاضرة هامة من حواضر الجزائر العتيقة، هي باديس (بادس عند الإدريسي)، وهي مدينة زراعية هامة استمدت شهرتها من مواردها الزراعية الوفيرة، ومن كونها مركزا عسكريا هاما على الطريق الروماني الجنوبي، ولا تزال بقايا السدود والقنوات ماثلة للعيان شمال المدينة، عند خنقة سيدي ناجي خاصة، وتشهد بقايا معاصر الزيتون والمطاحن الكثيرة على التنوع الزراعي الذي كان قائما في ذلك الإقليم.

وفيما يتعلق بالأعمال الفنية للريّ في تلك الجهات، فإننا نجهل الكثير منها لاندثارها، غير أنّ التصوير الجوي الذي قام به العقيد باراديز (Baradez) قصد الكشف عن آثار الخندق الروماني بتلك المناطق، أظهر لنا بعض المعالم المتعلقة بالريّ، يمكننا وصف إحداها بايجان، وهي على وادي الحي (Aqua viva) بجنوبي القنطرة، فقد أبرزت الصور الجوية بقايا لشبكة ريّ قائمة على روافد الوادي، ومعالم للبساتين المقسمة هندسيا بحسب ما يقتضيه الوضع الطبوغرافي للحقل، كما أظهرت لنا اتجاه قنوات الري وتوزعها ضمن الحقول، بالإضافة إلى تصطيب الأراضي المائلة من أجل حفظ تربتها من الإنجراف، وتمكين المياه من تغذية المزروعات فيها بكيفية شاملة.

أما المزروعات ذات الإعتبار الأول فهي الحبوب والزياتين، وعلى الرغم من وفرة إنتاج الحبوب في تلك المناطق الجنوبية آنذاك، حيث يذهب بعض الباحثين إلى القول بأنه كان يفوق نظيره الحالي بعشرين مرة، فإن زراعة الزيتون هناك تعتبر ذات قيمة تاريخية خاصة، ذلك أن نقل الرومان لشجرة الزيتون إلى الجنوب لم يكن بطريق الصدفة العمياء، ولا الفضولية الطائشة، بل إن ذلك يجسم سياسة زراعية واعية كانت «الزيتنة» إحدى دعائمها الأساسية. وقد كان الإهتمام منصبا على هذا النوع من الزراعة منذ أوائل القرن الثاني ميلادي عندما أخذت عمليات الغرس تتوسع فشملت سهول التل ذات الخصوبة المحدودة، ثم انحدرت المغروسات جنوبا فعمت جهة قفصة وسفوح الأوراس الشمالية فالجنوبية، ثم رفارف الصحراء. وقد كان الأباطرة يشجعون هذه العملية بمنحهم رخصا خاصة لزارعي الزيتون في حقولهم في حين كانت زراعة الكروم محظورة بالمقاطعات الإفريقية.

وإذا كان نجاح شجرة الزيتون في تلك المناطق يجسد انتصارا للإنسان على الطبيعة القاسية، فهو يجسم لنا كذلك السياسة الإستعمارية الرومانية هناك. ذلك أن تشجير المناطق الرعوية كان يتطلب القضاء على البنية الإقتصادية والاجتماعية فيها، والتي كانت قائمة على الفلاحة التقليدية والرعي، ومن ثم كانت أولى الخطوات تقتضي إزاحة ذلك النمط المعاشي، ومنع السكان من التردد نهائيا على المناطق المشجرة زيتونا، فالزيتنة إذن تشكل بالنسبة للرومان زحفا مستمرا ضد الفلاحين التقليديين ومربي الماشية، ومن ثم فمفعولها لم يكن أقل خطرا من مفعول الجيش الروماني في مجال توسيع بساط «الرومنة».

ثم إنّ زراعة الزيتون كانت توفر شغلا موسميا لكثير من اليد العاملة الرخيصة، وبالتالي فهي وسيلة تشغيل لعدد من السكان الذين كان بعضهم يختار الإستقرار بجوار مزارع المعمرين، وهو ما كانت تنشده سياسة الأباطرة في تلك الأقاليم لأن طبيعة الترحل كانت تهدد منشآتهم بالزوال في كل وقت.

ومن جهة أخرى ساهمت زراعة الزيتون في حواف الصحراء على الحد من قساوة المناخ، وتلطيف الطقس، وحفظ التربة من خطر الإنجراف الداهم. كما ساعدت على توفير مادة الزيتون المرغوبة في تلك المناطق، وخاصة من طرف سكان الصحراء، أي أنّ الإزدهار الزراعي بجوار الصحراء مكنت منتجاته المتعددة والوفيرة من تزويد الأسواق الصحراوية بما تحتاجه من المواد الغذائية التي كانت القوافل تشد إليها الرحال لجلبها من مناطق إنتاجها بالتل، ولنا في كثرة المعاصر والمطاحن ما يقوي هذا الإحتمال، خاصة وأنّ معابر القوافل، نحو التل، كانت صعبة الإجتياز بالنسبة لتجار الصحراء لكونها تخضع لإجراءات رومانية، كالرقابة، والأتاوات المرتفعة، والمصادرة أحيانا.

هذا وقد ظلت غابات الزيتون تغطي مساحات شاسعة في المناطق المتاخمة للصحراء إلى الفتح الإسلامي مشكلة أهم مورد اقتصادي للسكان، وهو ما أكدته روايات الكتاب العرب الذين أجمعوا على القول بكثافة عمران المنطقة وبازدهار غاباتها الوارفة الظلال.

- علاقة الرومان بالصحراء

ينطرح علينا أخيرا سؤال مهم، وهو إلى أي حدّ بلغت علاقة الرومان بالتجمعات السكنية في الصحراء، وخاصة منها الواحات المنتشرة في منخفض الصحراء الشمالية الشرقية الجزائرية؟

إنّ ضعف الدلائل الأثرية، وندرة الوثائق الكتابية القديمة المتعلقة بهذا الموضوع تجعل الدارس يميل إلى الجزم بعدم قيام هذه العلاقة أو بضعفها. غير أن الارتباط الجغرافي بين الصحراء والتل، والتكامل الإقتصادي الذي لا ينفصم بينهما، يجعل العلاقة بين هذين الإقليمين أمرا حتميا لا مفر من الإقرار به، بغض النظر عن طبيعة هذه العلاقة ومحتواها. فالوحدة البشرية بين سكان الصحراء

الشمالية والشرقية وسكان التل لم تعرف حدودا، ذلك أن قبائل الجيتول قديما كان بعضها يستوطن الأوراس والبعض الآخر يجوب الصحراء الشمالية الشرقية والسهوب، وقد أشرنا في الصفحات السابقة إلى التداعي الوطني، ومدى الإستجابة التي عمت تلك المناطق أثناء حركات المقاومة التي نهض بها النوميديون في الشمال ضد التوسع الروماني في مستهل العهد الإمبراطوري، ذلك التداعي الذي يؤكد النخوة الوطنية والتناصر القبلي الذي لا يبرره سوى الإحساس بالوحدة الترابية والمصير المشترك.

وقد أدرك الرومان خطورة هذه الظاهرة التي ظلت تهدد مؤسساتهم في كل لحظة، فبنوا علاقاتهم بالأقاليم الصحراوية والسهبية على أساس عسكري، تمثل في تلك الحصون المتقدمة والمشرفة على المسارات الرئيسية بين مناطق التردد البشري، وخاصة بين الصحراء والتل الخاضع لسيطرتهم.

فالعلاقة إذن كانت خاضعة لمبدأ المحافظة على المكاسب الرومانية في الشمال مع الإستفادة من تجارة الصحراء. وهكذا فعلى الرغم من أن الطبيعة الصحراوية حالت دون تواجد روماني بشري في الواحات، إلا أن هذه كانت تشكل أسواقا هامة للتبادل التجاري مع الشمال الخاضع للسيطرة الرومانية.

4 - شبكة الطرق ودورها في تكريس الإحتلال

تحتل شبكة الطرق الرومانية في الجزائر وبلاد المغرب عموما منزلة معتبرة في الخريطة الأثرية العائدة إلى العهد الروماني، كما أنها تتبوأ درجة أولى في خريطة آثار الإمبراطورية الرومانية كلها من حيث أن أكثر من نصف المعالم الميلية الإجمالية التي تضمنتها شبكة الطرق عبر الإمبراطورية احتفظت بها شمال إفريقيا (حوالي 2300 علامة ميلية عثر عليها بشمال إفريقيا من مجموع حوالي 4000 علامة تم إحصاؤها بكامل المقاطعات التي كانت تابعة للرومان).

ولقد ارتبط تاريخ شبكة الطرق بالحالة العسكرية التي سادت البلاد آنذاك، بحيث كان إنشاء الطرق في بداية الأمر عبارة عن إجراء عسكري محض، فالطرق بوصفها وسيلة للإتصال المباشر كانت بالنسبة للجيش الروماني الوسيلة الأكثر فعالية من أجل إخضاع السكان الأهالي وضمان الأمن وتيسير المبادرة العسكرية عند الطوارئ، وفضلا عن ذلك مكنت الطرق الممتدة عبر المقاطعات، إنطلاقا من المدن الكبرى والموانئ، من تجاوز العوائق الطبيعية والأمنية ما بين مركز السلطة في روما والمناطق الداخلية بالمقاطعات وعلى تخومها، كما أتاحت الفرصة لاستغلال إمكانيات البلاد المحتلة اقتصاديا، ولقد مكنت الطرق المنتشرة عبر الأرياف مجتمع المدينة من استثمار الريف وإنمائه لصالحه، وبالتالي ربطه بالمدينة. أي أن الطرق أتاحت الفرص لبرجوازية المدن كي تتصل بمجتمع الريف وتستغله.

ومن جهة أخرى ساهمت شبكة الطرق في تنشيط حركة الإستيطان عبر المناطق الزراعية وتشجيع عناصر السكان الوافدين (المستوطنين) على الإقامة

بالمناطق النائية التي تتوفر فيها الحماية العسكرية ووسائل الإتصال. وبهذا فقد ارتبطت حركة الإستيطان بتاريخ إنشاء الطرق وتطورها. وهو ما يسمح بالقول بأن عملية إنشاء الطرق كانت تدخل في منظور إمبريالي واسع.

- نظرة على وضعية المسالك والدروب قبل الرومان

رغم غياب الشواهد الأثرية الواضحة فإنه يمكن القول بأن بلاد المغرب كانت تتوفر على طرق ومسالك قبل الإحتلال الروماني. ذلك أن كثيرا من مراكز العمران الداخلية كانت مزدهرة في العهدين القرطاجي والنوميدي وأن ذلك الإزدهار لا بد أنه كان قائما على وسائل الإتصال بما فيها الطرق. ثم أنه لا يستبعد أن السلطة المركزية القرطاجية أو النوميدية كانت تعتمد على طرق المواصلات لبسط نفوذها وسيادتها على الأقاليم الداخلية، كما أن حركة التجارة التي عرفت ازدهارا ملحوظا قبل الإحتلال الروماني كانت معتمدة على وسائل النقل البري والبحري فضلا عن تأمين طرق القوافل بالداخل. وليس هناك من يجادل في الصلة التجارية الوطيدة التي كانت قائمة بين القرطاجيين وإفريقيا ما وراء الصحراء عن طريق حركة القوافل التي أوصلت منتوجات إفريقيا السوداء إلى أسواق حوض المتوسط، كما كان ملوك نوميديا يبادلون منتوجات بلادهم بمنتوجات شعوب متوسطية، ولا سبيل إلى تعليل ذلك الإزدهار التجاري إن لم نتوقع توفر الدروب والمسالك الموصلة بين مراكز الإنتاج المختلفة والأسواق الداخلية والموانئ المعدة للتصدير نحو الخارج.

ويحسن الذكر هنا أن ظاهرة التنقل بين السهوب والتل التي درج عليها الرحل منذ آلاف السنين، قد ترتب عنها إحداث مسالك معينة عبر مناطق الترحل وفي الإتجاهات المعتادة. كما اقتضت ضرورة المناخ الجاف وقلة المياه الجارية مرور تلك الدروب والمسالك بمعالم المياه (آبار-ينابيع-وديان إلخ...)، ولقد اهتدى

الرومان فيما بعد بتلك المعالم وراعوها في إنشاء طرقهم، كما اقتفوا آثار الرحل في ذلك، حيث شيدوا طرقهم الطولية (شمال-جنوب) على تلك الدروب والمسالك الطبيعية، من ذلك أن إلقاء نظرة عابرة على شبكة الطرق الرومانية بالجزائر تكفي للتأكد من أن الطرق المخترقة لمرتفعات الأوراس والحضنة والتيطري والونشريس قائمة على معابر القوافل بين الجنوب والشمال (الصحراء والتل) وعلى مسالك القطعان بين السهوب الرعوية والسهول الزراعية الشمالية.

ثم أن الجيش الروماني كان يستخدم الدروب والمسالك التقليدية أثناء حملاته العسكرية الأولى ضد الأهالي، خاصة في المناطق الجنوبية التي اضطرته لاختراق المرتفعات الشمالية الوعرة معتمدا في ذلك على مخبرين ومرشدين من أهل البلاد. وقد لاحظ باراديز (J. Baradez) بهذا الشأن أن إقامة المعلم الميلي ليس سوى دلالة على أن مسلكا ما قد أصبح طريقا رسميا للعربات منذ ذلك اليوم الذي نصب فيه ذلك المعلم الميلي على يد مسؤول روماني ما. وعليه فإن وحدات الإحتلال الروماني المتمركزة بالداخل ظلت معتمدة في اتصالاتها وتحركاتها العسكرية على دروب ومسالك الأهالي مدة طويلة، إذ نعلم أن أبكر الطرق التي أقامها الرومان ببلاد المغرب لا تتوغل إلى أبعد من عام 14م.

وفي سياق الإشارة إلى ما قبل الرومان يجدر التذكير بأن المعالم الميلية الرومانية المكتشفة ببلاد المغرب ذات أشكال مغايرة للشكل الأسطواني المعروف بإيطاليا وغيرها، إذ أنها تأخذ شكل الأنصاب المعروفة بهذه المنطقة، مما يدعو إلى التفكير في احتمال تبني الرومان لأشكال من علامات الطرق المحلية.

-مراحل إنشاء الطرق

بيّن صلاما (P. Salama)، ولم يخالفه غيره في ذلك حتى الآن، أن أول طريق استراتيجي أقامه الرومان بمنطقة الشرق النوميدي تم إنشاؤه عام 14م. على أيدي

جنود الفيلق الثالث الأوغسطي، وهو طريق كان يربط منطقة شمال شرقي الأوراس بخليج قابس انطلاقا من مقر الفيلق المذكور الذي استقر أول الأمر بحيدة (Ammaedara) ثم تبسة (Theveste) نحو ميناء قابس (Tacapes) مرورا بقفصة (Capsa) مجتازا مسافة 300 كلم. وقد قام بروقنصل مقاطعة إفريقيا يومها، ويدعى أسبويناس (Aspoenas) بتدشين ذلك الطريق رسميا، وكان الهدف الإستراتيجي من وراء ذلك الإنجاز تسهيل عملية التمون من خارج إفريقيا عن طريق ميناء قابس والسيطرة على منطقة السهوب التونسية الجزائرية التي كان سكانها في حالة ثورة مستمرة هددوا بها المقاطعة الرومانية. واكتفى الرومان بهذا لمدة سنوات قضوها منصرفين للإهتمام بالعمليات العسكرية ضد السكان الثائرين بمنطقة الأوراس وما جاورها. وابتداء من عهد فيسباسيانوس (69-79م) شرع في تمديد الطريق العرضاني (قابس–تبسة) نحو الغرب بمحاذاة الأوراس ويملزمة وجبال الحضنة، فبلغ لماصبا (Lamasba)، مروانة، ثم زاري (Zarai)، زرايا، عام 75م، وبذلك أصبح التنقل متاحا لفرق الجيش بجوار المناطق المرتفعة المذكورة ومراقبة تحركات السكان ما بين جنوبيها وشماليها، أي أن ذلك الإنجاز العسكري مكن من تأمين السهول العليا الشرقية ذات الطابع الزراعي (سهول قسنطينة وسطيف)، ووضعها موضع الإستغلال والإستيطان. ولعل إنشاء مستعمرة في سطيف (سطيفيس Sitifis) وجميلة (كويكل Cuicul) في عهد الإمبراطور نيرفا (96-98م) كان ضرورة عسكرية حتمت القيام بها حركة الإستيطان التي يبدو أنها اشتدت في تلك السنوات، وذلك لمواجهة تحركات السكان بمرتفعات البابور.

وقد واصل الأباطرة الأنطونيون سياسة سابقيهم الفلافيين التوسعية واستمروا في مشاريع إنشاء الطرق والحصون والمستعمرات، حيث أنشأ تراجانوس (98-117م) معسكر تموغادي (Thamugadi) عام 100م. والظاهر أن هذا الإمبراطور أدرك أن منابع الخطر تكمن فيما وراء مرتفعات الأوراس، إذ يبدو أنه لاحظ أن

ضغط القبائل الجنوبية المتعودة على الإنتقال الموسمي إلى سهول التل الكبير فاتخذ قرارا بنقل الحدود إلى ما وراء الأوراس، وذلك بإنشاء مراكز محصنة عند معابر البنو وربطها ببعضها بواسطة شبكة طرق هامة، وهكذا أمر الإمبراطور المذكور بإنشاء طريق حنو بلاد النمامشة وإقامة حصن أدمايوريس (AdMajorcs)، بسرياني، وذلك عام 105م. وتواصل تمديد ذلك الطريق غربا إلى موقع تابوديوس (Thabudios)، تهودة، ثم إيصاله بالطريق الطولي القادم من لمبيز (Lambaeses)، تزولت، عبر مخنق القنطرة.

وهكذا أصبح الإتصال متأتيا بين لمبيز وقابس عبر طريقين، أحدهما شمالي الأوراس والآخر يمر جنوبه، أي أن الأوراس وضع في معزل وطوق من جميع جهاته، ولم يبق سوى تقطيعه بواسطة طرق طولية تربط بين الطريقين الإستراتيجيين (الشمالي والجنوبي)، وهو عمل تم إنجازه في السنوات التالية لعهد تراجانوس، حيث عمل خلفه هادريانوس (117-135م)، على تدعيم شبكة الطرق والتوغل بها إلى أبعد الحدود بجنوبي الأوراس منشئا مركز جميلاي (Gemillae)، القصبات، على مقربة من مجرى وادي جدي، وواصل اختراق مرتفعات الأوراس وبلزمة عبر الوديان العميقة والفجاج الموصلة بين الشمال والجنوب بواسطة طرق مجهزة بتحصينات منيعة، منها مثلا طريق لمبيز-جميلاي (طوله 75 كلم) الذي يفصل الأوراس عن مرتفعات متليلي الحيوية ويعزله عن منطقة الجنوب الشرقي، وطريق لمبيزالوطاية (Mesarfelta)، بالإضافة إلى طرق أخرى لا يسع المجال لذكرها هنا.

وفي عهد هادريانوس تواصل تمديد شبكة الطرق الإستراتيجية غربا بأراضي مقاطعة موريطانيا القيصرية، حيث تم إيصال طريق هام إلى مشارف وادي تافنة انطلاقا من أوبيديوم نوفوم (Oppidum Nuvum)، عين الدفلة، نحو مركز ألبولي (Albulae)، عين تموشنت وذلك عام 119م، وهو طريق يحاذي سهل شلف ويمنع عنه

ارتياد القبائل الذاوية فيما وراء جبال الونشريس، ثم ما لبث هادريانوس أن طور هذه الشبكة بإنشائه مركز رابيدوم (Rapidum)، سور جواب، عام 122م، وإيصاله بطريق داخلي هام اخترق به فجاج وسهول التيطري الداخلية ليصل المركز الجديد بمركز أوزيا (Auzia)، سور الغزلان، وذلك عام 124م. ثم تمدد هذا الطريق غربا فوصل قلعة تاناراموزا (Thanaramosa)، البرواقية، كما وصلت هذه القلعة بطريق الشلف بإنشاء طريق طولي يفصل بين التيطري والونشريس. ويظهر أن الطريق الواصل بين موريطانيا القيصرية ونوميديا، انطلاقا من معسكر أوزيا عبر طبنة (Thubunae)-زاري-لمبيز قد شرع في إنجازه، إن لم يكن قد استخدم، منذ عهد هادريانوس، أو خلال السنوات اللاحقة لنقله مركز قيادة الفيلق الثالث الأوغسطي إلى لمبيز عام 128م بعد أن كان مركز جميلاي Gemillae، القصبات، برفارف الصحراء الشمالية قد عمر بعد من طرف كتيبة الجنود الخلكيدونيين عام 126م وإن كان المبنى الرسمي لهذه الكتيبة لم يدشن رسميا سوى عام 132م على يد هذا الإمبراطور نفسه.

ويظهر أن منشآت الطرق والمراكز العسكرية والمدنية الرومانية تعرضت لمقاومة عنيفة بمنطقتي التيطري والونشريس، وأنّ الثورة قد استفحلت وكسبت زمام الموقف فعجزت القوات الرومانية المحلية عن إيقاف خطرها، ويبدو أنّ القوات المرابطة بموريطانيا القيصرية أصبحت مشلولة خلال أربيعينات القرن الثاني (بعد هادريانوس)، الأمر الذي أجبر الإمبراطور أنطوان بيوس على تعبئة قوات إمبراطورية إضافية من المقاطعات الأخرى وإرسالها إلى موريطانيا والجنوب النوميدي، والظاهر أيضا أن سخط الأهالي قد عم جهات أخرى من نوميديا أيضا، بحيث أن الحملات العسكرية الرومانية المدعمة بفيالق أوتي بها من خارج إفريقيا اجتاحت منطقة غربي الأوراس في طريقها نحو الجنوب المضطرب، وذلك ابتداء من عام 145، ونجم عن ذلك قيام تلك القوات بإصلاح ما تم تخريبه على يد

الثوار وإنشاء طرق ومراكز دعم إضافية، منها مثلا مركز (AdCalcius) ومركز مجدل عام 146.

وقد جيئ بالقوات الإضافية من مقاطعات سوريا وجرمانيا وإسبانيا ومنطقة الدانوب، وتم إنزالها بالنسبة لموريطانيا القيصرية، بموانئ روعيت فيها الضرورة العسكرية.

وقد روى بوزانياس (Pausanias) بخصوص نتائج تلك الحملات أنّ ثورة الموريين قد أخمدت فأصبح بذلك جميع التراب الإفريقي محررا، وتم تهجير من بقي من القبائل المتمردة إلى أقاصي ليبيا والأطلس. مما يشير إلى ضخامة العمل العسكري الذي قامت به القوات المحمولة من الخارج وآثاره البالغة على السكان.

ومن جهة أخرى قامت تلك القوات بجهد كبير في تكريس الإحتلال وإكسابه طابع الديمومة، وذلك بإنشائها شبكة طرق إضافية تربط بين حوض الشلف والسفوح الجنوبية لمرتفعات التيطري والونشريس، قصد إحكام الحصار حول المناطق الجبلية التي كانت مصدرا لتلك القلاقل.

وبعد هذه الأحداث العسكرية الكبرى التي خلفت بصماتها على الخريطة الأثرية ممثلة في النقوش وبقايا الحصون والطرق، اعترى حركة تمديد الطرق العسكرية فتور نسبي لم يدم طويلا، ذلك أن الإمبراطور سبتميوس سفيروس (193-211م) وضع حداً لذلك بشروعه في إعطاء دفع جديد لحركة الإستيطان والتوسع العسكري بجميع الولايات الإفريقية موسعا بذلك من شبكة الطرق ومتوغلا بالليمس (الحدود العسكرية) إلى أقصى حد ممكن، حيث بلغ به غدامس (ملتقى طرق قوافل الصحراء وإفريقيا السوداء)، كما نقله إلى جنوبي مرتفعات أولاد نايل بالجنوب الجزائري عندما أنشأ قلعة دميدي (Castillum Dimmidi)، مسعد، الشهيرة عام 201، فعزز بذلك جبهة الدفاع الرومانية بالجنوب النوميدي-الموريطاني المواجهة للبدو. كما أنه متن شبكة الطرق وأحكمها عبر المنطقة الفاصلة بين

شطوط الحضنة–ملغيغ–الفجاج، التي تعد معبرا طبيعيا بين الصحراء وبلاد التل، كما أنشأ طريقا استراتيجيا جديدا جنوبي التيطري – الونشريس – فرندة – بني شقران – تسالا يصل المركز الروماني أراس (Aras)، تارمونت، القائم شمال غربي منخفض الحضنة بمعسكر الخيالة السوريين (نمروس سيروروم Numerus Syrorum)، مغنية، مرورا بغرميدي وعين توتة وبوغار وهيبرنا (قلعة أولاد هلال) وعيون سبيبة ولوكو (Lucu)، تيمزيوين، وبوماريا (Pomaria) تلمسان. وتم ربط هذا الطريق المحاذي للسهوب الغربية (النجود) ذات الطابع الرعوي بالطريق المحاذي لمرتفعات الحضنة المتصل بمراكز التل (زاري–سطيف–لمبيز).

ويرجح براديز أنّ الطريق الذي اكتشفه بالطائرة، والواصل بين أوزيا (سور الغزلان) وجميلاي (القصبات) مرورا بسدوري (Ausum) يكون قد أنجز في عهد الأباطرة السفيريين، وهو طريق يختصر المسافة الكبيرة ما بين أوزيا وجميلاي إلى حوالي 150 ميلا رومانيا (حوالي 230 كلم)، كما تم ربط الطريقين العرضانيين بموريطانيا القيصرية (وهما طريق الشلف وطريق السهوب) بطرق متعامدة معهما مرورا بفجاج ووديان المرتفعات الفاصلة بين الطريقين المذكورين، وهو عمل مكن من وصل المراكز العسكرية والمدنية المتواجدة عبر الطريقين الكبيرين ببعضهما، فضلا عن أن تلك الطرق المتعامدة ساعدت على إحكام الحصار حول المرتفعات ومراقبة حركة المرور ما بين السهوب الغربية.

ونقتصر هنا على ذكر بعض الطرق الطولية المتعامدة مع طرق التخوم العرضانية كالتالي:

1 – لمبيز – تبوديوس – جميلاي – عبر القنطرة.

2 – سطيف – زاري – طبنة – الوطاية – جميلاي.

3 – سطيف – طبنة – زابي – بوسعادة – حصن مجدل أو القهرة – عين الريش – قلعة دميدي (مسعد).

4 – أوزيا – سدوري – جميلاي.
5 – تانارامورزا (البرواقية) – بوغار.
6 – سوفازارا (عمورة) – هبيرنا (أولاد هلال).
7 – كاسترانوفا (المحمدية) – لوكو (تيمزيوين).
8 – ألبولي (عين تموشنت) – بوماريا (تلمسان).
9 – سيغا Siga – نمروس سيرورم (مغنية).

وهكذا بلغت شبكة الطرق الرومانية أكثر مظاهرها انتشارا وإحكاما، وبرزت محاورها الإستراتيجية المارة من الشرق إلى الغرب ممثلة فيما أسميناه بطرق التخوم، وهي كما لاحظنا سلفا قد امتدت من الشرق إلى الغرب محاذية السفوح الشمالية لمرتفعات الأوراس والتيطري والونشريس في مرحلتها الأولى، ثم امتدت فيما وراء هذه المرتفعات كي تحاذي الصحراء شرقا والسهوب (النجود) غربا، مشكلة أحزمة محكمة طوق بها الجيش الروماني المناطق المرتفعة في كل من نوميديا وموريطانيا القيصرية.

– المنشآت العسكرية والمرافق القائمة على طرق التخوم

بالنظر إلى الدور الإستراتيجي الذي لعبته الطرق في احتفاظ الرومان بشمال إفريقيا عدة قرون، فإن الضرورة العسكرية المتمثلة في اليقظة الدائمة وحالة الإستنفار الكامل، استدعت قيام الجيش بإقامة منشآت مكملة للطرق. منها ما يتعلق بحماية الطريق وتدعيم فعاليته العسكرية كالخنادق والأسوار المحاذية له، خصوصا في المناطق الخطرة، ومنها ما هو في صورة مرافق متنوعة كالقلاع والحصون وأبراج المراقبة ومراكز الحراسة والصيانة ومحطات الإستراحة، أو خزانات المياه والعيون والآبار، وكذلك محطات البريد ومخازن الأتاوة العينية «الأنونا».

ولقد احتفظ الجنوب النوميدي بأوضح البقايا الأثرية عن منشآت الدعم والوقاية العسكرية كتلك الخنادق التي اصطلح على تسميتها «بالفوساتوم» الذي اعتبره المؤرخون ورجال الآثار أكثر أعمال الرومان الدفاعية شهرة في مواجهة البدو وتثبيت الوجود الروماني وحمايته، وأفضل الأمثلة المادية عن إرادتهم الصلبة وتحديهم القوي لمقتضيات الطبيعة والمناخ السيء في تلك المناطق.

تنتشر بقايا «الفوساتوم» بجهات معينة (جنوب مرتفعات الأوراس والحضنة) خصوصا في الأماكن المتصفة بالخطورة العسكرية، من ذلك مثلا أنه يوازي الطريق أو يعانقه بمنطقة القنطرة، كما يسايره في الجهة الممتدة من طبنة إلى الوطاية، ولا يبتعد عنه خلال المسافة الممتدة من جميلاي (القصبات) إلى أدمايورس (بسرياني) لمسافة بضع عشرات من الكيلومترات، كما أن «الفوساتوم» كان يحمي الطريق الرابط بين زاري وطبنة في عدة أماكن من مساره، وخاصة عند مروره بجنوبي مرتفعات بوطالب لرد الخطر المحتمل من المناطق الجبلية المطلة على ذلك الطريق.

و«الفوساتوم» باعتباره إجراء وقائيا ووسيلة تحكم في تحركات السكان وتوجيه تنقلات البدو، كان يعمل متظافرا مع الطريق الإستراتيجي لتحقيق هذه الأغراض العسكرية. ذلك أنه إذا كان «الفوساتوم» حاجزا ثابتا يحمي الطريق والحدود في آن واحد فإن الطريق بمرافقه المختلفة كان ذا حيوية بالنسبة للجيش عندما يستدعي الأمر تدخله السريع لمواجهة حالات المداهمة المفاجئة التي كان يتعرض لها «الفوساتوم» من حين لآخر من طرق البدو. وبهذا كان الطريق وسيلة إدراك عاجل في حين أنّ «الفوساتوم» كان أداة حجز ثابتة.

أما مراكز الحراسة المتمثلة في الحصون والقلاع (Castra Castillum) التي كثر ذكرها بالجزائر الرومانية واحتفظت الآثار ببقايا الكثير من أساساتها، فإنه يكفي إلقاء نظرة إحصائية عامة على ما تضمنه أطلس الجزائر الأثري من إشارات إلى

هذا النوع من المنشآت للتأكد من أنها كانت كثيرة وهامة وموزعة بكيفية روعيت فيها الفعالية العسكرية التي جسدها موقعها في مسارات الطرق ومحاورها الرئيسية وتوزعها بكيفية تستجيب للضرورة الطوبوغرافية والأمنية معا. فطريق الشلف مثلا ظلت كثير من مراكزه محتفظة باسمها العسكري، ومنها: كاستيلوم طنجيتانوم (Castillum Tingitanum) (الأصنام، مدينة شلف الحالية) وغادوم كاسترا (Gadum Castra) (مرجة سيدي عبيد)، وكاسترا نوفا (Castra Nova) (المحمدية)، كما يمكن أن نورد أمثلة أخرى من حصون وقلاع الجنوب النوميدي المقامة على الطريق الحدودي هناك، منها ما هو محاذي للخندق المعروف بـ«ساقية بنت الخراص» من الجهة الشمالية، ومنها ما هو موزع عبر الطريق الرابط بين طبنة وبسرياني. ومنه مثلا كاستروم أكراس هيراكوليس (قرب القنطرة)، وكاستروم (هنشير صيلاوين)، وكاستروم الوطاية (ميزارفيلتا)، وكاستروم تبوديوس (بسرياني).

هذا وينبغي أن نشير إلى أن معظم المراكز التي تؤدي وظائف عسكرية على طول طرق التخوم لم تكن كلها تدعى بالحصون أو القلاع، بدليل أن كثيرا من المراكز العسكرية الشهيرة لم يحمل هذا الإسم، ومنها على سبيل المثال مركز أوزيا (سور الغزلان)، ومركز رابيدوم (سور جواب)، ومركز طاتيلي (تعراس)، وكذلك مركز جميلاي (القصبات) وغيره. هذا مع الإشارة إلى أن كثيرا من المراكز العسكرية الأخرى التي كانت قائمة في عرض الطرق الإستراتيجية كان معروفا باسم الحامية العسكرية التي كانت تعسكر فيه، من ذلك مركز كوهوربريو كوروم (Cohorrs Preucorum) الواقع غربي فرندة، ومركز آلي سيباستيني (Alae Sebastinae) بموقع هبيرنا (قلعة أولاد هلال)، إلى الجنوب من ثنية الحد، ونمروس سيروروم (الفرسان السوريون) (Numerus Syrorum) بمغنية، وغير ذلك كثير.

هذا وقد اختلفت أهمية تلك الحصون والقلاع باختلاف أهمية الإقليم والموقع الذي تتواجد فيه من الناحية العسكرية ومن ثم فقد تفاوتت أحجام بناءاتها سعة

ومتانة، غير أن وظائف كتائبها تجلت في أنها كانت تعتبر قوات خلفية بالنسبة لليمس متأهبة للتدخل كلما لزم الأمر، فهي مسؤولة على حفظ الأمن في أقاليم داخلة ضمن خريطتها العسكرية فتقوم بالسهر على مراقبتها عن طريق السرايا وفرق الإستطلاع وأبراج المراقبة والحراسة المنتشرة فيها.

وقد روعي في اختيار مراكز القلاع والحصون جانب الفعالية العسكرية والسيطرة على مراكز الخطر، فأقيمت بملتقيات الطرق ومعابر القوافل ومسالك القطعان، وكذلك بالأماكن المرتفعة المطلة على المساحات الواسعة أو تشرف على امتداد أكبر للطريق المقامة عليه. وإذا تتبعنا مواقع هذه المنشآت على الخريطة الأثرية نتأكد من أنها كانت موزعة بشكل جعل منها أشبه شيء بالأوتاد القوية في شبكة الطرق وبوابات العبور ما بين المناطق الواقعة خلف الليمس وتلك التي تمتد أمامه، الأمر الذي أهل الكثير منها لأن تصبح مراكز استيطان عسكري أو مدني.

ويلي الحصون والقلاع في الأهمية بالنسبة لطرق التخوم مراكز الصيانة وحفظ الأمن وأعمال الشرطة أو الجمارك، والتي تدعى بورغيس (Burgis)، وكان يقيم بها رجال المليشيا المكلفين بصيانة الطرق وترميم التالف منها فضلا عن إجراءات الحدود الجمركية وما يتبع ذلك من أمور متعلقة بالأمن العام، وتحتفظ الشواهد الأثرية بالكثير من أسماء هذه المنشآت، منها مثلا بورغوس سبيكولا توروس (Burgus Specula Torus) الذي أنشئ في عهد الإمبراطور كاراكلا (211-217) بمخنق القنطرة. وبورغوس آخر على مسافة من هذا تدعى خرائبه بقصر سي الحاج وبورغوس أوزينانسي (Burgus Uzinansi)، الواقع غربي مركز بوغار على الطريق المحاذي لسهوب موريطانيا القيصرية.

أما الأبراج (Turris) فقد كانت كثيرة جدا نظرا لفعاليتها في حراسة الطرق، وهو ما تدل عليه شبكة توزعها على جانبي الطريق بكيفية روعي فيها حسن السيطرة على المسافة المحروسة والنظرة الممتدة، حتى أنّ الحواجز الطبيعية التي

تعوق النظرة البعيدة أو تخفي الطريق عالج العسكريون الرومان مشكلها بمضاعفتهم عدد الأبراج ووضعها على أبعاد تمكنها من التشارك في أداء مهمتها، كما أوجدوا مخرجا للمأزق الناجم عن الثنايا والأكمات المجاورة للطريق بإنشائهم أبراجا مشرفة عليها من أجل الإطلاع على ما يمكن أن يختفي خلفها من خطر على الطريق.

وكانت الأبراج المنتشرة على مسافات معينة تقوم بدور نقل الإشارة المرئية، من برج إلى برج إلى أن تصل مركز القيادة الرئيسي، وهذا ما يفسر تواجد بعض الأبراج بالأكمات والربى المطلة على بعضها والواقعة على مسافات تتيح فهم الإشارة البرقية من البرج المجاور حتى ولو اقتضى الأمر إنشاء أبراج بعيدة نسبيا عن مسار الطريق، وبهذا فالبرج كان يؤدي دور الحراسة والإستطلاع ونقل الإشارة العسكرية في آن واحد، مما كان يمكن القيادة العسكرية المتمركزة في الحصون والقلاع الخلفية من الإطلاع عن كثب على تحركات السكان بمنطقتها العسكرية وتتبع ما يجري عبر الطرق، واتخاذ الإجراءات اللازمة في الوقت المناسب كلما بلغتها أنباء تستدعي ذلك.

ولقد اقتضى نظام البريد العمومي (Cursus publicus) الذي نشط كثيرا بفضل شبكة الطرق المنتشرة عبر ولايات الإمبراطورية كلها، إيجاد محطات في الطريق، كانت بمثابة الواصل بين الرحلات اليومية تدعى مانصيو (Mansio) أي المأوى أو المبيت، موزعة على مسافات متناسبة مع سرعة البريد ومسافة الطريق التي يجتازها يوميا، وكانت في الغالب تتراوح بين 30 و40 ميلا رومانيا، أي ما يعادل 40 و60 كلم. وهي مسافة كان يقطعها البريد بسرعته المعتادة، وبما أنه كان مفروضا على البريد عدم التوقف للإستراحة خلال النهار فإن طريقه كان مزودا بمحطات ثانوية موزعة على مسافات أقصر تتراوح ما بين 10 و12 ميلا، أي 15 و18 كلم، مزودة بمركوبات للتعويض، تقف عندها قافلة البريد لتغير دواب الحمل أو الجر، وتدعى تلك المحطات بمراكز القرن Mutatio.

وكانت إدارة ضريبة التموين (Annonae) بمصالحها المختلفة حريصة على العناية بهذه المحطات الحيوية، فزودتها بالتجهيزات الضرورية والوسائل اللازمة كاسطبلات الدواب ومخازن المؤونة وفنادق الإستراحة. وقد تطور بعض تلك المحطات فكبر حجمه واتسع عمرانه، ويذهب صلاما إلى القول بأن تلك المحطات أخذ طابعا سياحيا كما يستدل من أسماء بعضها مثل أدميدياس (Admidias) (إلى منتصف الطريق)، وأدستورنوس (Adsturnus) (إلى الزرازير)، وأد دراكونييس (Ad Dracones) (إلى التنين)، وكلها مراكز مشهورة في خريطة الطرق الرومانية بشمال افريقيا.

وسواء تعلق الأمر بالمانسيو أو الموتاسيو فإن هذه أو تلك كانت مرافق هامة بالطريق مشكلة مع الأبراج والحصون السالف ذكرها مراكز حيوية في خريطة العمران الروماني جاعلة من الطريق شريانا ينبض بالحيوية والتأهب الدائم.

أما نتائج هذه الأحزمة العسكرية فيمكن أن نجملها فيما يلي:

لقد عبرت تلك الطرق المحصنة، وهي جزء أساسي من «الليمس» عن رغبة الرومان في الإنتفاع بوجودهم في البلاد عن طريق استغلال إمكانياتها الزراعية والإستئثار بالأرض من دون أهلها، وهو أمر كان يتماشى وطبيعة احتلالهم بوصفه احتلالا استيطانيا اعتمد على الزراعة والعمران المدني ونبذ كل أشكال التحرك البشري الذي يعوق حركة الإستعمار والتحكم في استغلال الأرض استغلالا نافعا. وقد دلت تلك المنشآت عن خشية الرومان من ظاهرة البداوة التي بذلوا جهودا مضنية من أجل إبعاد خطرها عن الأقاليم الواقعة تحت سيطرتهم، فقاموا بمطاردة الرعاة بالسهوب الجزائرية التونسية منذ الوهلة الأولى لاحتلالهم تراب قرطاجة، ووضعوا لذلك حاجزا شهيرا (فوساريجيا) كما أبعدوا القبائل النوميدية المتحركة بعد احتلالهم لنوميديا وضربوا بينها وبين مضاربها الموسمية بحواجز منيعة.

وبتزايد الحاجة إلى الأرض الزراعية التي تسبب فيها توافد المستوطنين المتواصل دعت الضرورة إلى اتخاذ إجراءات عسكرية قصد الحصول على مساحات زراعية إضافية ومنع تردد الجبليين أو الصحراويين (البدو) عليها، مما تطلب القيام بتوسيع خريطة الإحتلال وضم الأقاليم الصالحة للزراعة وتجهيزها بوسائل الحماية والإستصلاح.

غير أن الأهالي ظلوا يقاومون ذلك مشكلين ضغطا مزمنا على الحدود الرومانية، ودلت تلك المنشآت التي توغل بعضها كثيرا في أعماق بلاد البدو على حالة من الصراع الدائم بين طرفين غير متكافئين، أحدهما يحتل إقليم التل الحيوي ويستغله مطوقا إياه بأجهزة دفاعية قوية، والآخر هائم في السهوب والصحراء يترقب حدوث ثغرات في خط تحصينات عدوه ليتسرب منها نحو التل.

ونتج عن مناعة الحدود ومبالغة الرومان في مطاردة البدو خارج «الليمس» أن تضاعف مشكل البداوة الذي أراد الرومان التخلص منه. وتمثل ذلك في ارتفاع الكثافة البشرية بالأقاليم الرعوية المتاخمة لليمس، ونجم عن ذلك كله استهلاك الغطاء النباتي بالسهوب وحواشي الصحراء من طرف قطعان الماشية التي ارتاد بها أصحابها مجبرين مناطق كانت من قبل سباسب ومستنقعات تجوبها الوحوش الضارية، فأخذ وجه النبات في التغير ومساحته في الإنكماش بفعل ذلك الإستهلاك المركز مما عجل بزحف ظاهرة التصحر على السهوب الجزائرية الغربية خاصة (النجود).

ونستنتج من خلال هذه النظرة أن حالة من عدم التوازن بين البيئة والإنسان قد عرفتها الجزائر أثناء الإحتلال الروماني نتيجة تغليب الزراعة والعمران على الرعي والبداوة بإجبار أشباه البدو على التحول إلى البداوة الكاملة، ومنع الجميع (بدو وأشباههم) من استكمال دورتهم الموسمية بين التل والصحراء. أي أن ضغط الزراعة والعمران المنطلقين من الشمال واللذين كانا انعكاسا لصور من الضغط

الديمغرافي ولتزايد الطلب على إنتاج الغذاء، أفضيا إلى تفريغ المناطق الرعوية القابلة للإستصلاح من سكانها، كما هو الشأن بالنسبة لجنوبي الأوراس، وإحلال المزارعين بها. ومن ثم فإن الحزام الديمغرافي الذي شكله البدو حول الليمس، والطرق الحدودية إحدى تجهيزاته، ما فتئ يتكثف ويثقل وطأته على تحصينات الرومان إلى أن تحطمت واستعاد البدو حريتهم الاقتصادية بالقوة.

وبتداعي التحصينات المقامة في وجه البدو انكشفت المناطق الزراعية والعمرانية أمام الرعاة المبعدين عنها منذ أجيال فأخذوا في اجتياحها من جديد، ولم يتمكن سكان تلك المناطق من الإحتفاظ بميراث روما فانهارت الهياكل المدنية والزراعية بانهيار القوة التي كانت تحميها.

بعض المصادر والمراجع المعتمدة في موضوعات الفصل الثالث:

1 - Cesar Julius, Guerre d'Afrique.

2 - Tacite, Annales.

3 - Dion Cassius, 25; 48; 8, ...

4 - Salluste, Guerre de Jugurtha.

5 - Pline l'ancien, Histoire naturelle, V; XXXVI, ...

6 - Polybe, Histoire.

7 - Pausanias, VIII, 43, 3.

8 - Tite-live, Histoire romain.

9 - Stabon, Géographie, XVII, 39, ...

10 - Gsell (S.), Histoire ancienne de l'Afrique du Nord.

11 - Gsell (S.), Atlas archéologique de l'Algérie.

12 - Gsell (S.), "Le fossé des frontières romaines dans l'Afrique du nord", en Mélanges Boissier.

13 - Baradez (J.), Fossatum..., 1949.

/

14 - Baradez (J.), "Les fouilles de Tipasa", en Libyca (archéologie épigraphie...", t. 2, 1954.

15 - Courtois (Ch.), Les Vandales et l'Afrique, 1955.

16 - Salama (P.), Les voies romaines de l'Afrique du nord, 1951.

17 - Chevalier (R.), Les voies romaines, 1977.

18 - Rachet (M.), Rome et les berbères, 1968.

19 - Pallu de Lessert, Fastes des provinces africaines, 2 tomes, 1952.

20 - Despois (J.), La Bordure saharienne de l'Algérie orientale, 1948.

21 - Leschi (L.), "Rome et les nomades du Sahara...", Institut de Recherches Sahariennes, 1942.

الفصل الرابع

دراسات في الثقافة والمجتمع والإقتصاد

1 – إضاءة على الصلة البشرية بين المشرق والمغرب قديما (معطيات أثرية ومضامين نصوص كلاسيكية).

2 – لمحة عن التفاعل الثقافي في الجزائر القديمة.

3 – تنمية الزراعة والإستقرار وظاهرة البداوة في العهد الروماني.

4 – قراءة في ملف الحركة الدوناتية وثورة الريفيين.

5 – الحياة اليومية في الريف من خلال مشاهد الفسيفساء.

1 - إضاءة على الصلة البشرية بين المشرق والمغرب قديما (معطيات أثرية ومضامين نصوص كلاسيكية).

1 - إشكالية الموضوع

اتفق الباحثون في أصول سكان المغرب العربي على أن أسلاف المغاربة الحاليين لم يكونوا من أصل واحد وأنّ من يطلق عليهم مصطلح «البربر» ليسوا بأي وجه من الوجوه السكان الأوائل للمناطق التي كانوا يحتلونها عندما دخل شمال إفريقيا التاريخ. ذلك أن بلاد المغرب عرفت سلالات بشرية متباينة منذ نصف مليون سنة آخرهم من عرفوا بالمتوسطيين والقفصيين (نسبة إلى مواقع مستوطناتهم بقفصة) الذين يعتبرهم البعض من الروافد العرقية للبربر، ثم العنصر الزنجي الأصيل والمولد، وابتداء من العصر الحجري الحديث (النيوليتي) استقبل المغرب حضارات متعاقبة أكثر مما استقبل بشرا قادرين على محو وتعويض السكان الأسبقين نهائيا.

ويميل المتخصصون في الفترة السابقة للتاريخ ببلاد المغرب إلى الإعتقاد بأنه ابتداء من أواخر الألف الرابعة ق.م. أخذ شمال إفريقيا يتميز عن الصحراء الكبرى بتسارع الجفاف لتصبح واجهته الشمالية متوسطية بظهور فن الملاحة البحرية فاستحق بذلك ما شبه به من طرف العرب بجزيرة المغرب، ولدينا في دراسة الآثار الجنائزية الميغاليتية (المدافن الحجرية) والفخار العائدين إلى تلك الفترة ما يقوي الإعتقاد في حدوث هجرات واتصالات ربما كان بعضها في شكل

استعمار. ويعتقد أنّ من عرفوا بالبربر في العصور الوسطى قد ظهروا في هذه الفترة قادمين من الشرق ففرضوا على الأقوام المحلية المتخلفة حضاريا سلطتهم ولغتهم تماما مثلما فعل بعد ذلك العرب، وأنه لا يوجد من المعطيات التاريخية حول هذه الموجة سوى حملة الهكسوس على مصر التي جاءت بشأنها فرضية تقول إن بعض القبائل البربرية صحبت أولئك الرعاة المحاربين ولم تتوقف بمصر فواصلت طريقها نحو إفريقيا. ومن جهة أخرى فإنّ اكتشاف نقوش ليبية (نماذج من الخط المعروف بالليبي ومنه تيفيناغ) بمرتفعات سيناء وفي دلتا النيل يشير إلى الطريق الذي سلكه الأسياويون الموجودون بشمال إفريقيا.

ويذهب كل من دسو (R. Dussaud) المتخصص في اللغات السامية القديمة وغزيل (S. Gsell) الضليع في تاريخ شمال إفريقيا القديم إلى القول بأنّ هناك عناصر حضارية بربرية أساسية خاصة منها اللغة آتية من آسيا الصغرى عن طريق منخفض مصر (الدلتا) حملتها بعض الأقوام التي ساقتها الهجرة عبر عصور قديمة يصعب تحديدها.

ويضيف بوسكي (G.H. Bousquet) بأن احتلال البربر للمغرب يبدو وأنه حدث انطلاقا من مصر حتى المحيط الأطلسي، وأنّ ما يعرف برحلة حنون القرطاجي التي حدثت خلال القرن الخامس قبل الميلاد قد ركزت ذلك الإنتشار بدليل أن المحطات التي أنشئت على سواحل المحيط الأطلسي تحمل كلها أسماء «بربرية» وتكون جزر الخالدات (الكناري) قد احتلت هي الأخرى من طرف «البربر» في نفس الفترة.

وتتفق آراء الباحثين في تاريخ المغرب بأنّ «بربر» اليوم سواء كانوا معربين أم ناطقين بلهجات أخرى لا يكوّنون إطلاقا مجموعة إثنية (عرقية) متجانسة وأن هناك دماء أجنبية كثيرة تجري في عروقهم كالزنجية في الصحراء والمغرب الأقصى. ثم أنه لا توجد أية قرابة عرقية بين الناطقين بالبربرية ببلاد القبائل

وأمثالهم في الأوراس، وكذا بين الميزابيين وأهل جربة. وقد لخص لوبلان (Dr. Leblanc) دراساته المتعمقة بالموضوع قائلا: «إنّ البربر هم نتيجة تحققت منذ أمد بعيد ولا تزال تتحقق من الإحتكاك بمجموعات عرقية آتية من جهات متعددة عبر عصور مختلفة. وأنّ العناصر الأولية قد تكون من بقايا هجرات ما قبل التاريخ من ذوي الرؤوس المستطيلة والمفلطحة».

وهكذا نجد أمامنا خلاصة آراء تكوّن إشكالية تاريخية جديرة بالمعالجة، خاصة وأنّ معطيات كثيرة أخرى منها المخلفات الأثرية ومضامين النصوص التاريخية العائدة إلى عصور مختلفة ودلالات اللغة والثقافة والمشاعر المشتركة تشجع على الخوض في الموضوع للبحث عن خيوط الصلة بين المشرق والمغرب قديما وكشف معالمها خدمة للعلم واستجلاء للهوية التاريخية التي عمل النسيان على طمس بعض جوانبها وعملت الأهواء على تعتيم صورتها أو تزييف حقيقتها.

2 - المجال الجغرافي

إننا إذا تفحصنا خريطة الوطن العربي الحالية نلاحظ أنها تتميز بتجانس جغرافي ملفت للنظر، مثل الطابع الصحراوي الذي يطغى على معظم المناطق ويشكل مجالا لنمط اقتصادي اجتماعي متماثل في جميع البلدان المتوفرة على أجزاء منه من الخليج إلى المحيط، وكذا المسطحات المائية التي تلامس الحيز الجغرافي العربي فهي تتميز بكونها معابر ومجال انتقال واتصال بين مناطق هذا الحيز وبينه وبين العالم الخارجي. فالبحر الأحمر لم يكن أبدا حاجزا طبيعيا يحول دون انتقال الإنسان من الجزيرة العربية إلى مصر ومنها إلى شمال إفريقيا مهما كانت وسائل العبور البحري بسيطة وبدائية. كما أن البحر المتوسط كان مطية أكثر ملاءمة للكنعانيين عندما نزحوا من الشام نحو المغرب منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة خلت، أما النيل فكان جسرا مفتوحا على ضفتيه لانتقال الإنسان

والحيوان من شرقيه إلى غربيه، وهو ما تؤكده الشواهد الأثرية الأكثر قدما في بلاد مصر.

ومن جهة أخرى فإن مفاوز الصحراء وأحواضها (العروق) الرملية الضخمة الإتساع وكذا الحمائد الممتدة والهضاب الصخرية الموحشة اليوم لم تشكل عائقا أمام القبائل المهاجرة بقطعانها طلبا للكلإ والماء من الربع الخالي بالجزيرة العربية إلى الرقيبات بأقصى الصحراء الكبرى، ومن حضر موت وبلاد اليمن إلى سيناء وفزان، ومن بادية الشام إلى وادي درعة بأقدام الأطلس الخلفي.

لقد جمعت بين مناطق هذا المجال الجغرافي خصائص مشتركة جعلت منه إطارا متجانسا وملائما لنمط اقتصادي-اجتماعي ارتكز على الرعي منذ فترة موغلة في القدم تعود إلى بداية عصر الجفاف الذي نعيشه الآن، ويحدد بدايته المختصون بأواسط النيوليتي (العصر الحجري الحديث)، وهي الفترة التي تسارع فيها الجفاف بالمناطق المسماة حاليا بالصحراء الكبرى والصحراء العربية، حيث كان الوضع المناخي بها في أوائل النيوليتي رطبا دافئا ساعد على نمو الأعشاب وتكاثر الحيوانات الوديعة التي دجنها الإنسان ودخل بها عصر إنتاج الغذاء والإستقرار النسبي فسجل بذلك تحولا ثوريا في تاريخ البشرية أفضى به إلى إنشاء حضارة الرعي ذات المستوى الذهني الرفيع ليدخل منها إلى الحضارة المدينة التاريخية القائمة على الإستقرار الدائم والزراعة المنتظمة بجوانب الأنهار ودلتواتها كما هو الشأن في مصر وبلاد الرافدين.

ولقد تكشفت البقايا الأثرية العائدة إلى أواخر العصور الرطبة بالصحراء الكبرى عن شواهد صلة متينة بين سكان هذا الإقليم البالغ القفار اليوم وبين مصر وشرقي البحر الأحمر (البلاد العربية)، سنتعرض لها بشيء من التحليل فيما بعد. وهي تقوم دليلا على أن ما نعتقده عائقا جغرافيا في الوقت الحاضر لم يكن كذلك قبل سبعة آلاف سنة من الآن، بل كان عامل وصل واتصال بين مناطق

لا يدور بخلدنا أنها كانت على صلة ببعضها بسبب البعد الشاسع الذي يفصل بينها.

وإذا كانت المناطق الصحراوية المغربية قد عرفت هذه القابلية لقيام صلة وطيدة بينها وبين المشرق، فإنّ المناطق الجبلية (بلاد التل) المتاخمة لها شمالا، والمشرفة على البحر المتوسط أو المحيط الأطلسي كانت بمثابة جزر عائمة في محيط بشري متحرك، فاحتفظت بما علق بها من عناصر بشرية مختلفة الأعراق متباينة الثقافات، تنتمي إلى شعوب وأقوام متوسطية وصحراوية تزاحمت هنا منذ عصور موغلة في القدم، وداهمتها أمم قوية وحضارات طاغية فقهرتها وشتتها فبقيت تلك العناصر عينات تاريخية مزركشة الألوان تشهد على تعاقب بشري وتراكم ثقافي شديد التداخل متشابك الخيوط، يتعذر تشخيص أصوله أو الوقوف على شخصيته التاريخية المتميزة. وهذا التراكم هو ما اصطلح المهتمون به على تسميته بالموروث البربري أو الشخصية البربرية إن صح التعبير، مع ما في هذا الإصطلاح من تجاوز سنناقشه في موضوع آخر ليقيننا بأنّ هذا الموروث ثقافيا كان أم بشريا ينطوي على شواهد تاريخية تؤكد صلته الوطيدة بالشرق القديم، رغم سعي بعض المتعصبين من المنتمين إليه لإغفال هذه الصلة أو التقليل من قوتها ومتانتها.

وتحتل مصر مركز الصدارة في تزويدنا بما يبين لنا سبل التعرف على صلة المغرب بالمشرق، وذلك بما تتوفر عليه آثارها العائدة إلى مختلف العهود من معطيات أرشدت الباحثين ونبهتهم إلى مكانة الوثائق المصرية في هذا المجال، ذلك أن بلاد النيل كانت ملتقى أو معبرا لشعوب أتتها من جميع الجهات وخلفت بصماتها هنالك، وخاصة الأقوام الشرقية التي حفلت بأخبارها الوثائق المصرية السابقة للعهد الفرعوني وأثناءه، إنّ المتمعن في تلك الأخبار المتعلقة بالمشارقة ليخيل إليه أنّ مصر كانت وجهتهم الأولى وأنها بلدهم الثاني وأن انتقالهم إلى ما وراء مصر غربا (بلاد المغرب) كان اضطراريا. لقد مارسوا هذه الحركة منذ

عصور ما قبل التاريخ وواصلوها إلى العصور الوسطى بالنزوح الهلالي الذي يعد من أقوى الموجات البشرية التي دفعت بها الجزيرة العربية إلى غربي البحر الأحمر. فواصلت طريقها لتعم المغرب بأكمله، وهي أوضح مثال على ما وقع في العصور القديمة، وذلك في فترات متباعدة نتيجة لظروف معينة مرت بها الصحراء العربية التي وصفها بعض المستشرقين بأنها كانت بمثابة خزان بشري يفيض على أطرافه كلما ضاق بمحتواه، وهو وصف غير معلل في نظرنا مما يثير الاستغراب أو الرفض. والعلة عندي أن المجال الحيوي في الجزيرة العربية كان يتراجع بوتيرة متسارعة فتتراجع موارد العيش فيه ويحدث النزوح.

3 - دلائل المعطيات الأثرية.

أ - المسالك ومراحل العبور.

إستنادا إلى الدلائل الأثرية والنصوص الأدبية الباكرة فإن الطرق التي سلكتها الأقوام الباكرة في تنقلها من شرقي البحر الأحمر إلى غربيه قد تعددت حسب العصور واختلاف دوافع التنقل ووسائل القدرة على اجتياز المسطحات المائية.

ويفترض أن شبه جزيرة سيناء كانت أفضل مناطق العبور بين القارتين الأسيوية والإفريقية بالنظر لما تتصف به من خصائص جغرافية أهلتها لأن تكون إقليما متوسطا بين شمالي الجزيرة العربية (الشام عموما) ومصر خاصة.

وهنالك طريق آخر عبر البحر الأحمر يفترض أنه كان يربط بين شاطئه الشرقي والغربي عند المكان المفضى إلى وادي الحمامات بمصر وذلك شرقي الشلال الأول، وهذا الوادي كان معبرا للقوافل بين منطقة طيبة والكرنك والبحر الأحمر حسب ما تدل على ذلك الآثار المتبقية العائدة إلى فترة البداري ونقاده وهما حضارتان سابقتان لعهد الفراعنة بمصر.

ثم أن حضارة مرمدة أو الفيوم، وهي أقدم الحضارات الزراعية بمصر السابقة لعهد الفراعنة، قد عرف الإنسان فيها مزروعات أسيوية الأصل كالقمح والشعير والدخن وكذلك حيوانات داجنة كالغنم والماعز وهما من أصل أسيوي أيضا، مما يقوم دليلا على أن مشيدي الحضارة الباكرة في مصر أسيويون انحدروا إليها عبر فلسطين خاصة ثم توسعوا جنوبا بمحاذاة النيل إلى البداري وأسيوط ثم الخرطوم بالسودان ثم اتجهوا إلى ليبيا وشمال إفريقيا متتبعين المناطق الأكثر ملاءمة لرعي الحيوانات الداجنة وممارسة الزراعة البعلية.

وكشفت الدراسات الأنثروبولوجية التي أجريت على البقايا الجسمانية لسكان مصر القدماء ممن عاشوا في هذه الفترة الباكرة، أنّ دماء شرقية أسيوية جرت في عروقهم وأنهم ينتمون إلى عناصر مختلفة جلها من شرقي البحر الأحمر وسيناء، وبناء على ذلك يرى بعض المختصين أن مشيدي حضارة نقاده الثانية سوريون أو حجازيون انتقلوا إلى غربي البحر الأحمر ومن ثم إلى بلاد النيل، ويرى آخرون أنّ هذه الحضارة جمعت بين عناصر شرقية وأخرى غربية (إفريقية) انصهرت في وادي النيل ولكن مضمونها الحضاري يغلب عليه الطابع الشرقي خاصة اللغة التي تتسم بالمسحة السامية.

وتشير نتائج البحوث الأثرية التي جرت على العينات المكتشفة وخاصة منها البقايا الجسمانية في الفيوم ومرمدة أنّ أصحابها كانوا يصبغون وجوههم بالمغرة ويزججون عيونهم بالدهنج ويدفنون موتاهم على شكل القرفصاء، وهذه عادات عرفت أيضا لدى سكان المغرب فيما قبل التاريخ، ولا يزال بعض تلك العادات معمولا به عند التوارك حتى الآن حيث يدهنون أجفان عيونهم بمادة واقية من الحرارة هي أشبه ما تكون بالدهنج المذكور.

إنّ الإتفاق حاصل بين علماء المصريات (الإيجبتولوجيا) حول كون مشيدي الحضارات السابقة لعهد الأسرات (الفراعنة) في مصر مثل المسماة بحضارة

العمرة والجرزة والفيوم ونقادة، هم من الجزيرة العربية بالمعنى الجغرافي الواسع، سواء انتقلوا إلى وادي النيل عبر سيناء أو مضائق البحر الأحمر، وذلك على فترات متباعدة ولأسباب متباينة. فكما كانت الجزيرة العربية تمد بلاد الرافدين والشام بموجات بشرية ساهمت في بعث الحضارة وتغذيتها هنالك فإنّ البحر الأحمر لم يكن حاجزا دون وصول نازحين من هذه الجزيرة المعرضة للتصحر الذي طارد السكان وأجبرهم على البحث عن مجالات حيوية في أطراف الجزيرة أو مواضع ملائمة من القارة الإفريقية المجاورة.

أما في العصور التاريخية القديمة فالأثر واضح بشأن الطرق والمعابر المسلوكة من طرف الأقوام العربية وغير العربية نحو مصر، وقد تركزت في مواقع هامة، منها معبر باب المندب بالنسبة لجنوبي الجزيرة العربية ووادي الحمامات بخصوص الحجاز ثم جنوبي سيناء بالنسبة للشمال الغربي من بلاد العرب، وأخيرا المعبر الساحلي الواصل بين فلسطين ودلتا النيل وهو أبكر الطرق وأسهلها وأكثرها حيوية.

إنّ هذه المجازات لا تحتمل الظن أو التماس الفرضيات، فالمجاز الجنوبي تؤكده حقائق تاريخية لا يختلف فيها إثنان وهي أن منطقة اليمن وشرقي الحبشة كانت في العصور القديمة أشبه ما تكون بالموطن الواحد لحضارة جنوبي الجزيرة العربية وللإنسان اليمني صاحب هذه الحضارة، وعبر هذا الجسر المتين الذي يربط بين طرفي القارتين (آسيا وإفريقيا)، انتقلت أقوام كثيرة من جنوبي الجزيرة العربية إلى شرقي إفريقيا ومنه إلى شمالها الشرقي وشمالها (مصر وبلاد المغرب).

ويعتقد بعض المؤرخين أن صلة مصر باليمن وشرقي إفريقيا المواجهة له قد قويت في عهد الفراعنة الذين كانوا محتاجين إلى استقلال الإمكانيات الاقتصادية للبلاد الواقعة شرقي البحر الأحمر (الأريتري) وجنوبي شرق إفريقيا. وهذا ما

تؤكده النصوص الهيروغليفية المتعلقة بالحملات العسكرية والقوافل التجارية المسلحة التي كانت تتردد على تلك الجهات لإحضار ما تحتاجه مصر من منتوجاتها.

ويميل معظم المختصين في تاريخ مصر الفرعونية إلى القول بأنّ الحبش (خبستيو في اللغة المصرية القديمة) قبائل عربية انتقلت إلى شرقي إفريقيا من منطقة مهرا في جنوبي الجزيرة العربية، وهم الذين كانوا يدعون «بونتو»، وبلادهم «بونت» وقد سجلتهم الوثائق المصرية ومنها الرسوم (خاصة على ضريح الملكة حتشبسوت) بملامح عربية زنجية (سامية-حامية) مثل ملامح المصريين أحيانا، وبوجه عربي وجسد زنجي أحيانا أخرى.

وتأتي الدراسات اللغوية لتؤكد اشتقاق اللغة الحبشية من اليمنية القديمة شكلا ومضمونا، وهو ما فصل في صلة اليمن بالحبشة وأبعد جميع احتمالات الظن والإرتياب في كون الحبشة عمرها اليمنيون ومارسوا علاقاتهم ببلاد النيل وما بعدها انطلاقا من هنالك.

أما المعبر الآخر الواصل بين شاطئ الجزيرة العربية وشاطئ مصر عند وادي الحمامات الذي يصب في أقرب انثناءات النيل من البحر الأحمر، فإنّ المخلفات الأثرية الدالة على استعماله من قبل اليمنيين كثيرة جدا، وأهمها النقوش الكتابية بالخط المسند المعروف، وهي نقوش تركتها قبائل عربية استوطنت تلك المنطقة المفضية إلى أسوان التي عرفت حيوية خاصة في عهد الفراعنة بما تحتويه من معالم كبرى كمعابد الكرنك وآثار وادي الملوك وطيبة وغيرها.

والظاهر أن تلك القبائل مارست نشاطا اقتصاديا مربحا مع المصريين كالتجارة، وهي من أهم وأقدم نشاطات البدو بالإضافة إلى الرعي والزراعة. وكان هذا الطريق يصل بين شمالي الحجاز ومصر، ومنه أنتقلت قبائل كثيرة ضاقت بها أرضها عندما تسارع الجفاف إلى وديان الحجاز الشمالية (منطقة الحجر) وحلت

بها كوارث بيئوية، أشار إليها القرآن الكريم عند ذكره لما حل بقوم عاد وثمود، وقد تركت تلك الأقوام آثارها العمرانية محفورة في الصخر بالوديان المذكورة (وادي القرى خاصة).

ولما كانت بلاد الشام مكتظة بالسكان انحرفت القبائل المهاجرة نحو البحر الأحمر فاجتازته إلى بلاد النيل ذات الخير الوفير.

ويعتقد أن أخبار الأنبياء المتعلقة بمصر من إبراهيم الخليل إلى موسى بن عمران مرورا بيوسف لم تكن متعلقة بأشخاص هؤلاء الأنبياء، كأشخاص فرادى بل بأقوامهم الذين كانوا على صلة بمصر فاستوطنوها وعايشوا أهلها ومارسوا تأثيرات حضارية عليهم، وليس مستبعدا أن يكون بعض تلك الأقوام العربية الباكرة قد انتقل إلى بلاد النيل عبر البحر الأحمر انطلاقا من وديان الحجاز السالفة الذكر.

وبعد أن تبين لنا أن الأرضية البشرية المؤثرة لسكان مصر القديمة مكونة في معظمها من عناصر شرقية، وهو ما يدحض فكرة العائق الجغرافي الذي يوهم بأنه كان يحول دون انتقال أقوام من الجزيرة العربية إلى غربي البحر الأحمر، فإنه يمكن التحدث عن إمكانية انتقال هذه الأقوام نحو غربي مصر أي إلى المغرب ابتداء من العصور الغابرة.

غير أنه أمام قلة الدراسات وندرة المكتشفات الأثرية حول هذا الموضوع فإننا نكتفي بالشواهد التي أمكن رصدها من مناطق جرت فيها دراسات ميدانية علمية، أو من مواقع أثرية تم التنقيب فيها واستخرجت منها وثائق تفيد في هذا الموضوع، وهي تقع في مناطق متباعدة جغرافيا عبر بلاد المغرب وسوف نقتصر على فزان بليبيا وموقع مرحومة قرب وادي الساورة بالصحراء الغربية الجزائرية.

إن اختيارنا لهذين الموقعين يبرره كون إقليم فزان يعد من أبرز الأقاليم التي عرفت حيوية خاصة عبر العصور، ويحتفظ بعينات حضارية وإيكولوجية واضحة

يمكن أن تفيد في مثل هذه الدراسة، بينما موقع مرحومة يمثل وثيقة أثرية نادرة لإقامة الدليل على ما يمكن أن يكون قد قام من صلات بين الشرق والمغرب في عصور ما قبل التاريخ.

ب - شواهد فزان بليبيا

تعد فزان من أكثر مناطق المغرب أهمية في هذا الموضوع باحتوائها على نماذج من الشواهد التاريخية العائدة إلى عصور مختلفة موغلة في القدم وقد اكتسبت هذه الأهمية من موقعها الجغرافي المتميز، حيث أنها تقع على حواف مرتفعات التيبستي وتتميز بمناخ خاص ومياه جوفية جيدة وغزيرة، مما جعلها تكون أكثر مناطق الصحراء ملاءمة للإستقرار البشري وملتقى لطرق القوافل العابرة للصحراء، كما أنها كانت أفضل معبر للقبائل النازحة من الشرق إلى الغرب أو العكس، وهذا ما تشهد به البقايا الأثرية العائدة إلى عصور متباينة، وخاصة منها ما يتعلق بالفترة الرطبة الأخيرة (الألف الخامسة ق.م) وما بعدها.

كشفت الدراسات الأنثروبولوجية أن سكان فزان الأقدمين ينتمون إلى الجنس الأبيض الممتزج بعناصر زنجية، وأنهم حصيلة عصور باكرة، وبينت البحوث دلائل قوية للصلة بين سكان فزان السودانيين ممن لهم علاقة بسكان إريتيريا المواجهين لبلاد اليمن والممتزجين بهم عرقيا وحضاريا، كما كشفت الدراسة التي أجريت على بقايا هياكل بشرية بمقبرة وادي العجال بفزان أن نسبة كبيرة منها من البيض الذين يشبهون التوارق وبربر شمال إفريقيا، وأن أصحاب تلك العينات ربما يكونون ممن سماهم هيرودوت بالغرامنت الذين كانوا يعمرون أجزاء كثيرة من الصحراء الكبرى انطلاقا من عاصمتهم جرمة بإقليم فزان، وهم الذين خلفوا آثارهم الفنية على جدران الصخور ممثلة في نمط خاص من الرسومات التي تميزت بالدقة في الأشكال والوضوح في التعبير محتوية على مواضيع الحرب بما عكسته من جياد وعربات وأسلحة جديدة بالنسبة للمنطقة.

ومن أهم خصائص مظاهر رسومهم البشرية أنها ذات هيئة مشابهة لهيئات مصرية قديمة، وأن الأشخاص فيها مقنعون وعلى رؤوسهم ريش، وقد عثر على نماذج من هذه الرسوم المتميزة في أنحاء كثيرة من الصحراء الكبرى بما فيها فزان وبلاد الهقار كما عثر على بعضها في شمالي الجزائر (حجر الخنقة بالقرب من مدينة قالمة)، وقد تم الكشف على ما يماثل هذه الرسوم بصحراء سيناء، وكذا على المزهريات الفخارية العائدة إلى ما قبل الأسرات بمصر القديمة، وكذلك في أنحاء أخرى من الجزيرة العربية، وخاصة منها المناطق الغربية، وهذا ما يدعو إلى التفكير في ما عسى أن يكون قد تم بين هذه الجهات المتباعدة من اتصالات بشرية عبر العصور الغابرة.

ويجدر الذكر أنه تم اكتشاف حجر الأوبسيديان في منطقة فزان وجهات أخرى من الصحراء الكبرى، وهو مادة صلبة استخدمها الإنسان قبل المعدن للطرق ونجارة الحجارة قصد صنع أدواته من مادة الصوان وغيرها، كما صنع بعض الأدوات من مادة الأوبسيديان نفسها، ومعروف أن تجارة حجر الأوبسيديان هذا عرفت رواجا في العالم القديم نظرا لأهميتها وندرتها وكانت نشيطة بين فلسطين ومناطق مجاورة التي انتقلت منها إلى فزان كمصر ومناطق أخرى من الصحراء عبر ممرات التيبستي والطاسيلي حيث عثر على جلاميد من الأوبسيديان الخام في مواقع كانت بها ورشات لصناعة أدوات الصوان، إننا أمام تقاليد صناعية على مواد خام معينة عرفت في الشرق وانتقلت إلى الغرب بانتقال أصحابها، وهذا عنصر تاريخي هام لا يتطرق إليه الإرتياب.

يمكن أن نضيف إلى شاهد الإبسيديان شواهد أخرى من أنماط الصناعات الحجرية كالرماح ورؤوس السهام، وهي من العتاد الحربي الذي انتقل إلى بلاد المغرب وانتشر في الصحراء وذلك ابتداء من العصر النيوليتي (الحجري الحديث) المتأخر الذي شهد ظهور أقوام جديدة في منطقة فزان وما جاورها. وتنتشر آثار

هذه الأدوات وورشات صناعته والرسوم الصخرية الممثلة لها في المنطقة الممتدة من فزان إلى موريطانيا الحالية، وقد عرفت هذه الصناعة الحربية بمواقع أثرية في فلسطين، منها موقع الطاحونية، مما يشير إلى امتداد الصلة بين هذه المناطق المتباعدة جغرافيا، وقد نسب بعض الباحثين هذه الأدوات الحجرية إلى تأثيرات مصرية مارستها على الجهات الشرقية من بلاد المغرب ثم انتشرت نحو الوسط والغرب أواخر النيوليتي فشملت بلاد التل (شمال الصحراء) وخاصة إقليم وهران بفعل تسارع الجفاف الذي دفع بهجرات بشرية نحو التل.

ومن جهة أخرى فإن هذه الأنماط من الصناعة الحجرية لا يتجاوز مدى انتشارها خطي عرض 13 و14 جنوبا، حيث تندر كثيرا عند نهر النيجر تاركة المجال لتقاليد صناعية أخرى ذات طابع إفريقي زنجي.

واكتشف المختصون كذلك أدوات حجرية من العصر النيوليتي المتأخر بالصحراء الكبرى، منها الفؤوس الملساء التي استعملها الإنسان في نبش الملح من مناجمه وهي ذات أصول شرقية. وكذلك الشأن بالنسبة للفؤوس ذات الحلق التي عثر على نماذج منها في شمال إفريقيا وهي ليست من الصناعات الأصلية فيه ولكنها مشرقية المقدم فيما يرجح.

وهناك نمط شبه موحد للفخار النيوليتي بالصحراء الكبرى من فزان إلى الجنوب الوهراني. وذلك من حيث أشكال الأواني والتقنيات المتبعة في صناعة الفخار ومادته وأشكال الزخارف وموضوعاتها. وهذا النمط له صلة واضحة بأنماط الفخار المصري السابق لعهد الأسرات، وخاصة ما ينتمي منه إلى حضارات نقادة والعمرة والبداري، مما يؤكد الوحدة الحضارية لإقليم الصحراء الكبرى الممتد من شرقي البحر الأحمر إلى سواحل المحيط الأطلسي، وهي حضارة بناها أناس كانت صلتهم ببعضهم وطيدة لا من حيث العرق فحسب ولكن من حيث المنتوج الحضاري كذلك.

ج - شواهد مرحومة بالجزائر

أما موقع مرحومة بعمق حوض الساورة فإن أهميته تأتي من كونه واقعا في إقليم تمتع بحيوية خاصة في العصور القديمة ضمن منطقة الصحراء الغربية، ذلك أن وادي الساورة كان بمثابة «نيل» صغير، حيث تحفه واحات هامة مثل واحة تاغيت على وادي زوسفانا وواحتي بني عباس وكرزاز على وادي الساورة نفسه، كان هذا الوادي أهم معبر بين الجنوب والشمال منذ أقدم العصور.

وتقع محطة مرحومة بين واحتي بني عباس وكرزاز على بعد حوالي 20 كلم إلى الجنوب من بني عباس، وهي في موقع جاف ليس به ماء حاليا وقد عملت التعرية الهوائية على تغيير ملامح الموقع حتى كاد ينمحي تماما بعد أن كانت به مستوطنة عامرة لعدة قرون من الزمن وذلك أثناء الفترة الرطبة الأخيرة حسب ما تشهد بذلك بقايا الفلور والفونا بهذا الموقع.

وقد كشفت التنقيبات الأثرية التي جرت فيه على وثائق عديدة تؤكد صلة بلاد الساورة والصحراء الجزائرية الغربية ببلاد فزان والتيبستي ومصر رغم بعد المسافة الملحوظة بين هذه المناطق، مما يدل على أن الصيادين ومربي الماشية آنذاك كانوا يقطعون مسافات شاسعة دون عائق، نظرا لكون المحيط الطبيعي ملائما، ومن النماذج التي تمثل الصلة بين المناطق المذكورة تلك الرسوم والنقوش المتماثلة فنيا، ومن حيث المحتوى، في كل من الجنوب الوهراني (الساورة) وجنوب طرابلس، خاصة حمادة مرزوق وفزان (وادي زقرا)، حيث أنجزت رسوم على جوانب الصخور بطريقة التحزيز ثم الطرق ممثلة لحيوانات مدجنة وأخرى برية كالزراف والنعام من التي كانت محل صيد، كما ظهر الإنسان في تلك الرسوم مسلحا بأنواع متماثلة من الأسلحة وفي هيئة متشابهة.

واتضحت علاقة سكان الساورة بسكان مصر فيما قبل التاريخ (ما قبل الأسرات) من خلال الأدلة التي عثر عليها بمحطة مرحومة ومنها التقنيات التي

اتبعت في الرسوم ومعاملة المحيط الطبيعي وتماثل الإهتمامات والسلوكات الاجتماعية في كل من هذه المحطة ومواقع حضارة العمرة والجرزة المشار إليها سابقا، من ذلك أن فناني الساورة ومصر آنذاك رسموا حيوان الأروية المنتشر في ذلك العصر بطريقة واحدة مستعملين نفس الوسائل ونفس الأخيلة والتصورات فضلا عن الأدوات والتجهيزات المتاحة التي تشابهت في المناطق المذكورة وتقاربت عصورها فيها.

ويجزم بعض المختصين أن الرسوم الصخرية بمرحومة وما عاصرها نسبيا في مناطق عديدة من أقاليم الصحراء الكبرى والعربية تحمل دلالات جلية على العلاقة الوطيدة بين الصيادين الأكثر قدما ممن عمروا الصحراء العربية والليبية (الصحراء الكبرى).

ولقد اعتمد المختصون على تنميط الأشكال الفنية وموضوعات الرسوم في كل من محطة مرحومة بالساورة ومحطات حضارة العمرة والجرزة في مصر ليؤرخوا أطوار الحياة في مستوطنة مرحومة وذلك لثقتهم علميا في متانة الصلة بين المنطقتين فقالوا مثلا بأن مستوطنة مرحومة مرت بأدوار ثلاثة 1-2-3 وأن البداري 1-2 يعاصران فترة عمرة وجرزة المؤرخة بالألف الخامسة قبل ميلاد المسيح، وهي فترة لم يتشكل فيها نظام سياسي بعد ببلاد النيل وكان الناس لا يزالون في مرحلة الزراعة البدائية والصيد، وقد كشفت الدراسات في المناخات القديمة على أن منطقة الساورة عاشت النيوليتي في زمن واحد مع مصر.

4 - مضامين نصوص كلاسيكية

جاء عند المؤرخ العبراني يوسيفيوس فلافيوس وهو من أشهر المحققين في زمانه أن عافر أحد أحفاد النبي إبراهيم جهز حملة (أواخر القرن 19 قبل الميلاد) واجتاز بها دلتا النيل نحو ليبيا ومكثت بها ذريته وهم الذين سميت البلاد باسمهم

(أي إفريقيا)، ونجد لهذه الرواية صدى عند مؤرخ مسيحي عاش في القرن السابع هو إيزيدور الإشبيلي حيث يقول: اشتق اسم الأفارقة من اسم أحد أحفاد ابراهيم وهو يدعى عافر، إذ يقال أن هذا الشخص قاد جيشا ضد ليبيا حيث استقر بعد أن انتصر على أعدائه بها.

ولدينا نص تاريخي بالغ الأهمية، على اقتضابه، حول الأصول المشرقية للمغاربة خلفه لنا الأسقف أوغسطين في إحدى رسائله إلى روما جاء فيه ما معناه: إذا سألتم أهل البادية، من النوميديين عندنا عن أصلهم أجابوك بلكنة خاصة بأنهم كنعانيين، متلفظين بهذه العبارة محرفة قليلا بمزج الكاف بالشين، وهذا النطق معروف في اللغة الكنعانية وفي الليبية القديمة وحتى في بعض لهجات البربر اليوم، ويذكر أوغسطين في موضع آخر بأن هؤلاء النوميديين يتحدثون البونيقية ولا يفهمون اللاتينية مما كان يحتم على المبشرين والوعاظ منهم استصحاب تراجمة يجيدون لغتهم لإفهامهم القول.

تتجلى أهمية هذا النص في القول باحتفاظ هؤلاء القوم من النوميديين بإنتسابهم إلى الكنعانيين وتمسكهم بلغة الأجداد رغم المحيط اللاتيني الذي ظل يحاصرهم منذ أكثر من خمسة قرون. ثم أن هؤلاء القوم كانوا صريحين وأوفياء فلم ينتحلوا نسبا لأمم كان مجدها قائما بينهم كالأمة الرومانية أو اليونانية، وسوف يصرح نسابة آخرون عند الفتح الإسلامي بنسب قومهم المرتبط بالحميريين في اليمن، ولا مراء في ذلك.

وفي العهد البيزنطي بشمال افريقيا جاء عند المؤرخ بروكوب ما يقوي مضمون نص أوغسطين بشيء من التفصيل والتعليق حيث قال: «عندما خرج العبريون من مصر وصلوا عند حدود فلسطين... مات موسى الذي كان يقودهم فخلفه عليهم يوشع بن نون الذي أدخل هذا الشعب إلى فلسطين واحتل البلاد مظهرا في الحرب قدرة لا تضاهى، فانتصر على القبائل المعادية واقتحم المدن بدون صعوبة،

وبذلك اكتسب سمعة القائد الذي لا يهزم. وكانت المنطقة الساحلية الممتدة من صيدا إلى حدود مصر تسمى فينيقيا، وفي زمن بعيد كانت خاضعة لأحد الملوك بالتحالف حسب ما يذكر كتاب التاريخ الفينيقيون، أما القبائل الأخرى وكان عدد رجالها كبيرا... لم يكن في استطاعتها مقاومة هذا القائد الأجنبي (يعني به يوشع) فخرجت من موطنها والتحقت بمصر، لكنها لم تجد موطنا بتلك الأرض التي كانت دائما كثيرة السكان، فاتجهت نحو ليبيا.

«لقد احتل القادمون جميع البلاد إلى أعمدة هرقل وأسسوا عددا كبيرا من المدن، وبقيت ذريتهم وهي تتحدث اللغة الفينيقية، وقد شيدوا حصنا بنوميديا عند المكان الذي قامت فيه مدينة تيجيس (تقع إلى الجنوب الشرقي من قسنطينة وهي مدينة قديمة معروفة في كتب الجغرافيا والرحلات)، هناك وبالقرب من الينبوع الكبير نشاهد نصبين من الحجر الأبيض يحملان كتابة منقوشة بالأحرف الفينيقية وبلغة الفنيقيين مضمونها: إننا أولائك الذين فروا بعيدا من بطش يوشع بن نون».

ويتابع بروكوب روايته مفصلا علاقة الوافدين الجدد بمن سبقهم قائلا: «وكان يسكن ليبيا (بلاد المغرب عامة) قبلهم قوم أقاموا بها منذ عصور قديمة جدا. وكان ينظر إليهم على أنهم السكان المحليون، ثم التحق بعد ذلك بزمن طويل أولئك القادمون بصحبة ديدون (الأميرة الصورية مؤسسة قرطاجة عام 814 ق.م) بآبائهم المقيمين بليبيا، وقد سمحوا لهم باقامة قرطاجة التي عظمت وحاربت جيرانها الذين كانوا قد قدموا من فلسطين كما ذكرنا، والمدعوين حاليا المور (يعني بهم جميع الأهالي البربر في زمانه)، وقد انتصرت عليهم وأزاحتهم إلى أبعد حد ممكن».

إن الهجرات المشار إليها حدثت في ظروف قهرية موضوعية منها الضغط العبري على فلسطين بعد حادثة الخروج من مصر وظهور حركة شعوب البحر التي أحدثت تغييرات واضحة في الخريطة البشرية بآسيا الغربية (بلاد الشام خاصة)

وما صحب ذلك من تطور في صناعة الأسلحة الحديدية وبناء السفن وركوب البحر مما أفضى إلى إيجاد مجال حيوي تعويضي في بلاد المغرب وغربي المتوسط هرع إليه الناجون بأنفسهم ودوابهم من كوارث الإقتتال الحادثة في المشرق.

ومن جهة أخرى ليس مستبعدا أن يكون لمصادر الرواية العربية الباكرة حول أصول «البربر» علاقة بالمصادر المسيحية واليهودية، ذلك أنه بعد أن أسلم كثيرون من هؤلاء يكونون قد نقلوا مصادرهم إلى العرب فأفادوا منها في سرد الأخبار المتعلقة بأصول سكان المغرب.

أما المؤرخ أوروسيوس Orose تلميذ أوغسطين، فعنده تأخذ رواية الأنساب شكلا آخر، حيث تنطلق من وحدوية الجنس البشري ذي الأب الواحد، وهو نوح أبو البشرية الثاني، الذي تتحدر من ذريته جميع الأقوام والأمم، جاء في روايته التي هي صدى للموروث العبراني ما يلي: «وأما حام بن نوح فولد أربعة، كوش ومصرايم وفوت وكنعان... وأما كنعان فإنه... أجناسا من البربر، وهم الذي أخرجهم الله من الشام أمام إسرائيل وقت اقبالهم مع موسى النبي، وصير أرضهم لبني اسرائيل ميراثا».

ويظهر صدى التأثير اليهودي واضحا في هذه الرواية بالقول بأن الكنعانيين من ذرية حام. ذلك أن اليهود هم الذين أخرجوا الكنعانيين في روايتهم من أبناء سام، وهو عكس ما قررته الدراسات الحديثة. ولهذه الرواية بغض النظر عن مصدرها أهمية خاصة لكونها تتفق وروايتي بروكوب ويوسيفوس فلافيوس قبله حول هجرة أقوام من فلسطين إلى المغرب أواخر القرن الثاني قبل الميلاد، وسنجد لهذه الرواية صدى في كتب الأنساب العربية التي وإن اختلفت أشكالها تجمع على توافد هجرات من المشرق إلى المغرب في عصور مختلفة قبل الفتح الإسلامي.

ونجد عند كاتب يوناني يدعى موسخوس Moschos عاش أواخر القرن السادس وبداية السابع ميلادي خبرا ذا أهمية كبيرة لم يسبق حسب علمي أن أستفيد منه،

يقول: «ولما قدم المازيغ قاموا باجتياح جميع هذه المقاطعة (يقصد افريقية) كما وصلوا أيضا إلى الواحات وقتلوا عددا من الناس وأسروا كثيرا جدا منهم». إن أهمية هذا النص تتجلى في استعماله مصطلح «مازيغ» للدلالة على شعب قوي سيطر على أجزاء كثيرة من شرقي المغرب ربما أحفادهم هم الذين أنابوا عنهم من وفد إلى الخليفة عمر بن الخطاب وعرف قومه أمامه بالمازيغ، ولعل موسخوس أشار بعبارة المازيغ إلى القبائل المنسوبة إلى لواته التي كانت تسيطر على جنوبي المقاطعة الإفريقية وطرابلس منذ القرن الرابع الميلادي، وكانت هذه القبائل قد ظهرت أخبارها كقوة محركة للأحداث العسكرية على التخوم الرومانية في بلاد المغرب، ويعتقد بعض المؤرخين أنها قبائل نازحة من المشرق ضغطت على مناطق العمران بشمال افريقيا مثلما فعلت القبائل الهلالية في العصور الوسطى.

ومن النصوص المهمة التي أهملها مؤرخو شمال افريقيا القديم فقرة للكاتب السرياني المدعو سكاريفوس Scarifus الذي عاش أثناء القرن السادس، جاء فيها: «بداية لوبا هي موريطانيا البلد المحاذي للأوقيانوس... أما افريقية فهي بلد يوجد مقابلا لروما، وبه مائة وثمانية وخمسون مدينة وسكانه يتكلمون السريانية والرومانية». وتكمن أهمية هذا النص النادر في قوله أن سكان افريقية التي كانت في وقت الكاتب مقاطعة بيزنطية يتحدثون السريانية إلى جانب الرومانية. والمقصود بالسريانية هنا لغة شرقية سامية شقيقة الآرامية وهي البونيقية أو إحدى اللهجات السامية الأخرى. ومهما يكن فإن ذلك دلالة جديدة تؤكد رواية أوغسطين السابقة الذكر وكذلك رواية بروكوب حول الإنتساب إلى الكنعانيين.

وهكذا يتضح لنا أن المعلومات المستنتجة من الآثار تؤيد بصفة أو بأخرى مضامين النصوص التاريخية، كما أن التحليل العلمي لمخلفات الأجسام البشرية يتفق مع سياق الرواية في اثبات الصلة البشرية والعلاقة الحضارية بين المغرب والمشرق منذ عصور ما قبل التاريخ. هذه الصلة التي عززتها روابط ثقافية ودينية

ما انفكت تتقوى وتتجذر إلى أن غدت موروثا نفسيا كامنا في لا وعي الأفراد والجماعات وإن شحت الشواهد المادية المساعدة على وضعه في ضوء التاريخ الساطع، أو تلاشت صوره من ذاكرة أحفاد من غرسوه في كوامن النفوس عبر الزمن الحافل بالمتغيرات.

وخلاصة القول أن وافدين كثيرين التحقوا ببلاد المغرب آتين إليها من المشرق في عصور مختلفة بأعداد متفاوتة ونتيجة لدوافع متباينة وذلك عبر طرق كثيرة غير محددة، أهمها مامر بسيناء، ودلتا النيل، ثم طرق اليمن والحبشة ومجازات البحر الأحمر ثم المعبر المائي الذي سلكه الكنعانيون (الفينيقيون) في وضح التاريخ، ولم يكونوا أول من سلكه ممن قصد شواطئ المغرب القديم من المشارقة، وكانت حصيلة هذا العبور تراكم بشري متوال جعل خريطة المغرب البشرية تأخذ ذلك التنوع الذي حير أوائل المؤرخين الكلاسيكيين وعتم النظر أمام الرواة ونسابة العرب وأربك المؤرخين الأوروبيين حديثا، فالبربر وهم هذا التراكم البشري ببلاد المغرب مضافا إلى بقايا الإنسان المتوسطي العائد إلى أوائل الإنسان العاقل واضافات تسللت إلى شمال إفريقية عبر الصحراء، يمثلون بتنوعهم الأنتروبولوجي واللغوي والثقافي أوضح صورة لما حدث منذ العصور السابقة للتاريخ.

2 - لمحة عن التفاعل الثقافي في الجزائر القديمة

ليس هيّنا على المؤرخ أن يستجلي جميع جوانب الثقافة التي سادت مجتمعا ما في العصور القديمة، خاصة إذا كان تاريخ المجتمع المراد مفتقرا إلى الوضوح الكافي مثل تاريخ المجتمع الجزائري القديم. وأمام هذه العقبة المنهجية فإنني أقتصر، بالنسبة لهذا الموضوع، على تتبع الآثار المادية والشواهد الكتابية لاستخراج أمثلة عن التفاعل الثقافي الذي خلف بصمات واضحة في تاريخ الجزائر القديم.

وإذا كان من المتعذر، حسب المستوى الذي بلغته معارفنا الآن، أن نتبيّن جوانب من العلاقات الثقافية بين جزائر ذلك العهد الباكر والبلدان المجاورة فإننا لا نستطيع أن ننكر الإتصال البشري الذي حدث بين سكان المنطقة المغربية المعروفين آنذاك بالليبيين وبين الشعوب الأخرى وخاصة منها المصريين القدامى. إذ تذكر الوثائق المصرية (الفرعونية) أنّ الليبيين كانوا يضغطون باستمرار على بلاد النيل وأنهم تمكنوا من الإستقرار هناك وتوصلوا إلى السلطة مؤسسين أسرات حاكمة في مصر (الأسرات 25-26-28-30) مارست سيادتها على بلاد النيل انطلاقا من مدينة «سايس» التي ازدهرت في عهد الحكم الليبي بمصر وذاع صيتها فأصبحت منبعا لنهضة حضارية نسبت إليها.

وقد نقل الليبيون إلى مصر عناصر ثقافية مختلفة منها المعبودات التي كيفوها مع المعبودات المصرية كما هو الشأن في المعبود آمون المعبر عنه برسم الكبش حامل القرص. وكذلك آلهة النسيج (نايت) التي كان أتباعها كثيرون في مصر،

وهي من أصل ليبي بناء على رأي «هيرودوت» الذي ماثلها بأثينا عند الإغريق. وخلف الليبيون بصمات فنية واضحة في سجل الفنون المصرية القديمة حيث تميزت الرسوم العائدة إلى عهدهم بمصر بطابعها الشعبي عاكسة خصائص مجتمع شغوف بالمعارك ومنازلة الأعداء. وهو ما يخالف مضمون الفن المصري الأصيل، وبالمقابل فقد انتقلت تأثيرات مصرية إلى بلاد المغرب عن طريق تلك الإتصالات.

وكان الليبيون القدامى على صلة بالعالم المتوسطي منذ العهد المينوي الكريتي (أي ما قبل الإتصال الفينيقي ببلاد المغرب)، وهو ما أشارت إليه النصوص الأدبية اليونانية القديمة ثم أكدته البقايا الأثرية المكتشفة بجزيرة كريت. وكان لملكة مينوس الكريتية علاقات اقتصادية بليبيا التي زودت المجتمع الكريتي بنباتاتها العطرية الطبية مثل نبات السلفيون الذي كان مرغوبا في أسواق كريت، وقد تحدث هيرودوت فيما بعد عن التأثيرات الليبية الواضحة في المجتمع الإغريقي، حيث ذكر تبني الإغريق لبعض التقاليد الحضارية الليبية وأنهم عبدوا معبوداتهم وتشبهوا بهم في الملبس، ويقول بخصوص اللباس واصفا جلبابا ليبيا مشهورا كان يصنع في الأصل من جلد الماعز بأن الإغريق أخذوا عن الليبيين هذه التفصيلة وألبسوها إلهتهم أثينا مضيفين إليها أهدابا على شكل ثعابين، وأنّ هذا الثوب كان يحمل اسما ليبيا لدى الإغريق، وذكر أيضا أن بعض الأهازيج (الأناشيد) التي كانت تردد في المناسبات الدينية ببلاد الإغريق انتقلت إليها من ليبيا.

إنّ هذه المقتطفات عن شواهد الإتصال بين بلاد المغرب ومناطق الثقل الحضاري في العالم القديم (مصر وبلاد اليونان) قد مهدت السبل لتفاعل ثقافي برزت مظاهره بعد ذلك في العهدين الفنيقي والروماني، وتمثلت في الحضارة البونيقية-الهيلينية-اللاتينية التي خلفت شواهدها المادية والمعنوية في بلادنا، وكان لأسلافنا فيها إسهام واضح لا يمكن تجاهله.

- مجالات التفاعل الثقافي

- اللغة الفينيقية

تعتبر اللغة الفينيقية عنصرا تاريخيا هاما في بلاد المغرب كلها، وذلك لسببين أساسيين على الأقل، هما أنّ اللغة الفينيقية كانت أولى اللغات السامية المكتوبة، التي تعرف عليها المغاربة في زمن مبكر نتيجة لذلك الإتصال السلمي بالبحارة التجار القادمين من الساحل السوري، ونجم عن ذلك الإتصال الودي أن تعلم المغاربة (أي الليبيون) لغة الوافدين واستمدوا عن طريقها كثيرا من عناصر الثقافة الشرقية (السامية). والسبب الثاني يتجلى في كون اللغة الفينيقية تبناها سادة القوة وأعيانهم وأصبحت لغة التعامل لديهم فاحتوت بذلك على معلومات تاريخية بالغة الأهمية بالنسبة لتاريخ الممالك المغربية القديمة.

وقد تركزت اللغة الفنيقية بادئ ذي بدء في المستوطنات الساحلية على امتداد الشواطئ المغربية كلها، ثم انتشرت عبر الأرياف المجاورة فتعلمها الريفيون الذين تعاطوا مع الفنيقيين، وما لبثت أن أضحت لغة عمومية بعد أن ظهرت قرطاجة كعاصمة للفنيقيين بالمغرب.

وطرأ على اللغة الفينيقية خلال القرون الأولى من الإستيطان الفينيقي ببلاد المغرب تطور ظهر في شكل الحروف وفي المضمون اللغوي والثقافي، وهذا ما جعل المختصين يطلقون على لغة وكتابة القرطاجيين لفظ «البونيقي» تمييزا لها عن الفينيقية الشرقية.

وكانت البونيقية لغة التجارة والمعاملات، كما كانت لغة الأدب والثقافة الرفيعة لدى الأوساط المتحضرة كما كانت لغة الإدارة والسلطة والمجتمع الراقي، وهذا ما تشهد به النقوش الأثرية المكتوبة بالبونيقية، حيث تم العثور بالمدن النوميدية الكبرى على الكثير من النصب النذرية وشواهد القبور والألواح التذكارية التي تعكس الهوية الاجتماعية لأصحابها.

وقد حافظت بعض المدن على استعمال اللغة البونيقية أثناء الإحتلال الروماني، ومنها طرابلس ولبدة ودوقة، حيث تدل الوثائق الأثرية على تواصل اللغة البونيقية بتلك المدن إلى القرن الثاني بعد الميلاد رغم غزو اللغة اللاتينية للمدن والحواضر المغربية.

كما ظل التخاطب بالبونيقية متواصلا ببعض الأرياف القريبة من المدن ذات العراقة البونيقية إلى القرن الخامس الميلادي، وهو ما شهد به الأسقف أوغسطين الذي ذكر بأنه كان يواجه صعوبات في إفهام جمهور الريف ما يريده باللغة اللاتينية، وأنه كان مضطرا لاستصحاب التراجمة المجيدين للغة البونيقية، وقد ارتاب كورتوا (Ch. Courtois) وغيره من المؤرخين فيما ورد عن أوغسطين معتقدا أن البونيقية زال أثرها قبل عهد أوغسطين بكثير وأن «الرومنة» قد عمت الحواضر النوميدية والأرياف المحيطة بها، وأنه ربما اختلط الأمر على أوغسطين فاعتقد الليبية هي البونيقية، والواقع أنّ الإكتشافات الأثرية الجديدة أكدت صحة رواية أوغسطين جاعلة فرضية كورتوا مجرد شكوك باطلة.

وقد قاومت اللغة البونيقية الغزو اللاتيني في المدن بصورة متفاوتة الفعالية، حيث ضعفت في مدينة كرطا أمام تعاظم شأن المجتمع اللاتيني الذي انغرس بها منذ سقوط مملكة نوميديا عام 46 ق.م. على يد قيصر الذي أقطع مرتزقة سيتيوس كرطا وإقليمها، بينما صمدت كلاما (قالمة) ومكثر ودوقة وغيرها مدة أطول في وجه المد اللاتيني.

ولقد رفضت روما الإعتراف باللغة البونيقية في الدوائر الرسمية فحرمتها من نفس الحياة، كما شجعت الأهالي على تعلم اللاتينية والإعتراف بثقافة روما وجعلت من ذلك معيارا يؤهل صاحبه للحصول على امتيازات مدنية ومنها درجة المواطنة الرومانية.

هذا وقد ساهم النوميديون في تطوير اللغة البونيقية التي تواصل انتشارها على أيديهم ببلاد المغرب مدة طويلة بينما تراجعت الفينيقية بالمشرق أمام ضغط

لغات أخرى كالإغريقية التي غزت مجتمعات الشرق ابتداء من فتوحات المقدونيين هنالك. ويتجلى مظهر التطور في بروز خط جديد دعي بالبونيقي الحديث هو أكثر قابلية للكتابة العادية التي كانت ترقم على سطوح مرنة كالواح الطين، ثم ما لبث هذا النموذج الخطي أن أصبح هاما يكتب على الألواح التذكارية والنذرية المنحوتة من الحجارة.

وانتشر الخط الجديد في المعاملات الرسمية وفي النقود النوميدية والموريطانية خصوصا أثناء القرن الأول قبل الميلاد.

ومن أهم المكتشفات الأثرية المتعلقة باللغة البونيقية في الجزائر القديمة مجموعة نقوش معبد الحفرة البونيقي بقسنطينة التي تم العثور عليها ربيع عام 1950. وهي تتكون من 300 نقيشة منها 276 بونيقية و12 إغريقية وبعض النقوش اللاتينية، ورغم الطابع النذري لهذه النقوش فإن لها أهمية تاريخية قصوى بالنظر لما تتضمنه من معلومات عن مجتمع مدينة كرطا آنذاك ومنها اللغة التي كان يستعملها أفراده في حياتهم اليومية.

كان ذلك الإكتشاف مثيرا للدهشة حيث لم يكن متوقعا أن تتغلغل اللغة البونيقية إلى ذلك العمق النوميدي. وقد عبر ألبير غروني على هذا الإحساس قائلا: «إنّ ما يدعو للإعجاب هو أن يوجد في كرطا وفي عمق بلاد البربر إشعاع قرطاجة الحضاري»:

ومن الأدلة القوية على تبني النوميديين للغة البونيقية وتشبعهم بثقافة الشرق أنّ مجلس الشيوخ الروماني اعترف لهم بذلك وسلمهم الكمية التي عفت عليها النيران من مكتبة قرطاجة، وكانت تلك المكتبة قبل سقوط قرطاجة عام 146 ق.م. من الشهرة بحيث ضاهت مكتبة الإسكندرية، ويمكن أن نضيف بأنّ ذلك التسليم اعتراف رسمي من طرف روما بالهوية الثقافية للملكة النوميدية. وقد اصطبغت الثقافة البونيقية عند النوميديين بطابع مغربي، حيث خالطتها عناصر ثقافية محلية فأصبحت مزيجا من الثقافتين الفنيقية الأصلية والليبية العريقة.

وقد كانت العائلات الميسورة شغوفة بحب المعرفة حريصة على تنشئة أبنائها تنشئة ثقافية مولعة بجمع التحف الفنية وإقامة الأضرحة الجميلة تكريما لأعيانها، كما كان الملوك حريصين على تعليم أبنائهم وإيفادهم إلى العواصم العلمية الكبرى لمواصلة التحصيل والنهل من منابع المعرفة الغزيرة، فمستنبعل وغلوسا ومكيبسا كانوا أكثر أبناء مسينيسا إطلاعا على معارف عصرهم مجيدين لليونانية فضلا عن البونيقية، وقد كان مسينيسا نفسه مولعا بالثقافة والفنون ومجالسة أهل المعرفة من مختلف الجنسيات وخاصة منهم- الإغريق الذين كانوا على صلة ودية بالملك، وقد مكنت هذه التقاليد الثقافية أبناء الأسرات الملكية النوميدية من الأخذ بنصيب وافر من معارف العصر، وهو ما ساعد بعضهم على ممارسة هوايته الأدبية والفنية، فبرز كتاب أمراء وملوك أمثال يمسال الثاني (110-60 ق.م) حفيد مستنبعل، ويعد يمسال هذا أول الأدباء النوميديين الملوك المعروفين لدينا، ولقد ألف كتبا كثيرة في التاريخ والجغرافيا باللغة البونيقية التي كان ضليعا فيها. وذكر صلوستيوس صاحب كتاب «حرب يوغرطة» أنه أستقى معلوماته المتعلقة ببلاد المغرب من كتب يمسال الذي كان محتفظا ببقايا مكتبة قرطاجة، وحسب صلوستيوس فإنّ بعض تلك الكتب القرطاجية متعلق بتاريخ المغرب وجغرافيته وسكانه. ولسوء الحظ أنّ تلك الكتب فقدت مثلما فقدت كتب يمسال نفسه. وقد تحدث كثير من الكتاب الإغريق واللاتين عن أهمية المكتبة القرطاجية مشيرين إلى محتوياتها القيمة، والظاهر أنّ آخر المستفيدين منها هو يوبا الثاني الذي اعتمد على ما ورد في بعض كتبها الجغرافية عندما كان يعدّ رحلاته الإستكشافية بحثا عن منابع النيل.

ولا يتسع مجال هذا العرض القصير للتطرق إلى المقتطفات التاريخية المنسوبة إلى يمسال بشيء من التحليل، غير أنه يمكن القول بأنها تضمنت أخبارا اعتبرها المؤرخون من قبيل الأسطورة لكنها تحتاج إلى قراءة جديدة على ضوء مستجدات

علم الآثار، وينبغي أن نذكر بأنّ ما ينسب إلى صالوستيوس الروماني من أخبار تتعلق ببلاد المغرب كلها (ليبيا) هي في الواقع منقولة عن الكاتب والمؤرخ النوميدي يمسال، إذ أنّ صالوستيوس أشار صراحة إلى كتب يمسال عدة مرات بخصوص موضوعه.

إنّ ضياع كتب الملك النوميدي يعد خسارة كبرى بالنسبة لتاريخنا الثقافي العريق، ذلك أنّ ما نقله صالوستيوس من تلك الكتب ضئيل جدا، فضلا عن كون صالوستيوس لم يراع في النقل قواعد الإستناد الصحيحة زيادة على أن ما أورده كان من باب المعلومات التمهيدية بالنسبة لموضوعه الرئيسي «حرب يوغرطة» ومن ثم لم يعط كتب يمسال العناية اللازمة.

- الثقافة الإغريقية

سبقت الإشارة إلى أن العلاقات كانت قائمة بين بلاد المغرب وبلاد اليونان منذ العصور التاريخية الباكرة وأن سبل التأثر عديدة من الجانبين. وبعد انفتاح الشمال الإفريقي على العالم المتوسطي أثناء التواجد الفنيقي أصبح الإتصال أكثر سهولة ويسرا خصوصا بعد الإنتشار الإغريقي عبر الحوض الغربي للمتوسط واستقرار جاليات يونانية ببرقة وصقلية وسردينيا وقيام البحارة الإغريق بمحاولاتهم لاكتشاف البلاد الواقعة خلف القرطاجيين (أي نوميديا وموريطانيا). وكانت حالات التوتر في العلاقات بين نوميديا وقرطاجة عاملا مشجعا للإغريق كي يقدموا على توطيد علاقاتهم بالنوميديين نظرا لاتفاق وجهة نظر الطرفين إزاء القضايا المتوسطية ومنها الرغبة في الحد من هيمنة قرطاجة البحرية ونفوذها التجاري الواسع في حوض المتوسط الغربي. كما جاءت هزيمة قرطاجة في حربها ضد الرومان فاتحة عهد جديد بالنسبة للدول الإغريقية ومملكة نوميديا التي منحتها معاهدة ما بعد الحرب امتيازات كبرى منها الحق في التعامل المباشر مع

العالم الخارجي وربط علاقات تجارية ودبلوماسية مع الدول المجاورة، ومنها دول الإغريق، فاندفع التجار الإغريق نحو الموانئ والمدن التجارية النوميدية، كما عمل ملوك الإغريق ووجهائهم على التقرب من ملوك نوميديا وأمرائها، وما لبثت هذه العلاقات أن أضحت صداقة بين الطرفين توطدت أواصرها عن طريق السفارة والزيارة وتبادل الهدايا والتكريم، من ذلك أن نوميديا كانت توفد أمراءها في بعثات طلابية إلى العواصم اليونانية لتلقّي المعرفة على أيدي أدباء وفنانين إغريق، وتذكر المصادر أنّ بلاط مسينيسا كان حافلا بالموسيقيين والأدباء والفنانين الإغريق، وأنّ الملك كان شغوفا بمجالسة أمثال هؤلاء الرجال، مما يدل على معرفته للغة الإغريقية وإعجابه بالأدب والفكر اليونانيين.

وقد احتفظت لنا الأخبار بأن ثلاثة من أبنائه على الأقل، وهم مستنبعل وغلوسا ومكيبسا، الذين تقاسموا السلطة في المملكة بعد وفاته، كانوا مثقفين باليونانية زيادة على ثقافتهم البونيقية والليبية. وينبغي أن نشير إلى أن اللغة اليونانية كانت آنذاك لغة حضارة مزدهرة، وسعت علوم العصر ومعارفه، بحيث لم يكن مقبولا من أي كان أن يدعي المعرفة إن لم يكن قد درسها باليونانية أو في عواصم علمية ذات طابع يوناني، ثم أن اللغة الإغريقية قد أصبحت بعد التوسع الإغريقي شرقا وغربا لغة عالمية بالنسبة للعالم القديم، حيث انتشرت في آسيا الصغرى ومصر وليبيا إيطاليا وشمال إفريقيا، وغدت لغة التجارة والعلم معا، وقد كان متعذرا على التجار الإيطاليين مثلا، خلال القرنين الثاني والأول قبل الميلاد أن يتفاهموا مع النوميديين من غير استعمال البونيقية أو الإغريقية أو استخدام مترجمين.

وبالنسبة لهذه الحقيقة يمكننا أن نقول بوجود تعايش لغوي ثلاثي (ليبية بونيقية-إغريقية) وذلك في أوساط محدودة على الأقل، ولدى الفئة المثقفة من علِية القوم، والذي دعانا إلى هذا الإفتراض أنّ مدينة كرطا (قسنطينة) مثلا قد عرفت هذه الثلاثية اللغوية أثناء العهد النوميدي بدليل نقوش معبد الحفرة المشار إليها

أعلاه. وهي نقوش تضمنت نماذج للغات الثلاثة بصفة متفاوتة الحجم طبعا، وقد اعتقد بعض المؤرخين أنّ النقوش الإغريقية بمدينة كرطا تخص جالية إغريقية كانت تعيش في تلك المدينة النوميدية الحصينة، لكن هذا الإفتراض لا يتعارض مع القول بوجود الناطقين بالإغريقية من النوميديين بالمدينة خاصة إذا تذكرنا أنّ النقوش البونيقية نفسها تضمنت أسماء إغريقية والعكس صحيح.

ولدينا في مقتطفات كتب يمسال ما يشير إلى هذا التفاعل، حيث كان يمسال على إلمام كاف باللغة الإغريقية مكنه من الإطلاع على ما كتبه اليونانيون بخصوص موضوعه، ومنه أخبار رحلة هيراكليس نحو الغرب المتوسطي وما نشأ حولها من أساطير، وهي أخبار أوردها يمسال بصفة مطابقة لما جاء في الكتب الإغريقية.

ونأتي أخيرا إلى ألمع شخصية نوميدية من حيث سعة الثقافة وتعدد اللغات وكثافة المعارف إنه يوبا الثاني الذي يعد أفضل حصيلة للتفاعل الثقافي في الجزائر القديمة، هذا الملك الذي سلبه الرومان حرية السيادة الفعلية على مملكته فقال فيه بلينوس صاحب كتاب التاريخ الطبيعي: «إنّ شهرة يوبا الثاني كعالم هي أكثر من شهرته كملك». وقال فيه جوليان قولا قاسيا: «لم تترك له الحماية الرومانية سوى المظاهر فانصرف إلى العناية بالمجموعات الفنية والأدب الرخيص».

ولا يهمنا التعرض لحياة يوبا الثاني بقدر ما يهمنا الأثر الثقافي المتجلي في أعماله الأدبية العلمية، لقد أتاحت له فرصة الأسر بروما بعد مقتل والده يوبا الأول عام 46 ق.م. وهو صبي، أتاحت له فرصة الإحتكاك أكثر من غيره من أبناء جلدته بالأوساط الثقافية والعلمية، حيث تمت تنشئته في أحضان الأسرة الإمبراطورية مع أقرانه من أبناء الملوك المهزومين، فتعلم اللاتينية واليونانية وتضلع فيهما، وأتقن فنون الخطابة والشعر، كما أتقن اللغة البونيقية مع أنه كان «مغتربا» بالنسبة إلى

تلك اللغة فاستفاد من الكتب البونيقية ومنها كتب جده يمسال التي آلت إليه، بالإضافة إلى إتقان لغة قومه الليبية طبعا، كان إضافة إلى ما تقدم على دراية واسعة باللغات الأخرى كالعربية والعبرية والأرمينية والحبشية، وقد اعتبره بلوتارخوس الإغريقي صاحب كتاب «حياة المشاهير» أفضل المؤرخين العلماء الإغريق. حيث كان واسع المعارف التاريخية والجغرافية مطلعا على علوم عصره ملخصا لقواعدها ومدونا في أصولها. وقد اتصف بالمثابرة وشدة الأناة متحملا مشاق ومصاعب اللغات وفقهها، من ذلك أنه درس اللاتينية وتفقه فيها وصنف المفردات الدخيلة عليها.

وحتى يتمكن يوبا من إشباع فضولية حب الإطلاع لديه جهز مكتبة كبيرة أنيقة وزودها بأمهات الكتب والمستندات ووظف لها أمهر النساخ والمترجمين والمصنفين، وكان يستجلب لها الكتب من حيث كانت ويرصد لها أموالا طائلة فتوفرت لديه أعدادا ضخمة من المخطوطات بمختلف اللغات وعلى رأسها المخطوطات اليونانية واللاتينية والبونيقية، فكانت المكتبة إحدى درر عاصمة ملكه قيصرية (شرشال).

ولقد عاصر يوبا فطاحل مرموقين من الإغريق واللاتين، أمثال ديودور الصقلي وليفيوس الروماني والإسكندر الميلتي وديديم الإسكندري الذي كان أحد رفقاء يوبا ومجادليه الكبار، كذلك فارون الروماني وغيره ممن تميز بهم العصر المخضرم (نهاية العهد الجمهوري وبداية الإمبراطوري الروماني)، وهو العصر الذي بلغت فيه روما عظمة مجدها وسؤددها.

وأهم كتبه المفقودة كتابه المعنون بـ«ليبيكا» (أي أخبار ليبيا) وكما هو واضح من عنوانه فإن هذا الكتاب قد تضمن معلومات قيمة عن بلاد المغرب القديم، وقد نقل عنه بلينوس ومن جاء بعده معارف أساسية في التاريخ والجغرافية والأساطير والطبيعة والحيوان، ويعد كتاب «ليبيكا» مصدرا هاما عن حيوانات ليبيا القديمة وخاصة منها التي كانت تعيش في مملكة موريطانيا، ومنها الفيلة والنمور والأسود

والغزلان وحمير الوحش وما إليها. وقد أخص يوبا بلاد العرب بكتاب مماثل فيه معلومات هامة تمكن من الحصول عليها أثناء تواجده هناك كحاكم للمقاطعة الرومانية بها، وقد رجع بلينوس إلى هذا الكتاب واستقى منه معلومات هامة أغنى بها كتابه «التاريخ الطبيعي». كما عني يوبا بالنباتات والأعشاب الطبية وقدم وصفا قيما لها ردده بلينوس في عدة مناسبات، كما اهتم بتاريخ الفن وألف فيه وفي مشاهيره، ولم يهمل الموسيقى التي وصف في كتبه أنواعا منها تبعا لبلدانها، وكتب في المسرح، وكان مولعا بالمسرحيات المأساوية. واستطردت به فضوليته إلى الإهتمام بفن الحديث ولغة التخاطب وما داخلها من ألفاظ فاسدة فألف في ذلك كتابين.

وعلى الرغم من أنّ بعض المؤرخين استصغر قيمة الإسهام العلمي والثقافي الذي قدمه يوبا، حيث وصف جوليان أدبه بالرخص ونعت غوتي وقزيل أعماله بالرداءة فإنه يكفي أن نذكر أنّ بلينوس قد استشهد به صراحة 38 مرة في كتابه «التاريخ الطبيعي» وألمح إليه عشرات المرات، كما ذكره بلوتارخوس أكثر من 8 مرات في مؤلفه «حياة المشاهير»، وألمح إليه مرات عديدة، كما اعتمد على كتابه «آثار روما» اعتمادا أساسيا لدى وصفه لتطور روما وأخبار مشاهير ملوكها، وقد تواصل الإستشهاد بكتب يوبا إلى القرن الخامس الميلادي، حيث ذكره كثير من الكتاب ومنهم إيليوس صاحب كتاب «طبيعة الحيوان» الذي أورد كلام يوبا في كتابه هذا عدة مرات وخاصة لدى تعرضه لوصف الفيلة، كما استند عالم الحيوان الإغريقي الإسكندر مينوس إلى مؤلف يوبا في هذا الشأن.

هذا، وإن لم يعترف بعض المؤرخين المحدثين بقيمة يوبا العلمية والثقافية فإنّ معاصريه اليونان لم يغمطوه حقه حيث منحه الأثينيون المواطنة الشرفية تكريما له وأقاموا له تمثالا جميلا أمام مبنى الجيمنازيوم اعترافا بفضله وتخليدا لمكانته المرموقة بين المثقفين المعاصرين.

3 - تنمية الزراعة والإستقرار وظاهرة البداوة في العهد الروماني

لعله من المفيد أن نشير بادئ ذي بدء إلى أنّ هذه المحاضرة لا تستهدف تحليل البداوة في الجزائر القديمة من حيث كونها ظاهرة اجتماعية اقتصادية أوجدتها عوامل جغرافية معينة، ولكنها تبتغي التركيز على العوامل الإستعمارية المتجسدة في سياسة الإستيطان الرومانية التي قامت على أساس مصادرة الأراضي وتوسيع المجال الزراعي على حساب المجال الرعوي وتغليب الإستيطان الأجنبي على الأهالي وبالتالي إحكام الرقابة على مربي الماشية والتحكم في حركة الرعي وتوجيهها بعيدا عن مواطن الإستقرار والزراعة.

ويجدر التنبيه أيضا إلى أنّ الحدود الجغرافية لهذا العرض القصير لا تتجاوز الشمال الجزائري أي ما يسمى اصطلاحا بالتل والرفارف الشمالية للصحراء الكبرى، وهي المنطقة الزراعية التي أخضعها الرومان لاحتلالهم وكذلك تخومها الجنوبية التي أحكموا مراقبتهم لها.

فالموضوع إذن يدور حول العلاقة بين الإستيطان الروماني والأهالي وما ترتب عن ذلك من تكريس لظاهرة التبدي في أوساط كثيرة من السكان المعتمدين على الرعي والزراعة معا.

- البداوة ببلاد المغرب

إنّ الخصائص الجغرافية للمغرب عامة والجزائر خاصة تسببت، منذ فجر التاريخ إن لم نقل منذ النيوليتي (العصر الحجري الحديث)، في بروز ظاهرة الرعي وتميز أكبر نسبة من سكان المغرب بالحركة والإنتجاع.

ومواضيع الفنون الصخرية العائدة إلى عصور الرعي الباكرة تقدم لنا أوضح البراهين على رعاة البقر الأوائل في الصحراء الكبرى ونزوحهم عنها هربا من ظاهرة القفر الزاحفة، فخلفوا لنا عبر مسيرتهم وراء الكلأ والماء بصمات ذلك الصراع المرير من أجل البقاء. ولقد كان لحركة التصحّر التي لا يزال يكابد آثارها المهلكة رعاة اليوم دور كبير في اتساع دائرة البداوة بالمغرب وتراجع الغطاء النباتي وتقلص مجال الزراعة.

وقد وصف لنا المؤرخون اليونان وأولهم هيرودوت سكان المغرب (ليبيا القديمة) بأنهم صنفان، تبعا لطبيعة أرضهم، بدو رحل ومزارعون مستقرون. ولم يشر الإخباريون اليونان إلى أصناف البدو كما نعرفهم اليوم، وهم: رعاة الإبل (الجمالة) المرتبطون بأقاصي الصحراء، ورعاة الأغنام المتواجدون بالحواف الشمالية للصحراء وسهوب التل. لأن النوع الأول لم يكن واضحا آنذاك بل كان في شكل رعاة الأبقار الذين تلاشوا ليخلفهم رعاة الإبل بعد انتشار هذا الحيوان العجيب بالصحراء الكبرى في العصور التالية.

أما في العهد النوميدي فيمكننا أن نستخلص من تفسير النصوص استمرار هذه الثنائية في أنماط المعيشة: بدو رعاة ومستقرون مزارعون. وربما كان امتهان الرعي وتربية الماشية أكثر انتشارا من احتراف الزراعة لدى النوميديين بصفة عامة خاصة قبل رواج الإنتاج الزراعي (القمح النوميدي بأسواق المتوسط: اليونان، وإيطاليا خاصة) ابتداء من القرن الثاني قبل الميلاد.

ويظهر أن الملوك النوميديين كانوا حريصين على الإستفادة من هذه الثنائية (الرعي-الزراعة) التي حتمتها طبيعة البلاد وشجعتها حاجات السوق المحلية والخارجية. فقد كانت الخيول النوميدية تتمتع بشهرة دولية كبرى ويتنافس على اقتنائها الأمراء والفرسان حتى أنّ الدولة كانت تشرف على تربية الخيول بمزارع خاصة ضمت آلاف الرؤوس أحيانا (منطقة كرطا 10 آلاف رأس...).

وكذلك الشأن بالنسبة للأبقار التي أثارت كثرة أعدادها وجمال منظرها بالحقول الخضراء اعجاب شهود عيان إغريق. أما شهرة القمح النوميدي فهي معروفة عند الجميع ولا داعي لذكر العناية التي كان يوليها ملوك نوميديا لزراعته والإكثار من انتاجه.

وكما أن المزارعين مارسوا مهنا إضافية إلى جانب الفلاحة كالحدادة والحياكة، فإنّ البدو الرحل قد مارسوا بدورهم مهنا أخرى إلى جانب الرعي وأهمها التجارة. ذلك أنهم كانوا بحكم معرفتهم بالطرق والمسالك ومراكز العمران أقدر من غيرهم على نقل البضائع ومبادلتها بين الصحراء والتل الأمر الذي جعلهم يشكلون همزة وصل بين مراكز التجارة في الشمال وواحات الصحراء الكبرى وما وراءها، خاصة بعد استعمالهم الجمل في النقل. ويظهر أنّ دور البدو قد برز أكثر في عهود الإستقرار السياسي النوميدي، خاصة في عهد العاهل مسينيسا وابنه مكيبسا، مما أثر على حياة الإستقرار والنشاط الزراعي الأمر، الذي حدا بأولئك الملوك إلى العمل على الحد من مخاطر الترحل والتحكم في أوضاع السكان بتشجيعهم على الإستقرار والتحول إلى مزارعين. وقد أثارت جهود مسينيسا في هذا السبيل إعجاب المؤرخ اليوناني بوليبيوس فامتدحه منوها بالنجاح الذي حققه في هذا الميدان.

يجب أن ننبه هنا إلى أنه لم يرد في المصادر القديمة ما يشير إلى استعمال الدولة للوسائل العسكرية قصد التحكم في الوضع بإجلاء الرعاة عن مضاربهم أو

إبعاد القبائل عن مواطنها لإفساح المجال للمزارعين مثلما حدث فيما بعد على يد الرومان كما سنرى.

وأشهر القبائل اشتهارا بالبداوة مجموعة الجيتول التي كانت ضاربة فيما بين المحيط الأطلسي وفزان ضمن إطار جغرافي فسيح يمتد عبر السهوب والسفوح الجنوبية لمرتفعات الأطلس وشمالي الصحراء، وهو الإقليم المتميز بالمظهر الطبيعي الإنتقالي (بين التل والصحراء) وقد اشتهر الجيتول في التاريخ القديم بكونهم رعاة نموذجيين لم يتردد سترابون في تشبيههم ببداة العرب، واصفا خيولهم وأبقارهم بالأعداد الكبيرة وأنهم كانوا أكثر الليبيين قوة وصلابة عود. وقد تكرر نعت الجيتوليين بمثل هذه الأوصاف في النصوص والوثائق اللاتينية فيما بعد بمناسبة تحركاتهم المقلقة للمؤسسات الزراعية الرومانية التي أقامها الرومان بالأراضي التي ألف الجيتول الإنتجاع بها. غير أنّ الجيتوليين لم يكونوا رعاة فحسب بل إنّ بعضهم مارس الزراعة إلى جانب الرعي كما اشتهروا بكونهم محاربين عتاة، ولقد تنبه القرطاجيون لشجاعتهم وشدة مراسهم في القتال فجندوهم أثناء الحروب، وكانوا مقاتلين أشداء في جيش حنبعل، كما استغلهم الرومان فيما بعد بالفرق المساعدة المكونة من الأهالي.

- حاجة الرومان إلى الأراضي الزراعية ومصير الرعاة

كان سقوط مملكة نوميديا عام 46 ق.م. بيد قيصر إيذانا بانتهاء عهد السيادة والإزدهار القائم على الإستقرار والتوازن بين الأنماط الإقتصادية والاجتماعية، وقد صرح يوليوس .قيصر بهذه المناسبة أمام مجلس الشيوخ، معبرا عن أهمية الغنيمة التي أحرز عليها بانتصاره على يوبا وحلفائه، صرح قائلا: لقد أتيت للشعب الروماني ببلد يستطيع أن يزوده بمقدار 840 ألف قنطار من القمح. ووزع قيصر قبل عودته إلى روما مساحات زراعية هامة على جنوده المسرحين، وأخذت

جموع المزارعين الرومان تتوافد على نوميديا قصد الإستفادة من سياسة الإستيطان التي شرع فيها قيصر وواصلها خلفاؤه بعده.

وقد جسّد الرومان حاجتهم إلى الأرض الزراعية في الإجراءات التالية:

أولا – قيام الجيش بعملية مسح الأراضي المحتلة وإحصائها لإصباغ الطابع القانوني عليها وإدراجها ضمن ممتلكات الشعب الروماني العامة Ager Poblicus كي يسهل على الدولة أن تؤجرها وتستفيد من عائداتها، أو توزعها على الجنود المسرحين أو الفلاحين القادمين من إيطاليا في إطار سياسة الإستيطان.

ثانيا – ممارسة الجيش لعمليات طرد الفلاحين ومربي الماشية من الأراضي الواقعة بالمناطق التي شملتها مخططات الإستيطان أو المناطق ذات الطابع العسكري. وتذكر المصادر أنّ قبائل كثيرة شملها الإبعاد، منها قبائل الموزولامي الأوراسية التي بادرت بمقاومة الإحتلال تحت زعامة تكفاريناس، وكذلك قبيلة النوميد الضاربة بمنطقة مداوروش وقبيلة النبجني بشرقي الأوراس وغيرها من القبائل التي أرغمت على التحول إلى حياة التنقل خارج الأقاليم التي سيطرت عليها المستوطنات الرومانية.

ثالثا – منع القبائل شبه البدوية (أنصاف الرحل) من التردد على المراعي الشمالية التي تعودت عليها منذ القديم، وقد ضرب بينها وبين هذه المصائف بحدود محكمة التحصين فاضطر الكثير منها إلى تغيير وجهته نحو السهول الغربية ومرتفعات الأطلس الصحراوي الغربية وسفوحها الجنوبية وهوامش الصحراء.

ورافق هذه الإجراءات أو تلتها موجة من تنافس أصحاب الإستثمارات من الرومان على احتياز الأراضي الزراعية واستغلالها استجابة لحاجة السوق إلى الغلال، وبرزت في هذه العملية طبقة من الرأسماليين الرومان وصفهم بعض المؤرخين بالإمبرياليين حيث تخصصت في إنتاج نوعية معينة من الغلال تلبية لاحتياجات السوق.

وهكذا أصبح من المحتم على الفلاحين الصغار والرعاة أن يتحولوا إلى يد عاملة رخيصة بتلك الضياع الغاصة بالعبيد أو ينجلوا نحو المناطق النائية راضين بشظف العيش.

- أثر الكثافة البشرية والتوسع الزراعي على أنصاف البدو

نظرا لأهمية نوميديا اقتصاديا تعرضت لتوافد بشري من جميع أنحاء حوض المتوسط وخاصة من إيطاليا، وقد نزلت بها جاليات إيطالية منذ عهود الإستقلال اشتغلت بالتجارة. لكنه منذ سقوط المملكة عام 46 ق.م. ظهر عنصر المزارعين والجنود والإداريين وأخذت نسبته ترتفع مع الأيام حتى غصت المدن والقرى بالسكان. وقد أثر هذا التوافد، الذي لم تراقبه السلطة، على الوضع الديمغرافي في البلاد وأحدثت خللا واضحا في توازن العناصر البشرية من حيث الجنس والتوزع جغرافيا.

كما أثر على قدرة الإنتاج الزراعي واستيعاب الأراضي للفلاحين. وقد برزت الأزمة خلال القرن الثاني بحدة أشار الكاتب المسيحي ترتوليانوس إليها بقوله «في كل مكان بيوت وفي كل جهة شعب وبكل ناحية مدينة... إنّ الجنس البشري تزايد كثيرا».

ولا داعي هنا للتعرض إلى تقديرات عدد السكان وتحديد الكثافة الكيلومترية لأنّ ذلك لا تتحمله هذه العجالة، غير أنه يجدر أن نشير إلى ظاهرة ديمغرافية تؤكد لنا الصبغة الإستعمارية للنمو الديمغرافي آنذاك. إنها ظاهرة تفوق عدد الذكور عن عدد الإناث في مجتمع المستعمرات الرومانية. لقد لوحظ مثلا أن نسبة الذكور في الأعمار المتراوحة بين 20 و29 قد بلغ 257 مقابل 100 من الإناث في نفس السن (بعض العينات المدروسة من شواهد القبور بالشرق النوميدي)، ولا يوجد ما يفسر هذه الظاهرة سوى أن الوافدين كانوا من الشبان الذكور الذين لم يتخذوا كلهم زوجات في هذه السن.

وكان من نتائج ارتفاع الكثافة البشرية أن ازدادت الحاجة إلى الأرض الزراعية لاستيعاب الفائض من المزارعين واليد العاملة الريفية، ورافق هذه الكثافة البشرية تزايد في حاجة روما إلى المنتوج الزراعي، خاصة من القمح والزيت، ومن ثم كان على الأباطرة أن يجدوا حلا للأزمة. وهكذا جاءت القوانين الزراعية الخاصة بإفريقيا، وهي تتعلق بتوسيع الخريطة الزراعية وتشجيع المزارعين على استصلاح الأرض وتملكها وضمان رسوم الدولة على إنتاجها. ومن أهم تلك التشريعات الفلاحية القوانين المعروفة بقوانين مانكيا Lex Mancia التي تتضمن معلومات قيمة عن أوضاع الأرض والمنتفعين بها.

وأهم ما ترتب عن تلك التشريعات بالنسبة للبدو أمران:

أولهما أنّ أراضي رعوية كثيرة شملها الإستصلاح فمنع عنها الرعي.

وثانيهما انتشار زراعة الزيتون على نطاق واسع بتلك المساحات المستصلحة وخاصة منها الواقعة بالمراعي الواسعة، مما جعلهم ييأسون من الأمل في العودة إليها.

ولم يبق أمامهم سوى التخلي عن حرفة الرعي وامتهان العمل الزراعي بحقول الزيتون والقمح أو الإنتقال إلى الأقاليم الرعوية النائية بالصحراء والسهوب الغربية التي لم تصلها بعد أيدي الإستيطان.

- التحصينات العسكرية بالحدود الجنوبية وأثرها على البدو

إنّ دراسة المنشآت العسكرية على تخوم المقاطعات الرومانية بنوميديا وموريطانيا القيصرية تؤكد أن الهدف الرئيسي من إقامتها يكمن في حماية الأقاليم الزراعية ومؤسسات الإستغلال الزراعي القائمة بها من البدو الذين ألفوا التردد عليها في مواسم معينة من السنة لاستكمال دورتهم الاقتصادية (رحلة

الربيع شمالا-رحلة الخريف جنوبا). وقد اهتدى الرومان إلى معابر البدو ومسالكهم نحو التل واكتشفوا مرابضهم القائمة بالقرب من معالم المياه (آبار-ينابيع-وديان جارية...) فأقاموا تحصيناتهم بها وربطوا بينها وبين المعسكرات والمدن التلية والساحلية بطرق عرضية وأخرى طولية متعامدة معها فبرزت شبكة طرق محكمة التوجيه والنظام لعبت دورا أساسيا في سيطرة الجيش على حركة البدو، وليس المجال هنا مناسبا لتتبع مراحل إنشاء التحصينات الرومانية ضد البدو ووصف بنياتها واستعراض مراحل تطورها، غير أنه ينبغي الإشارة إلى أنّ تاريخ هذه المنشآت مرتبط بتاريخ حركة التوسع الإستيطاني في التل ومتزامن مع تطور الحاجة إلى الأرض الزراعية.

وربما أشهر الإجراءات العسكرية المضادة للبدو هي معسكر ديميدي قرب مسعد وجنوده السوريون الذين أوتي بهم من بلاد تدمر مجهزين بعتادهم الملائم لطبيعة البادية والصحراء وبمركوبهم (الجمل) الذي لعب دورا رئيسيا في تمكين هؤلاء الجنود الهجانة من قهر البدو ومراقبة تحركاتهم. لقد كان الجنود التدمريون متمرسين على قتال البدو الشوام ومدركين لطابع الرعاة وسلوكاتهم مما مكنهم من السيطرة على الوضع بذلك الموقع الهام (مسعد) الواقع في معبر رئيسي بين الجنوب والشمال والشرق والغرب.

غير أنّ هذه الإجراءات العسكرية وإن ظهرت نتائجها الإيجابية بالنسبة للرومان، لم تتمكن من المحافظة على هذا الوضع الشاذ المتمثل في منع البدو من التردد على التل ومراقبة تحركاتهم بالسهوب الغربية (النجود الوهرانية) وإخضاعهم لواقع فرضته قوة السلاح. ذلك أنه ما لبثت هذه القوة أن تلاشت نتيجة عوامل شتى فاستعاد البدو حريتهم واجتاحوا بلاد التل بعنف شديد.

4 - قراءة في ملف الدوناتية وثورة الريفيين بنوميديا خلال القرن الرابع الميلادي

يحتوي تاريخ المغرب القديم على فترات واضحة تظافرت حولها جهود الباحثين الأجانب فأبرزت أحداثها المختلفة عمقا وشمولية وتفسيرا بحسب اتجاهات الباحثين واجتهاداتهم. كما يحتوي على فترات غامضة لا تزال التساؤلات والإفتراضات حولها مطروحة.

ومن بين المواضيع التي أسالت حبرا كثيرا قضية المسيحية في إفريقيا (بلاد المغرب)، وما اعترض سبيلها من مصاعب في هذه البلاد، خاصة ما يتعلق منها بالصراع الديني وانقسام المسيحية إلى كنيستين: الدونانية زعيمة المقاومة ورمز الإستقلالية، والكاثوليكية زعيمة الإندماج والوحدة الدينية في ظل الإمبراطورية.

وقد تبوأت هذه القضية مركز الصدارة في اهتمامات الباحثين، سواء اللاهوتيون منهم أو اللائكيون، كما حظيت بدراسات عديدة ساهمت في إثراء مصادر تاريخ «شمال افريقيا النصرانية» مساهمة كبيرة. إلا أنّ هذه الدراسات قد جنحت نحو اللاهوتية متأثرة بوجدانيات الدارسين (وهم مسيحيون بطبيعة الحال)، ومن ثم أغفلت العوامل التحتية المحركة لتلك الأحداث والكامنة وراء الحركة الإنقسامية التي لزمت تاريخ المسيحية في إفريقيا، كما جانب بعض الباحثين الموضوعية فحمل الإنسان المغربي (البربري) مسؤولية ذلك الصراع

الديني المرير، على اعتبار أنّ ذلك يدخل ضمن طبيعة «البربري» الميالة للإنقسامية والتناحر المذهبي حسب زعمهم.

والواقع أن رسل المسيحية الأوائل في إفريقيا قد وجدوا استجابة في أوساط الأهالي منذ أواسط القرن الثاني الميلادي، بحيث اندفع الناس إلى اعتناق المسيحية، وصبروا للأذى الذي لحقهم من طرف الوثنيين ورجال السلطة بسببها. ولا يسعنا مجال هذه العجالة أن نلم بالملابسات التاريخية المتعلقة بالكيفية التي انتشرت بها المسيحية والأحداث التي صحبت ذلك، والضحايا الذين سقطوا فداء مبادئها، وهي جوانب نالت من الإهتمام والدراسة الشيء الكثير. إلا أنّ الذي يهمنا في هذه الظاهرة هو تفسير العوامل التي دفعت بأولئك المغاربة لاعتناق دين سماوي مجرد، يدعو للوحدانية ونبذ المعبودات الوثنية التي ألفها القوم منذ آلاف السنين، خاصة وأنّ الذين بادروا للتنصر لم يكونوا من الطبقة المتنورة عقليا، أو المتأثرة بالتيارات الفلسفية، بل كانوا من الطبقة الأقل شأنا في مجتمع ذلك العصر.

وفي تصوري أنّ تفسير هذه الظاهرة يساعدنا على فهم الأحداث اللاحقة المتمثلة في الإنقسام الديني وعلاقته بالمقاومة السياسية وبالثورة الريفية التي لم تنل حظها من الدراسة الموضوعية.

لقد احتفظت الوثائق المتعلقة بانتشار المسيحية في إفريقيا (بلاد المغرب) بما يؤكد أنّ المعتنقين الأوائل للمسيحية كانوا من الأهالي الأكثر تضررا بنتائج التوسع الروماني في البلاد، فضحايا عام 180م كانوا من الفقراء المضطهدين، كما أن «شهداء» Martyres سنة 203 ببلدة طبوربة Thuburba كان من بينهم خمستهم عبدان ورجلان فقيران وفتاة تدعى بيربتوا Vibia Perpetua.

لقد وجدت الطبقة المحرومة في المسيحية ملاذا للنفوس التي جرحتها الآلام وعصرها الشقاء وأنهكها الإجحاف الاجتماعي والضيم الإستعماري. ومن ثم لم

تنجح أعمال الإضطهاد في وقف انتشار المسيحية، بل زاد حماس الناقمين على الأوضاع في الدفاع عنها، وراح «البربر» كما يقول جوليان، يقدمون الضحايا للمضطهِدين (بكسر الهاء).

ولا يمكننا أن ندرك دوافع التنصر وعوامل المقاومة التي لبست ثوبا دينيا فيما بعد دون الإلمام بالأوضاع الاقتصادية والاجتماعية آنذاك، التي ترتبت عن اشتداد حركة التوافد الأجنبي على المدن وامتداد الإستيطان الروماني في الأرياف. وهي أوضاع كانت تشكل مناخا ملائما ساعد على انتشار المسيحية في إفريقيا بتلك الصورة العفوية المثيرة للإنتباه، كما كان يشكل أرضية مناسبة للثورة الريفية التي اندلعت عبر نوميديا مكتسحة مؤسسات الإستعمار.

لقد ركز الأباطرة اهتمامهم في تلك الفترة على توسيع مجال الإستيطان نحو الداخل وانتزاع الأرض من أصحابها، وإزاحة القبائل الرعوية عن مضاربها كي تترك المجال للمعمرين الإيطاليين، فضلا عن اكتظاظ المدن الإفريقية والنوميدية بالجاليات الأجنبية، فنتج عن ذلك تفكك في البنية الاقتصادية الاجتماعية للأهالي، وتزايد الكثافة السكانية في المدن والأرياف بصورة أوحت لأديب ذلك العصر ترتوليانوس (Tertulianus) بالقول: «يزداد استغلال العالم، وتعظم ثروته يوما بعد يوم، ففي كل مكان ديار، وفي كل مكان سكان، وفي كل مكان بلديات، وفي كل مكان حياة. إنه أبلغ دليل على تزايد الجنس البشري إننا عالة على الدنيا، فالعناصر الطبيعية لا تكاد تسد حاجتنا. لقد غدت الضرورات أشد إلحاحا، وأصبحت لا تسمع إلا صيحة واحدة هي أن الطبيعة سوف تضيق بنا».

لقد ألحقت تلك التحولات ضررا بالغا بالأهالي، إذ عملت على امتصاص الإنتاج الريفي ووضعه في خدمة الجاليات الأجنبية بالبلاد، أو تصريفه نحو روما. وبالتالي جندت الإنسان والأرض لصالح جمهور المدينة المكون من الأرستقراطية المحلية والجاليات الأجنبية المتزايدة، كما أصبحت البلاد مطالبة بتزويد روما

وأسواق الغلال المتوسطية بما تحتاجه من منتوج. فانجرّ عن ذلك تفاقم الشقاء الاجتماعي في أوساط الطبقة الدنيا من الناس، واشتد البؤس والحرمان، وعسر العيش على جمهور الأهالي، وهو بعض ما دفع بهم إلى الإرتماء في أحضان المسيحية التي قدمت لهم حلا بديلا، تمثل في التآخي في الله والتضامن الإنساني والتآزر الاجتماعي. وقد متنت هذه الأسس الأخلاقية العملية إيمان الفرد، وعززت أواصره بالآخرين ممن هم في مستواه. كما وجدت تلك الطبقة المحرومة في تعاليم المسيحية محتوى فكريا عبرت به عن موقفها من المؤسسة المدنية القائمة على القوة العسكرية والتمايز الاجتماعي. وقد خاطب ترتوليانوس في هذا المعنى مجتمع الوثنيين قائلا: «إنّ ما يؤاخي بيننا هو هذه الممتلكات التي تفرق فيكم الإخوة، إن لنا قلبا واحدا وروحا واحدة، ولا نتردد في تقسيم الممتلكات بيننا، فكل شيء مشترك بيننا ما عدا نسائنا».

وقد وجدت مثل هذه الأفكار في نفوس المقهورين صداها العميق، فكانت استجابتهم لها طواعية وعفوية. وغدت تلك الأفكار سندا قويا للمتنصرين اتخذوها سلاحا لهم ضد الضيم الاجتماعي والغبن الاقتصادي والتسلط الإستعماري، فهي مقاومة صامتة وسلمية، سلاحها قوة الروح، وهدفها العدل والمساواة وتحطيم المقومات المعنوية للمجتمع الوثني الأناني.

ولنا في موقف السلطة والطبقة الأرستقراطية من المتنصرين ما يعزز هذا التفسير. ذلك أنه رغم ما اتصفت به الدولة من تسامح إزاء الديانات الوثنية المتعايشة تحت لوائها، فإنّ موقفها من حركة التنصر كان مغايرا، نظرا لما تنطوي عليه مبادئها من خطر على السلطة وعلى المفاهيم الاجتماعية الوثنية. فهي كدين مسالمة طالبت معتنقيها بالإمتناع عن العنف والتخلي عن الأسلحة لأنها تؤلم الآخرين. وهو ما دفع بالجنود عندما تنصروا إلى رمي أسلحتهم في وجه قادتهم.

وكان مبدأ المسالمة النصرانية يناقض مبدأ القوة والقسر الذي تقوم عليه السلطة، كما كان مبدأ العدالة والمساواة مناقضا من الناحية الاجتماعية لمفهوم

الطبقية الذي يقوم عليه المجتمع الوثني آنذاك، ومن ثم حاربت الدولة متضامنة مع الأرستقراطية الوثنية حركة التنصر واضطهدت النصارى بعنف شديد. غير أنّ الدولة قد غيرت موقفها أمام صبر وجلد المتنصرين واتساع حركتهم في أوساط جنودها، وحاولت مصالحتهم وتظاهرت بالتسامح معهم قصد التخفيف من خطر الحركة على السلطة.

إلا أن المسيحية التي قدر لها أن تكون في مناطق أخرى من العالم دين جميع الطبقات لم تسر في بلاد المغرب على هذا المفهوم. فقد أراد معتنقوها أن يحافظوا على محتواها الاجتماعي الخاص، أي أن تبقى دين الطبقة المسحوقة، ورمزا للمقاومة والنضال. لقد هادن المسيحيون في جهات أخرى من كانوا يعذبونهم من رجال السلطة الأثرياء عندما تراجعوا عن غيّهم وتنصروا، فعفوا عنهم وتآخوا معهم. أما في بلاد المغرب فقد بدا الموقف مختلفا. لقد تنصرت الإمبراطورية، وتبنت المسيحية دينا رسميا، وتنصر وجهاء القوم من الطبقة الأرستقراطية في البلاد اقتداء بزجال الدولة وبالإمبراطور نفسه، وأغدقوا من أموالهم على الكنيسة وعلى فقراء النصارى ابتغاء مرضاة رجال الدين وجلبا لقلوب الفقراء وتهدئة لخواطر الغاضبين. غير أنّ تبني الدولة للديانة المسيحية قد اعتبره الأفارقة (النوميديون منهم خاصة) ضربا من الهيمنة الروحية، فرفضوها وقاوموها، ومن هنا بدأ يبرز التصدع بين المسيحيين في إفريقيا، ثم تفاقم حتى أصبح انشقاقا مزمنا لم يتم لأمه إطلاقا.

وكان المتمسكون بفكرة استقلالية الكنيسة (الدين)، وهم الذين اشتهروا بالدوناتية يمثلون في واقع الأمر استمرارية للمقاومة اليقظة، فرفضوا مبادرة الإمبراطورية لأنها تشكل ابتلاعا لأقوى سلاح في يد المقاومة، وهو المبادئ المسيحية. واعتمد الدوناتيون على الطبقة الاجتماعية التحتية، يستمدون طاقتهم منها ويستوحون اتجاههم ومواقفهم من مطامحها. بينما عكست الكنيسة

الكاثوليكية الإتجاه الأرستقراطي الفوقي، واستمدت أفكارها من خلفياتها السياسية الموالية للدولة. وهكذا برزت الدوناتية كدين للفقراء المستغلين، في حين عبرت الكاثوليكية عن التحالف المصلحي بين الطبقة الأرستقراطية والسلطة الإمبراطورية. ذلك التحالف الذي كان ممثلا سابقا في الديانة الوثنية الرومانية وفي عبادة الإمبراطور التي شهّر بها المسيحيون نظرا لخطورتها على الجمهور الجائع، إذ كانت الإحتفالات بعيد الإمبراطورية مناسبة للتأثير على جموع الفقراء بما كان يقدم لهم من فضلات الموائد، فضلا عما كانت تتيحه للناس من العربدة والمجون.

لقد اعتاد المؤرخون على تجاوز هذه الجوانب من تاريخ حركة الإنشقاق والعمل على إبراز العوامل الشخصية والتنظيمية باعتبار أنها كانت تشكل حجر الزاوية في حركة الإنشقاق وتطورها. فقد ركز بول مانصو مثلا على الخلافات الشخصية بين أساقفة نوميديا وأساقفة قرطاجة والناتجة عن سوء تفاهم حول الترشح لمنصب أسقفية إفريقيا، كما أكد على فكرة سوء التنظيم في سلم الوظائف الكنيسية وعدم وعي الشمامسة بمهامهم الدينية، إلى غير ذلك من التبريرات التي تبدو لي مجانبة للصواب في كثير من جوانبها، ذلك أنه بالنظر إلى تطور العلاقات بين المسيحية والسلطة الإمبراطورية، فإن هناك عوامل أخرى أعمق من هذه قد أغفلها المهتمون بالموضوع.

لقد كان اضطهاد الدولة للمسيحيين في البداية يستهدف اجتثاث النصرانية كدين يحمل في طياته عوامل هدم الإمبراطورية، خاصة ما يتعلق بمبدأ التخلي عن السلاح. ولما فشلت الإمبراطورية في القضاء على المسيحية بإفريقيا تراجعت وحاولت مهادنة المسيحيين شريطة أن يكف زعماؤهم عن دعوة الجنود لترك القتال، فظهرت بوادر السلم بين الطرفين، وقلّت حوادث تمرد الجنود وأحلّت الكنيسة الإقتتال في صورته العسكرية النظامية.

غير أنّ هذه الحالة لم تدم طويلا بسبب موقف بعض رجال الدين الرافض للتصالح مع السلطة والذين كانوا يرون في تلك المهادنة ردة عن مبادئ المسيح، وبالتالي خيانة (للشهداء). أي أنّ المسيحيين في إفريقيا كان بينهم من يرفض العلاقة بالسلطة الزمنية (الإمبراطورية) قبل أن تحدث مشكلة الأسقفية عام 303م. وهوالحادث الذي اعتبره المؤرخون نقطة البدء في ظهور الحركة الدوناتية.

والظاهر أنّ الإتجاه الرافض مارس تأثيره على الجنود، وبالتالي قلل من مفعول الفتوى التي أصدرتها الكنيسة الرسمية في قرطاجة بخصوص إباحة القتل في صورته العسكرية. ولنا في تراجع الإمبراطور دقليانوس (Dioclitinus) على سياسة التسامح دليل على كون الدولة لم تستفد من التصالح مع المسيحيين أي أنها شعرت بكون المناهضين منهم للسلطة وللطبقية لا يزالون أقوياء ومؤثرين مما يستدعي العمل على التخلص منهم بالقوة.

وقد أراد الإمبراطور قسطنطين (Constintinus) أن يحصل على ضمانات أشمل وأمتن من الكنيسة لصالح الدولة مقابل اعتناق الدولة لدين المسيح ممثلة في شخصه. فأعلن عن تنصره عام 312م. ثم دعا زعماء الكنائس بجميع أنحاء الإمبراطورية إلى الإجتماع في مدينة آرل Arle سنة 314 من أجل التباحث لإيجاد الصيغة النهائية لدمج الكنيسة في الدولة، وتجنيد مبادئها ورجالها لدعم السلطة، وتمتين اللحمة بين الامبراطورية والشعوب الخاضعة، كل ذلك ضمن وحدة الكنيسة والمذهب. وجاء في تقارير ذلك المجلس بخصوص قضية فرار الجنود ما يلي: «إنّ كل جندي مسيحي يرمي بسلاحه يطرد من المسيحية».

ويوضح لنا هذا البند مدى تراجع ممثلي الكنيسة في ذلك الإجتماع عن مبادئهم، مما دفع بالإتجاه المسيحي المقاوم إلى المضي في رفضه وعدم اعترافه بالتصالح. وكان النصارى النوميديون في طليعة الذين أعلنوا رفضهم لتلك

المقررات، واعتبروها خيانة كبرى، ولم يتأثروا بإجماع مجلس آرل حول عودتهم (الدوناتيين) إلى الكنيسة الرسمية وخضوعهم لأوامر مطرانها كايكيليانوس Caecilianus.

ونتج عن رفض الدوناتيين لقرارات آرل أن قرر رجال السلطة الولائية بالإتفاق مع الكنيسة الرسمية بقرطاجة منع الدوناتيين من دخول الكنائس والإعتصام بها، فهلك من الدوناتيين خلق كثير، وهو ما زاد في تعميق جذور الخلافات، وقوى من تمسك الدوناتيين بمواقفهم إزاء الكنيسة الرسمية، واعتبروها كنيسة الكفار الشياطين l'Eglise des diables وأنّ كنيستهم كنيسة الأطهار القديسيين l'Eglise des Saints وأنه على من ينضم إليها من الكاثوليك أن يطهّر ويعاد إدخاله في المسيحية من جديد.

يتبيّن لنا من خلال هذا أنّ عوامل الإنقسام ليست كلها نابعة عن كوامن أو خلفيات فكرية أو اجتهادات فقهية، بقدر ما هي صادرة عن مواقف وتطلعات اجتماعية ضاغطة. ونلمس مثل هذا بوضوح في تاريخ تلك الأرضية البشرية ونشاطاتها. لقد اعتمد الدوناتيون في مجال نشاطهم فكرة الصراع الطبقي. وكان من دواعي نجاحهم أنهم استمدوا طاقاتهم من الفئة الأكثر تضررا بالنظام الإقتصادي الاجتماعي، والمناهضة للإستعمار الروماني عكس ما فعلته الكنيسة الكاثوليكية الرسمية التي اعتمدت على السلطة والطبقة الثرية في المجتمع.

وهكذا أصبح الخلاف الديني صراعا اجتماعيا، أُسسه التمايز الاقتصادي والاجتماعي، معبرا عما كان بين العبد والسيد من مفارقات، وما بين الفلاحين وأصحاب الضياع من متناقضات، وما بين الثائرين على السلطة من الأهالي والمعمرين من أحقاد وتطلعات.

وقد وجد هذا الصراع في أوضاع البلاد خلال القرن الرابع ما ساعده على اكتساب تلك المضاعفات التي تبلورت في صورة مقاومة عنيدة لا تكل ولا تني.

وكان لاعتماد الكاثوليكية على عصا روما من أجل إرجاع الدوناتيين إلى الكنيسة الرسمية أثره البالغ في دفع الدوناتيين إلى تنظيم مقاومة في أوساط الأهالي الذين كانوا مهيئين لذلك. وقد أصبحت النحلة الدوناتية دينا محليا-مطلبيا تعتنقه مختلف الفئات الشعبية الناقمة على الوضع.

وكان من عنف المقاومة أن تحولت منطقة الأوراس إلى صحراء بما أحدثه الجيش الروماني من حرائق وتدمير وإبادة للسكان انتقاما من المقاومين الذين اعتصموا بالجبال.

ونجد فيما حدث عام 347م بمدينة باغاي تعبيرا جليا عن تحول الدوناتية بعد اتحادها بثورة الريفيين (الدوارين)، لقد اتخذت الثورة من دوناتوس زعيما لقيادة المقاومة، وحوّل دوناتوس كنيسة المدينة إلى مخزن للمؤن والذخيرة، وتم تحصين المدينة كي تستطيع الصمود في وجه الحملة العسكرية المرتقبة.

وجاء في النصوص أنّ التضامن قد بلغ مداه الأقصى في أوساط الأهالي بجميع نواحي نوميديا، خاصة منها منطقة الأوراس. من ذلك أنّ سكان مدينة فجيزيلا Vegezila (تقع بين تبسة ومسكيانة) قد انتفضوا في وجه الأسقف الكاثوليكي ماكاريوس الذي صحب الحملة العسكرية على باغاي، وعبروا عن غضبهم البالغ الشدة عندما أمر هذا الأسقف بجلد مبعوثي مجلس كرطا الدوناتي على مرأى من الجمهور وذلك في 29 جويلية 347م، مما اضطر الأسقف إلى إطلاق صراح بعضهم والتظاهر بالعفو عنهم.

والظاهر أنّ تلك الحوادث قد سجلت بداية التلاحم الثوري بين الحزب الديني المنشق عن الكنيسة الرسمية وبين ثورة الريفيين (الدواوين) الذين أصبحوا يدعون بجنود المسيح Milites Christi، وأصبح رؤساؤهم أمثال فازير Fazir وأكسيدو Axido يلقبون بقادة القديسين Sancorum Duces، وردد الجميع عبارة «لله الحمد Déo Laudes» كشعار ديني للثورة، وهي عبارة يبدو أنّ وقعها كان شديدا في نفوس

أعدائهم، إذ وصفها أوغسطين بأنها كانت أكثر رعبا من زئير الأسد، وأنها عبارة عن بوق للمجازر. وأصبح ضحايا العنف الروماني يعدون شهداء قديسين في نظر الدوناتية، وهو ما يدل على شمولية النظرة الدوناتية وتبنى الحزب الديني الدوناتي لمبادئ وأهداف الثورة الريفية. وقد اعتبر بريصون J.P. Brisson ذلك دمجا للوازع الديني بالوازع الاقتصادي في الحركة الدوناتية.

وقد وجدت الدوناتية في ثورة الريفيين سندا طبيعيا ويدا طولى للنيل من خصومها، بدليل أن أوغسطين كان يحمّل الدوناتيين مسؤولية الأعمال الثورية التي يقوم بها الريفيون (الدوارون) فكان يردد مثلا «تذكروا الأعمال التخريبية التي كان يقوم بها (الدوارون) الذين كانوا دائما تحت قيادة شمامستكم».

ويبدو كذلك أنّ الثوار الريفيين قد فهموا مبادئ المسيحية على أنها قوانين إلهية تستهدف تحطيم الطغيان وإزالة الفوارق الاقتصادية والاجتماعية وإحلال العدل والمساواة بين البشر المتعايشين، وبالتالي تقويض البناء السياسي والاقتصادي القائم على التمايز والتفرقة والإضطهاد والأنانية.

ونجد في أعمال أولئك الثوار الريفيين ما يدعونا إلى هذا التصور. فقد كانوا يجبرون الأسياد على تسريح العبيد، وإن امتنع بعضهم يهاجمونه في ضيعته أو في منزله بالمدينة ويأسرونه كي يعرضوه للسخرة في مراكز خاصة فيذيقوه ألوان العبودية وأعمال السخرة التي كان يمارسها على عبيده.

ويصفهم أوبطا Optatus الميلي -وكان عدوهم اللدود- بأنهم كانوا يعترضون عربات السادة فينزلون السيد ويجبرونه على السير حافي القدمين، ويركبون بدله عبده. ولعل مبالغتهم وتطرفهم في عدم الإعتراف بالأنظمة القائمة قد أحرج رجال الدوناتية فطالبهم بعضهم بالكف عن العنف. وهو ما حدا ببعض الباحثين إلى القول بأنّ (الدوارين) لم يكونوا يمثلون وجهة نظر الدوناتية في الصراع القائم آنذاك.

لكننا نستطيع أن نفهم من تلك التجاوزات مبدأ التطرف الثوري الذي لا يقبل التعاطف أو الحلول الجزئية.

ومن جهة أخرى ينم التركيب البشري المتنوع والمحتوى الفكري والسلوك الثوري العنيف لتلك الثورة (الدوارين) على أنها كانت تمثل إحدى الثورات الشعبية الباكرة في التاريخ، فهي لم تكن ترتكز على خلفية قبلية أو عرقية معينة أو فئوية ضيقة، كما أنّ نشاطها كان موجها ضد الفئة الأرستقراطية الثرية المستحوذة على السلطة والمسيطرة على الإنتاج الاقتصادي، وضد النظام السياسي الذي كان يستمد نفوذه من ذلك التمايز الطبقي، ومن التركيب الإقتصادي والاجتماعي المجحف، فالقاسم المشترك بين الثوار تمثل في التجانس الاجتماعي وفي التقارب في الأوضاع الاقتصادية والإحساس الجماعي بالقسر والهوان. ومن ثم فنموذج الثورة الريفية (الدوارين) بهذا المفهوم يبدو فريدا من نوعه في تاريخ المغرب القديم، إن لم نقل أنه من الثورات القليلة التي عرفها العالم القديم بصفة عامة.

وليس معنى هذا أنّ الدوناتية بمحتواها الروحي كانت تمثل غذاء عقائديا يساريا كما قد يتبادر إلى الذهن. بل إنّ الثورة (الدوارين) قد سبقت وزامنت الحركة الدوناتية ولم تتحالف معها وتلتحم بها إلا في الأربعينات من القرن الرابع حسب المعلومات التي زودنا بها رجال الجدل الكاثوليكي المعاصرين لتلك الأحداث. وأما قبل ذلك فقد كانت ثورة الريفيين (الدوارين) حركة شعبية تجوب فرقها الأرياف النوميدية فتخلّف الرعب والفزع في أوساط الأرستقراطية وأصحاب الضياع ورجال السلطة على حد سواء.

وعلى الرغم من أن كتابات المجادلين الكاثوليك (وهي مصدرنا الأساسي حول تلك الأحداث) لم يهتم فيها أصحابها بتاريخ الثورة الريفية قبل اتحادها بالدوناتية، إلا أن هناك إشارات عديدة لأعمال عنف ثورية حدثت في نوميديا قبل

عام 347م لم تكن أسبابها دينية أو قبلية، فهي من أنشطة الثوار الريفيين قبل تلاحمهم بالدوناتية. هذا التلاحم الذي اعتبره رجال الجدل الكاثوليكي تحولا خطيرا في الحركة الإنشقاقية الدوناتية فقاوموه بأقلامهم وألسنتهم زيادة على أسلحة روما وجندها.

ومن جهة أخرى يمكن النظر إلى ذلك الإتحاد على أنه كان يمثل بداية لتعميم نشاط الثوار الريفيين، فأصبح يشمل الكاثوليك بعدما كان مقتصرا على أعدائهم من الأرستقراطيين والسلطة الإمبراطورية. فأخذ الكاثوليك يشعرون بالضرر الذي لحق جانبهم من طرف أولئك الثوار الأشداء فشهروا بهم وحملوا الدوناتيين مسؤولية أعمالهم الثورية العنيفة.

والظاهر أن ثورة الريفيين كانت محتاجة إلى من يساندها في المدن، وإلى تجنيد الرأي العام المثقف من المتدينين والغاضبين على السلطة وحلفائها، من أجل تقوية الصف وتوسيع جبهة النشاط الثوري. كما أنها كانت في حاجة إلى قيادة كفأة وزعامة سياسية مناسبة جديرة بتحمل المهام والدفاع عن المبادئ، ولعل في موقف الثوار الريفيين من ثورة الأمير فيرموس Firmus (370-375م) ما يؤكد هذا الاحتمال. لقد انضوى الثوار الريفيون مثل رجال الدين الدوناتيين تحت لواء فيرموس، وعملوا في صفوفه كقوة ثورية وراءها ماض نضالي حافل بالتجارب الناجحة، وكحزب ديني نوميدي يستهدف الإستقلال عن سلطة الكنيسية الرسمية.

وكان لهذا الاندماج بين القوى الثورية الثلاثة، أثر بالغ في نجاح ثورة فيرموس وسيطرتها على الوضع في البلاد. وبذلك التمازج عبر كل طرف عن رغبته في العمل تحت زعامة سياسية توحد الجهود وتجند الإمكانيات لتحقيق الهدف المشترك.

ويظهر أن فيرموس قد أحسن في بداية الأمر استغلال ذلك الشعور الثوري الفياض لدى كل من الدوناتيين والثوار الريفيين فحقق نجاحات على الصعيد

الداخلي والخارجي، فانضمت إليه جموع القبائل، وهلل له رجال الدين وجندوا لحسابه الكنائس الدوناتية تمجد أعماله وتدعو الجمهور للعمل معه، وهو ما يفسر انتقام الإمبراطور من الدوناتيين عقب هزيمة فيرموس.

وفي تصوري: هناك ظاهرة سلبية هامة صحبت ذلك التمازج الثوري وعجلت بإفشاله. وهي تكمن فيما كان يوجد بين ثورة الريفيين كحركة شعبية تحتية وبين ثورة فيرموس القبلية المحتوى من متناقضات. لقد دخل الثوار الريفيون صفوف فيرموس كفئة اجتماعية متجانسة تسوي بينها ظروفها الإقتصادية والاجتماعية، ولم يدخلوا كقبائل أو مجموعات إثنية تخضع لظاهرة التعصب القبلي ولعشوائية رؤسائها. وهذا ما جعل ثورة الريفيين متحدة مع الدوناتيين تأخذ قبل ذلك طابعا شعبيا ديمقراطيا يسعى لتحقيق الحرية والعدالة بمفهومها البسيط، ولكنها عندما اندمجت بثورة فيرموس وانحلت فيها تخلت تدريجيا عن طبيعتها كثورة قاعدية، وتحولت إلى الإرتباط بالزعامة القبلية التي مثلها فيرموس ثم أخوه جيلدو من بعده، ومن ثم تمكنت روما من إجهاضها بقضائها على ثورتي الأخوين لأنها كانت تحسن تأليب رؤساء القبائل على بعضهم، وتتقن فن سياسة فرق تسد. وهكذا كان فشل ثورة فيرموس ثم جيلدو ضربة موهنة أصابت الدوناتية والثورة الريفية (الدوارين) فقللت من نشاطها ومكنت الخصم من السيطرة على الموقف من دونهما.

5 - الحياة اليومية في الريف
من خلال مشاهد الفسيفساء

تظهر لنا في الخرائط الأثرية لشمال إفريقيا بقايا دور ملاك الأراضي الكبار، وعلى مسافات منها أمارات القرى وأكواخ الخدم والعمال التي تلاشت آثارها لهشاشتها وبقيت أطلال الدور الكبرى والضيعات لمتانتها. إنها تلك الدور التي عثر في أرضياتها على لوحات فسيفساء تعكس مشاهد لها وللحياة التي كانت تدور من حولها.

لقد أمكن التعرف من خلال تلك النماذج على صور للحياة اليومية في عالم الريف بكل مكوناته. فهي تقدم لنا مناظر للنشاط الفلاحي كما كان معاشا، وبواقعية تكاد تكون صورا فوتوغرافية للنشاط الريفي اليومي وسط بيئة تضم فونا وفلور عايشهما الإنسان وتنفس معهما الحياة، فهي بذلك تعد وثائق حية لأهل زمانها.

لقد وجد صناع الفسيفساء وهواتها في العهد الروماني في الطبيعة الإفريقية ما يساعد على انتشار هذا اللون الزخرفي وازدهاره. إن إفريقيا (أقصد الشمال) المتوفرة على أنواع جيدة من الرخام ذي الألوان الجميلة قدمت مادة خام ثمينة لورشات الفسيفساء فنشطت وانتشرت وذاع صيتها، فظهرت على جدران وأرضيات المباني العامة ودور الأثرياء كي تثير لدى أصحابها إحساسا بالرفاهية المنسجمة مع مناخ المنطقة.

لقد تنوعت موضوعات المشاهد في الفسيفساء، ولكنها أخذت طابعا ميثولوجيا في المباني العمومية، بينما حرص أصحاب الضيعات والدور الخاصة الريفية على أن تكون مناظرها عاكسة لحياتهم اليومية. وهكذا أصبحت الزخارف خاضعة لإرادة أصحاب المباني وأذواقهم. إن ملاك تلك الضيعات والدور الريفية لم يكن يهمهم سوى العالم المحيط بهم، فكانت اللوحات المفضلة لديهم تلك التي تبرز عالمهم الخاص: أهلهم وأملاكهم، خدمهم وحيواناتهم، نشاطاتهم اليومية في الحقول والمزارع. لقد كانوا حريصين على تجسيد ذلك في مشاهد الفسيفساء كي تصبح حياتهم أكثر غبطة وحبورا بما تزخر به من نشاط متنوع: صيد وقنص، أو تجوال في الحقول ثم ارتخاء في بستان الضيعة تحت ظلال الشجر الوارف...، من ثم كان بناة الفسيفساء يستلهمون مشاهدهم من الطبيعة ويستمدون تفاصيلها من الحياة اليومية. فكان الفنان يتأمل الطبيعة الحية ويجسدها بكل دقة وواقعية. من بناية الضيعة إلى مشاهد الحرث وقطف العنب وجني الثمار والإنطلاق إلى الصيد أو العودة منه بعد ملاحقة الطرائد. إنّ تنوع المشاهد المتبقية على أرضيات الدور الريفية وتباين تقنياتها يدل على أنّ صناعها لم يكونوا يرددون صورا خزنوها في ذاكرتهم لمناظر متواترة كمشاهد الميتولوجيا الإغريقية الرومانية التي تغص بها فسيفساء المباني الحضرية، لقد كانوا حريصين فيما يظهر على الواقعية المرتبطة بتباين مناظر المحيط الطبيعي فجاءت مشاهدهم صورا متنوعة ثرية بعوالم ريفية غنية بالحيوية زاخرة بالمعلومات التاريخية. وهكذا نلاحظ حرص فسيفسائي الدور الريفية على أن يتوفر المشهد على نماذج من الوسط الطبيعي المعاش والنشاط اليومي لصاحب الضيعة فيه: أشجار متنوعة يحتويها عقاره، نباتات مختلفة، أزهار وورود تفضلها سيدة المنزل، حيوانات مستأنسة وبرية كانت محل قنص وصيد.

وكثيرا ما كان الفسيفسائي يحرص على وضع شخصيات المشاهد في حركات معبرة عن نشاطهم اليومي لخدمة السيد. وذلك بجعلهم في أوضاع مختلفة

وأنشطة متباينة تبعا لطبقاتهم الاجتماعية، فنرى بعضهم يحرث والآخر يقطف، وذلك يعزق الأرض وغيره يشذب أغصان شجرة، وهناك من يقدم خدمات لسيده وأخرى لسيدتها وهكذا...، ولم يهمل الفنان ملابس الأشخاص فجعلها متمايزة من حيث النوع واللون والزخارف تبعا لطبقاتهم الاجتماعية ودرجة قربهم من السيد، وثوب الخادم أو العامل العادي هو عبارة عن قميص يشده حزام على الخصر، لونه أصفر باهت، وهو لون الصوف التي تصنع منها الأثواب عند العبيد والفلاحين الأتباع. ويرتدي الخدم عادة أثوابا طويلة دافئة في الشتاء وقصيرة وخفيفة في الصيف، وكثير من العمال يبدون حفاة الأرجل وبعضهم ينتعل خفا مشدودا بسيور (خيوط) على الساق، هو أشبه بما كان يرتديه الفلاحون الفقراء في الأرياف المغاربية قبل سنوات، وهو عبارة عن قطعة جلد ثور أو بعير مربعة الشكل تشد بخيوط (حبال رفيعة) من أطرافها على الرجل والساق بعد لفها بخرق بالية. أما ثوب السيد فهو لا يختلف في الشكل أثناء الصيد عن أثواب خدمه وأعوانه، لكنه يفضلها نوعا وزخرفا ومتانة.

تظهر لنا مشاهد الفسيفساء الدور الريفية بكونها ذات أبراج قائمة على الزوايا الأمامية من جهاتها الأربع، وتبدو الأبراج أعلى من جسم الفيلا، والغرض من ذلك أن تكون مشرفة على العقار قصد المراقبة والحراسة، ولبعض الدور غرف عليا لها نفس الغرض بالإضافة إلى كونها توفر إقامة في جو منعش من فصل الصيف، وهذا الأسلوب ظل معمولا به في المباني الريفية الهامة إلى العصر الحديث (تدعى الغرفة) كما تظهر بعض الدور في مشاهد الفسيفساء وكأنها حصون، تحيطها أسوار متينة عالية وأبراج، وذات بوابات حصينة (موناستير قرطاجة).

إن ذهنية التحصن والدفاع الذاتي هي التي أملت على المهندسين اختيار أشكال الدور الريفية ومخططاتها بشمال إفريقيا. وهو ما أكدته الدراسات

الميدانية للمؤسسات الفلاحية، لقد تبين في اتخاذ تلك الدور أشكال الأبراج بالإضافة إلى سمك الأسوار (حوالي متر وأكثر) فبدت الضيعات وكأنها حصون عسكرية.

- النشاط الريفي والإنتاج الفلاحي

أبرزت لوحات الفسيفساء فكرة الربط بين الأنشطة الفلاحية ونظام الفصول، لقد رمزت لوحات كثيرة إلى الفصول الأربعة بشمال إفريقيا حيث نلاحظ في مشهد السيد يوليوس مثلا أن فصل الربيع رمز له بالزهور، وللخريف بالأشجار المثقلة بالثمار كالتفاح والعنب، فنرى السيد يستقبل سلة عنب من خادمه وأرنبا بريا يقتنص في هذا الفصل. بينما رمز للشتاء بنفض الزيتون وجمع ثماره، ونلاحظ عودة أحد الخدم يحمل طائرا بريا يُقتنص في الشتاء، في حين برز الصيف في منظر لحقل القمح الناضج وقطيع الغنم والماعز وراعيه المستظل تحت شجرة يعزف على نايه أنغام الغبطة والحبور. وأبرز لنا الفنان في نفس المشهد سيدة العقار تروح على نفسها لإبعاد الحر عن جسدها الذي يبدو عاريا في أعلاه وهي جالسة بين شجرات السرو السامقة.

وعموما يرمز للربيع بالزهور والصيف بسنابل القمح وللخريف بعناقيد العنب والشتاء بأغصان الزيتون المليئ بالثمار.

أبرزت لوحات شرشال (قيصرية سابقا) أعمال الحرث والبذر بشكل بارز لا يضاهى، حيث نلاحظ في اللوحة المسماة بأعمال الحقل، أشغال الحرث والبذر بين أشجار الزيتون والكروم التي نفضت أوراقها، وهو يرمز إلى حلول الخريف وإلى أن الحرث والبذر يجريان في تلك الفترة، كما نلاحظ في المشهد أثواب الفلاحين الشتوية، وهو منظر تكرره لوحات أخرى بشمال إفريقيا.

يظهر في لوح شرشال أن الحرث يتم بمحراث يجره ثوران قويان، وهذه طريقة لا تزال مستعملة حتى الآن في الأرياف المغاربية. حتى نوعية المحراث وطريقة القرن وكيفية الإستخدام لم تتغير منذ ذلك الوقت، نرى الحراث في مشهد شرشال ممسكا مقبض المحراث بيده اليمنى ويركز بقوة عليه كي تنغرس السكّة وتتعمق أكثر، ويبدو على الثورين الجهد والإندفاع بقوة مما يدل على جفاف الأرض وحرص الفلاح على تعميق أثلامه، كما تبدو عملية البذر في الشريط الثاني من نفس اللوح، وهي تتم بين أشجار الزيتون، مما يدل على أن الزراعة كانت مختلطة (شجر، حبوب) وهو ما يزال معمولا به في بعض مناطق المغرب العربي وبإيطاليا حتى الآن.

ويظهر البذّار أمام الثورين بسلة البذر المشدودة إلى صدره وهويمسكها بيده اليسرى ويبذر الحب باليمنى، وهي كيفية لا تزال مستعملة في وقتنا الحاضر.

بعد البذر والحرث يترك الحقل على حاله إلى موسم الحصاد دون تدخل لتنقية حقول الحبوب (القمح) من الحشائش، وقد ذكر كولومال ذلك موعزا إياه إلى جودة التربة الإفريقية على عكس الأراضي الإيطالية التي كانت تتطلب أعمال التنقية. ولم نلاحظ في مشاهد الفسيفساء ما يشير إلى عملية تنقية حقول القمح أثناء الربيع عندما تكثر الحشائش الضارة بالمزروعات. مما يوحي بصدق كلام كولومال، مع أن النصوص التشريعية المنسوبة لمانكيا في إفريقيا تشير إلى هذه الأعمال (العزق وتنقية الحقول) كإحدى أعمال السخرة المطلوبة من المتعاقدين.

- الحصاد والدرس

كثيرة هي اللوحات التي تعكس الأنشطة الفلاحية المتعلقة بجمع المحصول: الحصاد والدرس، ومناظرها تتسم بإبراز الحصدة بمناجلهم وهم في أوضاع العمل يمسكون السنابل بالأيدي اليسرى والمناجل باليمنى في حركة حثيثة، وكذلك

مناظر درس السنابل في البيدر على الهواء الطلق لملاءمة الطقس الإفريقي لذلك، ويجري الدرس بواسطة قرن مجموعة من الخيول أو البغال إلى بعضها وإدارتها على طرحة السنابل لتدوسها فينفصل الحب عن السنابل، ويظهر فلاح يحث الخيل على الجري وآخر يعيد السنابل المتناثرة إلى الطرحة (البيدر).

ونلاحظ في مشاهد أخرى ذري المدروس لفصل الحب عن التبن بتعريضه للرياح كما هو في الوقت الحاضر، ولا تبرز المشاهد في ضيعات العقارات عملية الدرس بواسطة العصي أو الذري بآنيات يدوية كما هو الشأن عند الفلاحين الصغار.

- الزيتون

إن الزيتون والزيت إلى جانب الحبوب (القمح خاصة) هي مواد غذائية أساسية في شمال إفريقيا منذ العصور الغابرة، فالزيت مادة دهنية رئيسية في الأطعمة اليومية لجميع السكان. وهو أفضل وأنسب من الدهنيات الأخرى كالزبدة والشحوم الحيوانية لكون مناخ المنطقة يتطلب ذلك، كما يستعمل الزيت في أغراض أخرى كالإنارة الزيتية وصناعة الصابون وغيرها ولذلك ظهرت العناية بشجر الزيتون وإنتاج الزيت وتسويقه بين المقاطعات الإفريقية وروما التي أدخلته كمادة أساسية في الجباية (الأنونا) حيث احتل الزيت المرتبة الثانية بعد القمح ويأتي بعده الخمر في الصادرات الإفريقية نحو روما وإيطاليا عموما.

لقد توفرت الشروط الطبيعية الملائمة لشجرة الزيتون بشمال إفريقيا فنمت وانتشرت في البلاد بصفة طبيعية منذ عصور ما قبل التاريخ. فهي من النبات البري في بلاد المغرب. وقد مثلت مشاهد الفسيفساء ش ـر الزيتون في معظم اللوحات الرومانية، سواء في شكل شجر مثقل بالثمار أو في حـ:ـ جني أو كأغصان زخرفية لتجميل مناظر اللوحات.

ومع ذلك ذكر بلين القديم أن شمال إفريقيا ليست بلد زيتون بسبب شيوع الرعي وعدم التحكم في الخريطة الزراعية في زمانه، حقيقة أن شجرة الزيتون تقتضي حياة الإستقرار في الريف وتعارض البداوة وتربية المواشي المضرة كالماعز خاصة، ولذلك كان توسيع الخريطة الزراعية وتنمية غراسة الزيتون في العهد الروماني قد أبعد الرعي والبداوة عن المناطق التلية الزراعية في الشمال، ويذهب كثير من المؤرخين إلى القول بأن الإحتلال الروماني ساهم في تنمية زراعة الزيتون فازدهرت الفلاحة الشجرية بشمال إفريقيا وتخلصت بلاد التل من خطر البداوة...

والجميع يعرف القصة التي رددتها المصادر العربية المتعلقة بفتح إفريقيا التي مفادها اندهاش الفاتحين من الثروة الهائلة التي وجدوا عليها أهل البلاد فلما سألوا أحدهم أشار إلى نواة حبة زيتون فأدركوا السبب.

تظهر لنا مشاهد الفسيفساء عملية جني الزيتون بالأيدي، وهي طريقة لا تزال مستعملة إلى الآن، وهي أفضل من القطف بالضرب على الأغصان بالعصي لأنها تتلف البراعم وتجرح الأغصان، كما تظهر سلال الزيتون في بعض المشاهد على العربات لنقلها إلى الضيعة، ولا تخلو أطلال الضيعات من شواهد لمعاصر الزيتون، مما يدل على أن عملية استخراج الزيت من الزيتون كانت تتم في الضيعة نفسها، وهي طريقة لا تزال مستعملة عند الفلاحين الجبليين، حيث توجد عند الكثير منهم معاصرهم الخاصة، لكن هناك معاصر كبرى كانت قائمة بعيدا عن الضيعات بالمناطق التي شهدت حقولا واسعة لشجر الزيتون، وهي عبارة عن مصانع تحويلية قائمة على مادة الزيتون، نذكر منها «معصرة» برزغن قرب مدينة الماء الأبيض بولاية تبسة التي تتوفر على قرية للعمال وورشات مختلفة. فازدهار فلاحة الزيتون ساهم في أنشطة مكملة.

- الكروم والعنب

يعود الفضل في إدخال زراعة الكروم ببلاد المغرب إلى الفنيقيين مع ما صحب ذلك من تقنيات زراعية وتنويع منتوجات العنب وتحويله إلى خمور أو تجفيفه وما إلى ذلك مما كان يحتاج إليه من أصناف، وقد ترك ماغون عالم الزراعة القرطاجي معارف هامة وقواعد علمية جيدة لهذه الزراعة وغيرها فاستفاد منها الرومان. ولكن زراعة الكروم وإنتاج العنب والخمور تعرضت للضرر وكادت تختفي بعد تدمير قرطاجة. حتى أن بلين القديم (القرن الأول ميلادي) اعتقد أن الكروم ليست من مزروعات شمال إفريقيا، ثم عاد الإهتمام بزراعة الكروم في الفترة التالية (القرن الثاني) التي انتشرت فيه زراعة الزيتون، فأخذت أهمية العنب والخمور تتزايد في المنطقة حتى أصبحت جزء من مغارمها.

تعكس لوحات الفسيفساء زراعة الكروم في شكل خطوط متوازية لا تختلف عما نشاهده اليوم في حقول الكروم بشمال إفريقيا وإيطاليا، لكننا نجهل إن كانت أشجار الكروم متباعدة، أو تتخلل صفوفها أشجار أخرى كالزيتون (لوحة طبرقة) أو غيرها.

وتبرز لنا مشاهد الفسيفساء شجرة العنب (الكرمة، الدالية) في أشكال مختلفة، منها القصيرة التي توضع تحت أغصانها دعامات عندما تكون مثقلة بالعناقيد (لوحة طبرقة) ومنها التي تطول أغصانها إلى حد أن القطف يتم بواسطة السلالم (لوحة شرشال) وهي كروم يمكن القيام باستغلال الأرض تحتها كما هو مبين في لوحة شرشال.

- الأشجار المثمرة الأخرى

تتضمن مشاهد الفسيفساء أنواعا من أشجار الفواكه المختلفة كالتفاح والإجاص والرمان، وهي أشجار يعود الفضل في انتشارها إلى الزراعة

الفنيقية-القرطاجية، حيث يعتقد أنهم جلبوها من الشام، وأشهر الأشجار المثمرة التقليدية هي التين الذي كان ثمره متميزا ومرغوبا في أسواق روما، ويذكر أن كاتوس أحد أعضاء مجلس الشيوخ الذي كلف من قبل المجلس عام 150 ق.م. للتحقيق في النزاع بين قرطاجة وجارتها نوميديا قد حمل معه بعض التينات الطرية وقدمها في مجلس الشيوخ قائلا إن هذا الثمر الطيب على مسافة ثلاثة أيام من أسوار روما وهو بيد عدوكم، ترغيبا لهم في اتخاذ قرار الحرب ضد قرطاجة... ولقد أدخلت روما ثمر التين في قائمة الغلال المفروضة عليها المغارم (الجباية=الأنونا)، ولا يزال التين ثمرا مفضلا عند كثير من الجبليين ببلاد المغرب، وهو يدخل في مدخراتهم الغذائية بعد تجفيفه ومعالجته، غير أن لوحات الفسيفساء تكاد تخلو من شجر التين، وهذا ما يفسره اقتصار المزارعين الرومان على الأراضي السهلية، أراضي الحبوب والكروم والزيتون، فأهملوا التين وتركوه للأهالي.

أما الحوامض كالليمون والبرتقال فهي لا تلحظ في المشاهد ويعتقد أن الفضل في إدخالها إلى بلاد المغرب يرجع إلى العرب المسلمين في العصور الوسطى.

- الحيوانات الداجنة

إن أشكال الحيوانات المتمثلة في مشاهد الفسيفساء أشبه ما تكون بالسجل (الكاتالوج) حسب تعبير أحد الذين درسوا الفسيفساء لقد شمل لوح واحد من أنواع الحيوانات واحدا وعشرين نوعا منها الداجن ومنها البري، كالطيور والدواب والغنم والبقر والخيل والحمير وما إلى ذلك. بالإضافة إلى حيوانات برية مفترسة كالأسود والفهود، وقد مثلت حيوانات الحمل والجر في حالة عمل بالحقول وفي أوضاع وظائفية متباينة كما مثلت حيوانات الإستهلاك كالغنم في حالة رعي، كلوح

السيد يوليوس الذي يظهر فيه القطيع راتعا وقربه الراعي يشدو ألحانا بمزماره القصبي، وغيره يعرض أمام سيده حملا صغيرا حديث الولادة... (لوحة طبرقة).

- الصيد والقنص

كان الصيد في إفريقيا الرومانية نشاطا مكملا لأعمال الفلاحة وتربية الماشية، فهو نوع من الحماية للحقول والقطعان من الحيوانات البرية المضرة، فالحيوانات الوحشية كالأسود والفهود والخنازير والدببة والذئاب والثعالب، وكذا الأرانب وحتى الغزلان عندما تتكاثر تشكل خطرا على المزروعات والفلاحين والمواشي والدواجن بالضيعات.

وقد عكست مشاهد الفسيفساء أعمال المطاردة ضد هذه الحيوانات، وتبرز فيها الأنواع حسب المناطق، ففي الجهات الجنوبية المحاذية للصحراء (قفصة مثلا) تظهر الغزلان، وفي السهوب الداخلية نرى حيوانات أخرى كالأسود، وفي المناطق الغابية تظهر الخنازير البرية خاصة.

وتبرز لنا المشاهد كيفية الصيد المتبعة بالنسبة لأنواع من القنائص (لوحة وذنة)، وأشهر الكيفيات الممثلة بالنسبة للحيوانات الضارية هو الشباك، وكان يوضع على خنادق تحفر وتغطى وتموه وتساق إليها الطرائد، أو يربط أمامها حيوان داجن يجذب الطريدة الجائعة فتقع في الشباك.

وكان خنزير الغابة أفضل الطرائد لأنه مرغوب جدا في الطعام عند الرومان، فكان من أفضل التقدمات على موائدهم، وكان كثير العدد ولا يزال بغابات شمال إفريقيا، خاصة وأن الأهالي لا يستهلكونه سواء قبل أو بعد الإسلام.

بعض مصادر ومراجع موضوعات الفصل الرابع

1 - Herodote, IV, 168-186.

2 - Salluste, Guerre de Jugurtha, XVII, 7.

3 - Plutarque, Les vies des hommes illustres.

4 - Pausanias, I, 17, 2.

5 - Pline l'ancien, His. nat. V.

6 - Procope, Guerre des Vandales, II.

7 - Annacdotta Syriaca. Tome 2 (Corpus scriptum christianurum, II, 1912).

8 - Patalogie Grecque, 20; I. 87.

9 - Tacite, Annales, Passim.

10 - Tertulien, Appologitique.

11 - Gsell (S.), Histoires anciennes de l'Afrique du Nord, t.1 et 7, 1929.

12 - Gsell (S.), Atlas arch. de l'Algérie, 1911.

13 - Despois (J.), Mission scientifique à Fezzan.

14 - Baradze (J.), Fossatum Africae. 1949.

15 - Bousquet (G.H.), Les bérbères, 1964.

16 - Camps (G.), Berbères en marge de l'histoire, 1978.

17 - Dussaud (R.), Introduction à l'histoire des religions, 1914.

18 - Dussaud (R.), Les Arabes en Syrie avant l'Islam, 1907.

19 - Docteur le Blanc, Les Tauargs, 1925.

20 - Erman (R.), Ranke (H.), La civilisation egyptienne, 1959.

21 - Aliman (H.), La station rupestre de Marhouma, in institut des recherches sahariennes, 1954.

22 - Berthier (A.), Charlier (R.), Le sanctuaire Punique d'El hofra à Constantine, 1955.

23 - Manceau (P.), Histoire littéraire de l'Afrique chritienne, 7 vol.

24 - Mesnage (J.P.), L'Afrique chritienne, la romanisation de l'Afrique du Nord.

25 - Brisson (J.P.), Autonomiste et christianisme en Afrique, 1958.

26 - Dictionnaire des antiquités grecques et romaines, III, 1918.

27 - La mosaïque Greco-Romaine, CNRS, Paris, 1965.

28 - Gaukler (P.), Musium opus, Dict. Ant. Gr. Rom. III, (2).

29 - Canoge (Th.P.), La vie rurale en Afrique romaine, 1966.

30 - Merlin (A.), La mosaïque du S. Julius de Carthage, BCTH, 1921.

31 - Boissier (G.), L'Algérie romaine.

32 - عبد العزيز فهمي، ملاحق مدونة جوستيتيان، 1951.

33 - م. روستوفتزف، تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعي والإقتصادي، 1956.

34 - محمد عبد القادر محمد، العلاقات المصرية العربية في العصور القديمة، مصادر تاريخ الجزيرة العربية، ج I.

35 - م. البشير شنيتي، التغييرات الإقتصادية والاجتماعية في المغرب أثناء الإحتلال الروماني، الجزائر، 1984.

36 - م. البشير شنيتي، الجزائر في ظل الإحتلال الروماني، جزءان، ديوان المطبوعات الجامعية، ماي 1999.

37 - Capot (R.), Rey, Le nomadisme au Sahara, Rapport Unisco, 1960.

38 - Tyler (V.), Domingi, Aspect agricole de l'occupation romaine en Afrique, 1970.

39 - Demougeot (E.), Le chameau et l'Afrique du nord romain, in R. des études anciennes, 1964.

40 - Lesch (L.), Rome et les nomades du Sahara centrale, IRS, 1942.

41 - Lassert (I.M.), Ubique populus, 1977.

فهرس الأعلام

آ

أ

إ

ا

ت

ث

ج

ح

خ

د

ز

س

ع

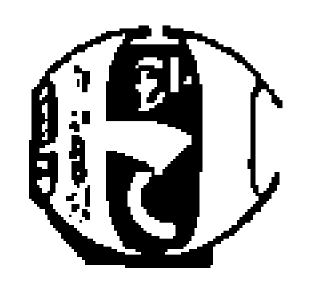
غ

ف

ق

ي

فهرس الموضوعات



دار الحكمة

طباعة - نشر - ترجمة - توزيع

1 نهج املكار كابرال ساحة الشهداء - الجزائر

الهاتف: 021.71.99.56 / 021.71.24.58

الفاكس: 021.71.24.58



دكتور دولة في تاريخ وآثار المغرب – أستاذ الآثار والحضارات القديمة بجامعة الجزائر – عميد سابق لكلية العلوم الإنسانية – أدار معهد الآثار منذ تأسيسه عام 1985 إلى 1990 – ورأس مجلسه العلمي – عين مديرا علميا بالهيئة الوطنية للبحث العلمي (ONRS) سابقا. ويدير حاليا مشروع بحث في الآثار ويرأس هيئة تحرير مجلة «دراسات إنسانية».

ساهم في مؤتمرات وندوات علمية ببحوث ودراسات داخل وخارج الجزائر – نشر له أزيد من 40 بحثا ودراسة في مجلات متخصصة، وصدر له عدد من الكتب منها : 1– الاحتلال الروماني لبلاد المغرب (سياسة الرومنة). 2 – التغيرات الإقتصادية والاجتماعية في بلاد المغرب أثناء الاحتلال الروماني. 3 – ذاكرة الجزائر (تأليف مشترك). 4 – تمهيد حول ما قبل التاريخ في الجزائر (ترجمة مشتركة). 5 – الجزائر في ظل الاحتلال الروماني، جزءان.

«إن حوض البحر المتوسط أشهر أقاليم الدنيا صلاحية لحوار حضاري كان ولا يزال قائما بين الأقوام و الأمم القاطنة على ظفافه وجزره، ورغم تبادل هذه الأمم والأقوام السيطرة السياسية والاقتصادية على أجزاء هامة من هذا العالم الحيوي مستعملة وسائل عسكرية أو غير عسكرية، فإن هناك تبادلا حضاريا مقصودا أو غير مقصود كان أهم حصيلة تاريخية جنتها بلدان هذا الحوض على الرغم من مظاهر التناقص والضاددة الفكرية والعقائدية الكامنة في البنى الحضارية والثقافية لشعوبه».

ردمك: 2 - 46 - 906 - 9961